

الطبعة العربية الأصلية

پاولو كويلو



مكتبة | 272

هليلي



رواية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



پاولو كويلو

وُلد سنة ١٩٤٧ في ريو دي جانيرو.
بدأ كاتبًا مسرحيًا ومدير مسرح
ومؤلف أغان للمشاهير، وعاش هيبيا
فترة من الزمن.

أحدث روايته الثانية «الخيماي»
ضجة عالمية، وتوّجته الكاتب الأكثر
قرّاء وشهرة في العالم.

نُشرت مؤلفاته في ١٨٠ دولة
وترجمت إلى ٨١ لغة وبيع منها
ما يفوق ٢١٠ ملايين نسخة.

نال جوائز وأوسمة لا تُحصى،
وبات يحظى بأكثر نسبة متابعة
على مواقع التواصل الاجتماعي.

هيپي

للحصول على كتبنا قبل الجميع

بروابط تحميل مباشرة

تابعونا

على فيسبوك

facebook.com/ktabpdf

على تيليجرام

telegram @ktabpdf

پاولو كويلو

هيٽي

رواية

ترجمة: رنا الصيفي

تدقيق لغوي: روعي طعمة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: Hippie
نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة،
أسبانيا بوكالتهم عن باولو كويلو
Blog باولو كويلو: <http://paulocoelho.blog.com>
Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.
© ٢٠١٨ جميع الحقوق محفوظة لباولو كويلو
© حقوق النشر بالعربية محفوظة

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ +٩٦١ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ +٩٦١
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٨

ISBN: 978-9953-88-999-3

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الخريطة صفحة ١٢٠-١٢١: © Cristina Oiticica

الإخراج الفني، فنون قطيش

مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

إن إحدى أقدم الطرائق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبين لي أمورًا لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمنالها، وأنا أرقب كتبي تنشرها، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - لبنان، في المنطقة نفسها التي كثيرًا ما أثارت مخيلتي. وإنني فمتنّ للناسر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قراء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتسمت بالجديّة، بعد حصوله مني، وفقًا للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيرًا، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيلة - المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكنًا، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

يا مريم البريئة من الخطيئة الأصلية، صلي لأجلنا نحن
المتنجسين إليك.

آمين

فَقِيلَ لَهُ: «أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ وَاقِفُونَ خَارِجًا، وَهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَرَوْكَ».
فَاجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أُمِّي وَإِخْوَتِي هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ
وَيُطِيعُونَهُ».

(لوقا ٨، ٢٠، ٢١)

خِلْتُ أَنَّ رَحْلَتِي انْتَهَتْ، وَقَدْ اسْتَنْزَفْتُ كُلَّ طَاقَتِي،
 أَنَّ الدَّرْبَ أَمَامِي مَسْدُودَةٌ،
 أَنَّ مَوْئِي نَفِذٌ،
 وَأَنَّ الْأَوَانَ أَنَّهُ لَا تَجِيءُ إِلَى صَمْتِ الظَّلَامِ.
 وَإِذْ بِي أُكْتَشِفُ أَنَّ إِرَادَتِي لَا تَعْرِفُ حُدُودًا،
 وَأَنَّ كَلِمَاتِي الْعَتِيقَةَ مَتَى تَعَطَّلَتْ عَلَى لِسَانِي،
 انْبَثَقَتْ الْحَانُ جَدِيدَةً مِنْ قَلْبِي،
 وَأَنَّ السَّبِيلَ الْقَدِيمَةَ مَتَى فُقِدَتْ،
 تَجَلَّتْ بِلَادٌ جَدِيدَةٌ بِكُلِّ عَجَائِبِهَا.

روبندرناث طاغور
 «قرايين الغناء»

إلى كبير، الرومي، طاغور، القديس بولس الطرسوسي، حافظ،
أنتم الذين رافقتموني مُذ اكتشفتمكم،
أنتم الذين خَطَطْتُمْ جزءاً من قصة حياتي،
أنتم الذين أروي في هذا الكتاب، بكلماتكم في الغالب.

الرواية التالية نابعة من تجاربي الشخصية. عدلتُ أحياناً ترتيب الأحداث وأسماء الأشخاص وبعض تفاصيلهم. وكان عليّ أن أوجز بعض المشاهد، لكن ما يلي حقيقي برمته. أثرتُ استعمال ضمير الغائب للشخصيات كلها، مانحاً إياها أصواتاً استثنائية تصف حياتها.

هيڀي

في أيلول من العام ١٩٧٠، تنازع مكانان على مركز العالم، وهما ميدان «البيكاديللي» في لندن، وساحة السدّ «دام» في أمستردام. لكن لم يكن الجميع يدركون ذلك. إن أغلب مَنْ سئلوا أجابوا: «البيت الأبيض» في الولايات المتحدة الأميركية أو «الكرملين» في الاتحاد السوفيتي، فهؤلاء كانوا يستقون معلوماتهم من الصحف والتلفاز والراديو، وسائل التواصل هذه التي عفا عليها الزمن كلياً، ولن تستعيد يوماً وجاهة بداياتها.

في أيلول من العام ١٩٧٠، كانت أسعار تذاكر السفر باهظة جداً، ما عني أنّ السفر كان حكراً على النخبة. لكن، وإلى حدٍ ما... كان جمع غفير من الشباب أيضاً يسافرون، هم الذين لم تلتقط وسائل التواصل القديمة منهم سوى مظهرهم؛ سوى أنّهم تميّزوا بشعر طويل وثياب مزركشة الألوان، وأنّهم لا يستحمّون (وهذا قولٌ زور. لكنّ الناشئة لم يكونوا من مطالعي الصحف، أما الراشدون فكانوا يصدّقون أيّ نبا من شأنه تشويه سمعة «مهددي المجتمع والآداب العامة»). هم شكّلوا خطراً على جيل كامل، جيل مجتهد وراغب في النجاح في الحياة، بسبب قدواتهم التحرّرية السيئة والحبّ الحرّ، كما كان يروق لمُحقّريهم تسميته بازدراء. وهذا الجمع الغفير من الياقعين، الذي تعاظم عدده يوماً إثر يوم، تناقل المعلومات عبر نظام لم يفلح أحد قط في تقفيّه.

لكن قلّما اكترث «البريد الخفي» لترويج الطراز الأحدث من فولسفاغن

أو مساحيق الغسيل التي ضجّ بها العالم أجمع في حينه. قَصُرَ في الواقع أخباره على الطريق الكبرى التالية التي سيكتشفها هؤلاء الشباب الغزل القذرون الذين مارسوا الحب الحرّ، واعتمدوا من اللباس ما خَدَشَ حياء أصحاب الذوق الرفيع. بالزهر غَطَّت الفتيات شعورهنّ المجدولة وارتيدين تنانير طويلة وبلوزات ملوّنة، وتخلّين عن حمالات الصدر وازدنَ بعقودٍ من اللؤلؤ الملّون، وأطال الفتيان لحاهم وشعورهم وارتدوا بنطلونات الجينز، باهتة ورثة لفرط ارتدائها، لأنّ الجينز كان باهظاً أينما كان في العالم، باستثناء الولايات المتّحدة الأميركيّة حيث خرج هذا اللباس من أحياء غيتو عمال المصانع، وراج ارتداؤه في الحفلات الموسيقيّة في سان فرانسيسكو وضواحيها.

وإن وُجِدَ البريد الخفيّ، فبسبب الاحتشاد الدائم لأولئك الشباب في الحفلات الموسيقيّة، حيث تبادلوا الأفكار بشأن وجهتهم التالية وطُرق استكشاف العالم من دون أن يُضطروا إلى ركوب أحد تلك الباصات السياحيّة، حيث المُرشِد يصف المناظر ويضجر اليافعون ويغفو المُسنّون. وهكذا، بالتداول الشفهيّ، عرفوا جميعاً مكان الحفل الموسيقيّ التالي الذي سیرتادونه، أو الطريق الكبرى التالية التي سيسلكونها. لم يكن المال عائفاً لأحد، لأنّ الكاتب المُفضّل لدى هذه الثلّة لم يكن أفلاطون ولا أرسطو، ولا فنّان شهير يصدر المجلّات الهزليّة. كان الكتاب الذي رافق كلّاً منهم تقريباً يتناول «القازة العجوز»، وكان عنوانه «أوروبا بخمسة دولارات في اليوم، من تأليف آرثر فرومر. يرد فيه، أين يمكنك أن تنزل وأين تأكل وماذا ترى، وأماكن الملتقى، وأماكن الاستماع إلى الموسيقى الحيّة بالمجان تقريباً.

كان خطأ فرومر الوحيد أنّه حَصَرَ دليله بأوروبا. ألم يكن ثمة أماكن أخرى مشوّقة؟ أولم ينزع الناس إلى ارتياد الهند بدلاً من باريس؟

سَدَّ فرومر هذه الثغرة بعد سنوات. في أثناء ذلك، أخذ «البريد الخفي» على عاتقه تأمين طريق عبر أميركا الجنوبية إلى مدينة «ماتشو بيتشو» القديمة المفقودة، مُحذِرًا مع ذلك الجميع من عدم الحديث عنها إلى الخارجين على الثقافة الهيبية، لنلا نتاج المكان سريعًا موجه من البرابرة المدججين بالآلات تصوير وبشروح مستفيضة (سرعان ما تُنسى) كيف أن مجموعة من الهنود أقاموا مدينة مخبأة لا يُمكن إيجادها إلا من السماء، الأمر الذي اعتبروه مُستحيلًا، لأن البشر يعجزون عن الطيران.

ومن باب الدقة، كان ثمة عمل ضخَم ثانٍ من الأعمال الأكثر مبيعًا، وإن لم يكن على قَدَر شهرة كتاب فرومر، لكنّه لاقى صدًى كبيرًا لدى من عرفوا زمن الاشتراكية والماركسية واللاسلطوية، التي أنت جميعها إلى خيبة سحيقة من هذه التيارات التي ابتكرها أفراد طالبوا، بحتمية استيلاء الطبقة العاملة على السلطة في العالم أجمع، أو «الدين أفيون الشعب»، وهي جملة سخيفة أثبتت أن قائلها لم يكن يفقه شيئًا عن الشعب ولا عن الأفيون. فهؤلاء الشباب ذوو الثياب الرثة آمنوا، من بين أمور أخرى، بالله والآلهة والآلهات الملائكة وأشياء من هذا القبيل. كانت المشكلة الوحيدة أن ذلك الكتاب، وعنوانه «صباح السحرة»، الذي كتبه الفرنسي لويه باويلز، والسوفييتي جاك بيرجيه، وكان عالم رياضيات وجاسوسًا سابقًا، وباحثًا لا يكل في شؤون القوى الخفية، كان نقیض المؤلفات السياسية، إذ قال إنَّ العالم قائمٌ على غوامض أخاذة، إنَّ فيه خيميائيين وسحرة وكاثاربيين وفرسان هيكَل. وحال محتواه والأفاز التي تضمَّنها دون حصاده رواجًا كبيرًا في المكتبات. فقد تناوب على نسخة واحدة منه عشرة أشخاص على الأقل بالنظر إلى ثمنه الباهظ. وبما أنه تناول «ماتشو بيتشو»، أراد الجميع الذهاب إلى البيرو. أمَّا شباب من العالم أجمع (لكن لا، أن نقول من العالم

أجمع قول مبالغ فيه، فلم يكن بمقدور من عاش في الاتحاد السوفيتي مثلاً مغادرته بسهولة).

فلنرجع الآن إلى موضوعنا؛ شباب من العالم أجمع، ممن كان بمقدورهم على الأقل نيل تلك الملكية التي لا تُقدَّر بثمن السمّاء «جواز سفر»، التقوا على الطرقات الهيبتية الشهيرة. لم يعرف أحد المعنى الدقيق لكلمة «هيبتى»، وقلّما كان هذا مهماً. ربما عنت «قبيلة كبيرة بلا زعيم» أو «منحرفين لا يسرقون» أو حتّى كلّ التوصيفات الأنفة في هذا الفصل.

وجوازات السفر، تلك الدفاتر الصغيرة التي تُصدرها الحكومة، والتي كانت تُحفظ بعناية في محفظة شُدّت بحزام إلى جانب المال (وقلّما كان هذا مهماً إن كان قليلاً أو كثيراً)، كانت لها غايتان، الأولى كما هو معلوم منا جميعاً، أنّها تُجيز عبور الحدود، عندما لا ينساق الحراس الجمركيون إلى ما تقوله الصحف، ولا يردّون حامل الجواز بسبب ملبسه وشعره وأزهاره وعقوده ولآلئه وابتساماته التي تبدو أنّها ناجمة عن حالة من النشوة المستمرة، عزتها الصحافة بشكل عام ومجحف إلى المخدرات الشيطانية التي كان هؤلاء الناشئة يتناولونها باطراد. والوظيفة الثانية لجواز السفر كانت نجدة حامله في الحالات القصوى، متى أمسى خالي الوفاض ولم يعد لديه من يلتجئ إليه. كان «البريد الخفي» متوافراً دوماً للإشارة إلى أماكن بيع الدفتر الصغير. وتفاوتت سعره بحسب البلد، جواز سفر من السويد، حيث الجميع يتصفون بطول القامة والشقار والعيون الفاتحة، لم يكن باهظاً. فلا يمكن إعادة بيعه إلا لمن كان طويل القامة وأشقر وفاتح العينين، وهي مواصفات لم تكن مرغوبة في العموم. أما

جواز السفر البرازيلي، فكان يساوي ثروة في السوق السوداء. ففي البرازيل، بالإضافة إلى طوال القائمة الشقر الفاتحي العينين، وُجِدَ أيضًا القصار إلى جانب الطوال، وذوو البشرة السوداء والعيون الداكنة، والآسيون بعيونهم الزمومة، والخلاسيون، والهنود، والعرب، واليهود... باختصار، كانوا خليطًا ثقافيًا هائلًا جعل من وثيقة الهوية هذه الأكثر طلبًا على الكوكب.

ومتى بيع الجواز، توخَّه صاحبه الأساسي إلى قنصلية بلده وروى، متقنًا بالهلع والأسى، أمر تعرّضه للاعتداء وسرقة كلّ ما بحوزته وتزكّيه بلا مال ولا جواز. كانت قنصليات البلاد الأخرى تزودهم بجواز سفر وتذكرة عودة مجانيًا، تذكرة كان المتظلم يرفضها، ويتذرع قائلاً: «أحدهم يُدين لي بمبلغ لا يستهان به من المال، عليّ تحصيله أولاً قبل أن أذهب». أما قنصليات البلدان الأفقر، الخاضعة عمومًا لأنظمة متشدّدة بأيدي العسكريين، فكانت تُجري تحقيقًا جديًا لتعرف إن كان مقدّم الطلب مدرجًا على لائحة الإرهابيين المطلوبين بتهمة الانقلاب. وبعد أن تَخَلَّصَ إلى أنّ السجلّ العدلي للشابّة أو الشاب نظيف، كانت تُجرى رغبةً عنها على تزويدهما بوثيقة جديدة. في المقابل، لم توفّر لهما قط تناكر عودة، فلا مصلحة لها في أن تُعيد إلى بلدها هؤلاء المهمّلين الذين هدّدوا بالتأثير في جيل بكامله، تربي على احترام الله والعائلة والمُلك.

فلنرجع إلى الطرفات: في المرتبة الثانية بعد «ماتشو بيتشو، حلت «تياواناكو» في بوليفيا، تلتها «لاسا» في التيبّت التي تعرّس دخولها. فبحسب البريد الخفي، قامت حربٌ بين الرهبان والعساكر الحمر الصينيين. كان من الصعب تصوّر هذه الواقعة. ومع ذلك، أخذها الكلّ على محمل الجدّ،

ولم يكن أحدٌ ليحازف بالسفر إلى ما لا نهاية، ليقع أخيراً سجين الرهبان أو الجنود. غير أن آخر كبار فلاسفة ذاك العصر، أي فرقة البيتلز، التي تفرق أعضاؤها في نيسان من ذاك العام، كانوا قد أعلنوا قبل فترة وجيزة أن الهند مرتع حكمة الكون العظمى. كان ذلك كافياً لاستقطاب الشباب من العالم أجمع، سعياً إلى الحكمة والمعرفة والعلمين الروحيين ونذور الفقر والتنوير ولقاء My Sweet Lord.

لكن، «البريد الخفي» أشاع أن المعلم الروحي الكبير للبيتلز، ماهاريشي ماهيش يوغى، حاول مضاجعة ميا فازو. خبرت هذه الممثلة خيبات عاطفية على مر السنين، وذهبت إلى الهند بدعوة من الفرقة، وربما ذهبت من أجل أن تُشفى من صدمات عاطفية جنسية لديها بدت أنها تلاحقها كالكارما السيئة.

غير أن كل الإشارات دلت على أن كارما ميا فازو رافقتها، كذلك رافقها جون وبول وجورج ورينغو. بحسب أقوالها، كانت بصدد التأمل في مغارة المعلم الروحي الكبير، عندما أمسك بها وحاول إرغامها على مضاجعته. آنذاك، كان رينغو قد عاد إلى إنكلترا، إذ كرهت زوجته الطعام الهندي، وغادر بول أيضاً المعتكف، مقتنعاً بأن لا طائل منه. وحدهما جورج وجون بقيا في معبد ماهاريشي عندما جاءتهما ميا، باكية، وروت لهما ما حدث. وضبا امتعتهما للتو، وعندما حضر المنور وسألتهما عما يجري، أجابه لينون بنبرة فظة:

— لو كنت منوراً فعلاً يا ابن الزانية، لعرفت تماماً ما الأمر!

لكن، في أيلول من العام ١٩٧٠، سيطرت النساء على العالم، أو بالتحديد،

الشابات الهيبات هنّ من سيطرن على العالم. خضع الرجال لهنّ، وعرفوا تمام المعرفة أنّ آخر الصيحات لم تكن السبيل إلى إغوائهنّ، فقد تفوّقن عليهم في ذلك، فركنوا نهائياً إلى التسليم بالواقع، بأنهم كانوا في حاجة إليهنّ. واتّشحو باللهفة وكأنّهم يتوسّلون: «احمني أرجوك، أنا وحيد، ولا يسعني التعرّف إلى أحد، اظنّ أنّ العالم قد تخلّى عنيّ وأنّ الحبّ هجرني إلى الأبد.. اختارت النسوة ذكورهنّ من دون التفكير، ولو ثابته في الزواج، بل في مجرد الاستمتاع بالجنس المتقدّ والعارم. كانت الكلمة الفصل لهنّ دوماً، سواء بشأن موضوعات مهمّة، أو أمور سطحيّة وكماليّة. لذا، عندما نشر «البريد الخفي» خبر الاعتداء الجنسي الذي تعرّضت له ميا فازو والجملة التي قذف بها لبنون، حوّلت النساء وجهتهنّ.

اكتشفت طريق هيبية أخرى: طريق أمستردام في هولندا إلى كاتماندو في نيبال على متن باص كانت تكلفه تذكرته مئة دولار تقريباً، عبر بلداناً لا بدّ أنّها كانت مشوّقة فعلاً، مثل تركيا، لبنان، العراق، إيران، أفغانستان، باكستان، وجزء من الهند (كان، في المناسبة، بعيداً كلّ البعد عن معبد ماهاريشي). استغرقت الرحلة ثلاثة أسابيع، وقطع الباص خلالها عدداً لا يحصى من الكيلومترات.

كانت كارلا تجلس في ساحة السد «دام»، تسأل نفسها: متى سيأتي من سيرا فني في هذه المغامرة الساحرة؟ (في رأيها طبعاً). كانت قد تركت مركز عملها في روتردام الذي لم يكن يبعد سوى مسافة ساعة في القطار. غير أنها جاءت تنتقل مستوقفة السيارات العابرة، بهدف أن تدخر قدر ما نستطيع، فاستغرقت رحلتها قرابة نهار. كانت قد علمت بباص يقصد نيبال، من إحدى الصحف البديلة التي أسسها، بالكند والحب والعمل، أشخاص كانوا على قناعة بأن ثمة ما يقولونه للعالم، وباعوها بالتالي بسعر زهيد.

بعد انتظار قرابة أسبوع، بدأت تفقد أعصابها. كانت قد قاربت جملةً من الفتيان من بلدان مختلفة، افتصر طموحهم على الكوث هنا، في هذه الساحة التي تخلو من أي جاذب، باستثناء تمثال على شكل عضو ذكري كان لا بُدَّ على الأقل أن يستثير ذكورتهم وشجاعتهم. لكن لا، لا أحد من منهم كان مستعداً للذهاب إلى بلاد على هذا القدر من الغموض. لم تكن المسألة مسألة مسافة، فقد جاء أغلبهم من الولايات المتحدة، من أميركا اللاتينية، من أستراليا، أو من بلاد قصبة أخرى، ما حتم إنفاق مبلغ جَمٍّ من المال لشراء تذاكر الطائرات، والمرور بكثير من النقاط الحدودية حيث يحتمل إرجاعهم إلى بلدانهم، من دون أن يكونوا قد تعرفوا إحدى عاصمتي العالم حتى. ومتى حطّوا رحالهم هناك، جلسوا في تلك الساحة الباهتة، دخّنوا الماريوانا، استمتعوا بقدرتهم على تدخينها على مرأى من

أفراد الشرطة، لتفترسهم من ثَمّ الجماعات والمذاهب الدينيّة التي فاضت بها المدينة. نسوا، لبعض الوقت على الأقلّ، ما كانوا يسمعونّه طوال حياتهم: «بني، عليك بارتياح الجامعة، بقصّ شعرك» لا تجلب العار على والديك والأب سيقول الناس (أي ناس؟) إنّنا أسانا تربيتك، مهما يكن ما تستمع إليه، فهو ليس موسيقا، حان الوقت لتجد عملاً، انظر إلى أخيك، الأصغر الذي يُنفق ماله الخاص ليفعل ما يستمتع به، من دون أن يطلب إلينا شيئاً..

أصبحوا الآن أحراراً بعيداً عن نواح أسرهم اللامتناهي، وكانت أوروبا مكاناً آمناً (شرط ألا تُغامر طبعاً في اجتياز الستار الحديدي الشهير بهدف «غزو» بلاد شيوعيّة ما)، وكانوا سعداء، لأنّ السفر يعلم كلّ ما يلزم مدى الحياة، ماداموا غير مضطّرين إلى تبرير ذلك لأهاليهم.

«أبي، أعرف أنّك تريدني أن أحوز شهادة دبلوم، لكن أستطيع ذلك متى أردت أنا، الآن، فأنا بحاجة إلى خوض التجارب..»

لم يكن بوسع أيّ أب فهم ذاك المنطق. وما كان منهم سوى ادّخار بعض المال وبيع أغراضهم، والتسلّل هرباً من المنزل، حين يكون أفراد الأسرة نياماً.

لذا، كانت كارلا محاطة بأشخاص أحرار وعازمين على خوض تجارب لم يتحلّ أغلب الناس بالشجاعة لخوضها. لكن، ما المانع إذن من الذهاب إلى كاتماندو بالباص؟

أجابوا: لأنها ليست أوروبا. نجهل تماماً ما هي عليه الأمور هناك. إن وقع مكروه، يمكننا أن نقصد القنصلية، ونطلب ترحيلنا (لم تسمع كارلا بحدوث ذلك ولو مرّة، لكن سرت الأسطورة أنّ حدوثه محتمل، والأسطورة بفعل تكرارها تتحوّل في النهاية إلى حقيقة).

بعد خمسة أيام على انتظار من ستعيّنه «رفيق الدرب»، أناخ بها اليأس. فقد أنفقت مالا لتبيت في نزل، بدل أن تكون آنذاك نائمة ببساطة في «الباص السحري» (كان هذا الاسم الرسمي للباص الذي يبلغ ثمن تذكرته مئة دولار أميركي، والذي عبر آلاف الكيلومترات). قرّرت أن تدخل مقصورة عرافة تعودت أن تقصدها قبل التوجّه إلى ساحة «دام». كانت المقصورة فارغة كالعادة، ففي أيلول من العام ١٩٧٠، كان الجميع يمتلكون قدرات خارقة أو كانوا في صدد تنميتها. لكنّ كارلا كانت امرأة عمليّة، ومع أنّها كانت تُمارس التأمل يوميًا، وكانت على قناعة بأنّها قد بدأت تفتح عيناها الثالثة (وهي نقطة لامرئيّة بين العينين)، فإنّها لم تلتقِ حتّى الآن إلا من لم يُخلق لها من الرجال، حتّى حين طمانها حدسها بأنّهم كانوا مناسبين.

قرّرت إذن أن تلجأ إلى هذه العرافة، خصوصًا وأنّ هذا الانتظار اللامتناهي (مرّ أسبوع تقريبًا وكأنّه أبدية!) جعلها تفكّر في الذهاب برفقة امرأة أخرى. لكن أن تسافر امرأتان وحدهما عبر بلدان عدّة كان مرادفًا للانتحار، حيث، في أفضل الأحوال، سينظر إليهما نظرة دونية، وفي أسوأ الأحوال، إن صدّقت جدّتها، ستُباعان «أمتين بيضاوين» (حملت الكلمة في نظرها معنى جنسيًا لكنّها لم تكن على استعداد للمجازفة بجسمها لكي تجزّيها).

كانت العرافة، واسمها ليلى، أكبر سنًا قليلًا منها، وكانت ترتدي لباسًا أبيض. استقبلتها بابتسامة هانئة كتلك التي يرسمها من هم على تواصل مع كيّان أسمى على محياهم، وبانحناءة احترام (من المؤكّد أنّها أسرت لنفسها، ساجني أخيرًا ما يعادل أجره مقصورتني في اليوم). طلبت إلى

كارلا أن تجلس، ففعلت، وأثنت على اختيارها الجلوس في بؤرة الطاقة في المقصورة. ادّعت كارلا ضمناً أنها نجحت في فتح العين الثالثة، غير أن لاوعيتها حذرها. فلا بُدَّ أن ليلى تقول ذلك للجميع، أو بالأحرى للقلائل الذين يدخلون مقصورتها.

في أيّ حال، لا أهمية لذلك الآن. أشعلت العزّافة عود بخور، وقالت: «إنّه يأتي من نيبال»، غير أنّ كارلا كانت تعلم بأنّه يُصنّع في مكان قريب. كان البخور إحدى الصناعات الهيبية الكرى، إلى جانب العقود، وقمصان الباتيك، والرّفْع التي لها رمز السلام أو الأزهار أو عبارة Flower Power لإخاطبتها على الملابس. تناولت ليلى ورق اللعب وراحت تخلطه. طلبت إلى كارلا أن تشطر الورق نصفين، فرنت من ثم ثلاث أوراقٍ إلى الطاولة، ونطقت بأكثر التاويلات تقليدية. قاطعتها قائلة:

— لم أت لهذا الشأن. أودّ فقط أن أعرف إن كنتُ ساجد من يرافقني إلى المكان الذي قلت... (شدت جيداً على كلماتها الأخيرة، لأنها لم ترغب في استحضار كارما سيئة، فلو أنّها قالت «أريد الذهاب إلى المكان نفسه»، لوجبت نفسها على الأرجح في مصنع بضواحي أمستردام، حيث يُصنّع البخور فعلاً)... إنه مصدر البخور.

ابتسمت ليلى، رغم تغير ذبذبتها تماماً. غير أنها، في عمق أعماقها، استشاطت غيظاً لمقاطعتها في لحظةٍ مهيبة بهذا القدر، وقالت:

— نعم، بالطبع ستجدين. على العزافات وقارنات الطالع أن يقلن دوماً ما يريد الزبائن سماعه...

— متى؟

— بحلول مساء الغد.

ذَهَبَ العَجَبُ بهما.

شعرت كارلا للمرة الأولى أن العزافة تقول الحقيقة. كانت نبرتها تأكيدية وإيجابية، كما لو أن صوتها انبثق من بُعد آخر. ارتفعت ليلي من جهتها. فقد نذّر أن عرفت لحظات بصيرة مماثلة. ومتى حدثت، كانت تخشى أن يحلّ بها العقاب لدخولها بلا مراسم إلى هذا العالم الذي بدا حقيقياً ومغلوطاً في آن. مع ذلك، كانت تبرّر ذلك في صلواتها كلّ ليلة، أن وجودها على الأرض كان لمساعدة الآخرين في مقاربة ما أرادوه بإيجابية أكبر.

نهضت كارلا على الفور من «بؤرة الطاقة»، دفعت تكلفة نصف جلسة، وخرجت قبل مجيء رفيق سفرها الذي طال انتظاره. «بحلول مساء الغد، عبارة فضفاضة. قد تعني اليوم أيضاً. لكن مهما يحدث، فقد عرفت أنها من الآن فصاعداً بانتظار أحدهم.

استعادت مكانها في ساحة «دام». فتحت الكتاب الذي كانت قد بدأت بقراءته، والذي كان معروفاً من قلة حينها (مما أعطى كاتبه في نظرها صفة الكاتب الشعائري). كان الكتاب بعنوان «سيد الخواتم *The Lord of The Rings*»، وهو من تأليف ج.ر.ر. تولكيان، الذي تحدّث عن أماكن أسطورية كتلك التي نوت زيارتها. ادّعت تجاهل الفتيان اللذين كانوا يضابقونها كلّ خمس دقائق طارحين عليها سؤالاً غريباً، لذريعة خاوية في محادثة أكثر خواءً.

كان باولو والرجل الأرجنتيني، اللذان استنفدا كل موضوعات النقاش المحتملة، يتأملان في هذا الوقت تلك الأراضي المسطحة، غير أن ذهنيهما كانا في مكان آخر. فقد ارتحلت معهما ذكريات وأسماء، وشعور بالفضول، وخوف عميق تحديداً مما قبع في انتظارهما عند الحدود الهولندية التي كانت تبعد ثلث ساعة فقط على الأرجح.

راح باولو يمسّ شعره الطويل تحت ياقة معطفه.

سأله الآخر: - اتعتقد أنك ستفطح هكذا في خداع حرس الجمارك؟ لقد خبروا كل شيء، كل شيء بحق.

عدّل باولو عن ذلك، وسأل رفيقه إن كان قلقاً.

- نعم بالطبع. لندي ختما دخول إلى هولندا. سوف يتخذون حذرهم، سيظنون أنني أحيي غالباً. وهذا، هذا بالضبط، يعني أمراً واحداً.

الإتجار بالمخدرات. لكن المخدرات كانت مشروعة هنا على حد علم باولو.

- بالطبع لا تساهل البتة مع الأفيون ومشتقاته. والأمر سيان مع الكوكايين. أما مخدر LSD، فلا سبيل إلى ضبطه، إذ يكفي أن تبلّل في المحلول صفحة من كتاب أو قطعة قماش، وتقصّها وتعيد بيعها قطعاً صغيرة. لكن كل ما يمكنهم كشفه قد يُفضي بك مباشرة إلى السجن.

راى باولو أن من الأفضل فضّ الحديث. تحرّق لسؤال الأرجنتينى إن كان بجوزته شيء ما، لكنّ مجرد معرفته الأمر سيحوّله إلى شريك في الجرم. وسبق له أن دخل السجن مرّة، رغم براءته التامة، في بلد رَفَعَ شعار البرازيل، أحبّها أو غادرها، على أبواب مطاراته كلّها.

عندما نحاول طرد الأفكار السلبية من أذهاننا، يكون لذلك على الدوام أثر معاكس، فالسلبية تستقطب المزيد من الطاقات الشيطانية. فبخصوص باولو، أدّى مجرد تذكّر ما حدث سنة ١٩٦٨ إلى تسارع نبض قلبه، وجعله يحيا، ثانيةً وبادقّ التفاصيل، ذاك المساء في مطعم في بونتا غروسا من بارانا، وهي ولاية برازيلية ذاع صيتها بتأمين جوازات السفر للشعر الفاتحي العيون.

كان قد رجع لتوّه من رحلته الأولى الطويلة على الطريق الهيبية الرائجة يومها. رافقته حبيبته التي كانت تكبره بإحدى عشرة سنة، والتي وُلدت وترعرعت في ظلّ الحكم الشيوعي في يوغوسلافيا، لأسرة نبيلة فقدت كلّ شيء، لكنّها أمنت لها تعليمًا أجادت بفضلهِ أربع لغات، هزّت إلى البرازيل. تزوّجت بمليونير بموجب نظام الملكية المشتركة بين الزوجين، وانفصلت عنه عندما اكتشفت أنّه يراها «عجوزًا» لكونها في الثالثة والثلاثين من العمر، وكان يتودّد إلى شابة في السابعة عشرة. كلّفت محاميًا ممتازًا حصل لها على تعويض كافٍ ليحول دون اضطرارها إلى العمل، ولو ليوم، مدى حياتها.

كان باولو وحبيبته قد ذهبا إلى «ماتشو بيتشو، على متن ما سُمّي «قطار الموت»، وهو وسيلة نقل تختلف جدًّا عن القطار الذي يقّله الآن. سألت حبيبته المسؤول عن التحقّق من التذاكر: - لماذا يُسمّونه «قطار الموت»؟ فنحن لا نعبّر منحدرات شاهقة.

قلّمَا اكترث باولو للإجابة، التي جاءتهما مع ذلك.

- قديمًا، استُخدمت هذا العربات لنقل المصابين بداء البرص والمرضى وجثث ضحايا أُصيبوا بوباء الحمّى الصفراء الشديد الذي حلّ بمنطقة سانتا كروز.

— افترض أن العربات قد طُهرت من الجراثيم بعناية.

— مذاك، وباستثناء عامل منجم أو اثنين، كانت لديهما حسابات يُصَفِّيانها الواحد مع الآخر، لم يمت أحد.

لم يقصد بـ«عمال المناجم» الذين وُلِدوا في ولاية «مينا جيرائس» الغنيّة بالمعادن في البرازيل، والتي أتى منها باولو، بل أراد بهم الرجال الذين كانوا يعملون ليل نهار في مناجم القصدير في بوليفيا. والآن، هما في عالم متحضر، وأمل ألا يكون ثمة من لديه حسابات للتصفية ذاك اليوم. لكن، لحسن حظهما، كان معظم الركّاب من الجنس اللطيف، بقبّعاتهن البولر المدوّرة وثيابهن الزرّكشة.

وصلا إلى لاباز، العاصمة، التي ترتفع ٣٦٤٠ متراً عن سطح البحر. وإذا صعدا إليها بالقطار، لم يشعرا بتأثير نقص الأكسجين. لكن لدى الهبوط إلى المحطة، صادفا شاباً يجلس على الأرض ويبدو عليه الضياع نوعاً ما. وشى زيه بالقبيلة التي ينتمي إليها. سالاه عما جرى له (أعجز عن التنفّس جيّداً). اقترح عليه عابر سبيل أن يمضغ أوراق الكوكا المتوافرة في أي سوق قريبة. كانت تلك عادة قَبَلِيّة تُعين السكان الأصليين على تحمّل الارتفاع. توسّل إليهما الشاب، الذي كان قد بدأ يشعر بتحسن، أن يدعاه وشانه. كان ذاهباً إلى «ماتشو بيتشو» ذلك اليوم نفسه.

في الفندق الذي اختاراه، أخذت عاملة الاستقبال حبيبته على حدة، تمتمت لها ببضع كلمات، وجعلتهما من ثمّ يملآن استمارة. صعدا إلى الغرفة، وناما من فورهما. لكن قبل ذلك، سألها باولو:

— ما الذي أسرت به المرأة إليك.

— لا جنس في اليومين الأولين.

كان الأمر بديهياً. في أي حال، لم يكن في وضع يسمح له بفعل شيء أصلاً.

صرفاً يوميهما الأولين في العاصمة البوليفية من دون ممارسة الحب، ومن دون أن يشعرا بأي أعراض جانبية جزاء السوروتشيه، كما عُرف به نقص الأكسجين. عزيا ذلك إلى المنافع العلاجية لأوراق الكوكا، لكنهما كانا على خطأ؛ يفعل السوروتشيه فعله بمن ينتقلون من مستوى البحر إلى مرتفعات عالية دفعة واحدة، بعبارة أخرى، في الطائرة، من دون أن يُتيحوا للجسم الوقت للتكيف. أما هما فقد صرفا سبعة أيام طويلة في قطار الموت. كان ذلك أفضل للتكيف مع المحيط، وأكثر أماناً طبعاً من الطائرة، إذ كان باولو قد رأى في مطار سانتا كروز دي لا سييرا تمثالاً كُرس لربابنة الشركة الأبطال الذين ضحّوا بحياتهم أثناء أدائهم واجبهم.

في لاباز، التقيا الهيببيين الأول الذين، بالنظر إلى كونهم قبيلة عالية تعي مسؤوليتها وتكافلها التبادل اللذين التزمهما، كانوا على الدوام يضعون الرمز الشهير من أبجدية الفايكينغ بالقلوب. في حالة بوليفيا، وهي بلد يرتدي فيه الجميع أوشحة البونشو والسترات الخفيفة والقمصان والبدّات المتعددة الألوان، كان من شبه المستحيل تمييز الواحد من الآخر، لولا الحرف الذي خيط على الستّر أو البنطلونات.



كان هؤلاء الهيبيون الأول شابين المانيين وامرأة كندية. وإذا كانت حبيبته تتكلم الألمانية، دعياها من فورهما إلى التجول في المدينة، في حين بقي هو برفقة الكندية يتبادلان النظرات ولا يعلمان ما يقولانه. عندما رجع الثلاثة الآخرون من تجوالهم بعد نصف ساعة، قرروا جميعاً المغادرة على الفور بدل المكوث وإنفاق المال هنا. سيكملون الطريق حتى بحيرة تيتيكاكا، مسطح المياه العذبة الأكثر ارتفاعاً في العالم، واجتيازها عبر مركب، والنزول عند الضفة المقابلة، الكائنة في البيرو، والتوجه من ثم إلى ماتشو بيتشو.

كان كل شيء ليجري كما هو متوقع، لو لم يجدوا أنفسهم عقب بلوغهم ضفاف بحيرة تيتيكاكا، أمام نصب شديد القدم، عُرف ببوابة الشمس. على مداره، جلس هيببيون آخرون، يمسك الواحد بيد الآخر، يؤذون طقساً رغبوا أن يشاركوا فيه، لكنهم خشوا مقاطعة الآخرين. لحثهم شابة، وأومات إليهم بإشارة من رأسها، فانضم الخمسة إلى المجموعة.

لم يكن من داع لتبرير وجودهم هنا، فقد حكى البوابة عن نفسها. فيما عدا الصدع الكائن في وسط العارضة العلوية، والذي أحدثه برق على الأرجح، كانت البوابة روعة حقّة، روت نقوشها الغائرة حكاية زمن منسي، لكنه حاضر جداً، جُل ما أرادته أن تُحيا ذكراه، ويكتشف من جديد. نُحتت البوابة من كتلة حجرية واحدة ونُقش على العارضة ملائكة وسادة ورموز لم تعد قائمة، مثلت ثقافة، أشارت بحسب السكّان الأصليين، إلى كيفية استعادة العالم إذا دُمّره جشع الإنسان. وإذ لاحت بحيرة تيتيكاكا لباولو عبر فتحة البوابة، راح يبكي، كما لو أنه تواصل ببنائيهما، وهم أشخاص غادروا المكان على عجلة، من دون أن يتمكنوا من إنجاز عملهم، خوفاً من دخلاء، أو من ظاهرة أجبرتهم على التوقف والفرار. ارتسمت ابتسامة على وجه الشابة التي سبق أن دعتهم للانضمام إلى الحلقة، وقد تفرق الدمع في عينيها. أغمض الآخرون جميعاً عيونهم، تحادثوا مع الأقدمين، سعوا إلى معرفة ما استدعى مجيئهم إلى هنا، وأبدوا وقارهم لهذا الغموض العظيم.

من أراد تعلّم السّحر عليه أولاً النّظر حوله. وضع الله أمام ناظر الإنسان كلّ ما أراد أن يظهره له، وهو تقليد الشمس الشهير.

تقليد الشمس مُباح للجميع؛ هو لا يخصّ الفقهاء أو الطهاري، بل هو للجميع. فالطاقة ماثلة في كلّ الأشياء الصغيرة على درب المرء. والعالم غرفة الصف الفعلية. والحبّ الأسمى، متى عرفكم أحياء، سيعلّمكم كلّ ما تحتاجون إلى معرفته.

لزم الجميع الصمت، مركّزين في هذه الآية، التي وإن لم يستوعبوها تماماً، فقد آمنوا بها. دندنت فتاة أغنية بلغة يجهلها باولو. وقف شاب، أكرهم على الأرجح، بسط ذراعيه، وتلا تضرّعاً:

عسى الله أن يمنّ عليك...

بقوس قزح بعد كلّ عاصفة،

ببسمه بعد كلّ دمة،

بوعده بعد كلّ أسى،

ببركة بعد كلّ تجربة،

بصديق وفّي في كلّ شدّة في الحياة،

باغنية جميلة بعد كلّ تنهيدة،

وباستجابة إلى كلّ صلاة.

في تلك اللحظة بالذات، أطلقت صافرة قارب. قارب صنّع في إنكلترا وفكّك فيها، ونقل من ثمّ إلى مدينة في تشيلي، ليحمّل في قطع منفصلة على ظهر بغل إلى علو ٢٨٠٠ متر عن سطح البحيرة.

ركبوا جميعاً القارب، ووجهتهم مدينة شعب الإينكا المفقودة.

صرفوا فيها أيامًا لا تُنسى، فقد كان من النادر بلوغ هذا المكان. وخدمهم أبناء الله وصلوه، أولئك أحرار الروح المستعدون لمواجهة المجهول بلا مهابة.

ناموا في المنازل المهجورة المجردة من سقوفها، يتأملون النجوم، يمارسون الحب، يتناولون ما لديهم من غذاء، يستحقون كل يوم عراة في النهر الجاري أسفل الجبل، يتناقشون في احتمال أن يكون الآلهة فعليًا رواد فضاء جاءوا إلى كوكب الأرض، وحطوا في هذه المنطقة. قرأوا جميعًا الكتاب نفسه لكاتب سويسري فسر غالبًا رسوم شعب الإينكا على أنها تمثيلات تصور رحالة أجرام. وقرأوا أيضًا كتابات «لوبسانغ رامبا»، هذا الراهب التيبتي الذي تحدث عن فتح العين الثالثة، إلى أن روى إنكليزي أثناء اجتماع عُقد في الساحة الرئيسة من «ماتشو بيتشو، أن اسم هذا الراهب الشهير الحقيقي هو «سيريل هنري هوسكن»، وكان في الأساس سبّاكًا في الريف الإنكليزي. كانت هويته قد اكتشفت مؤخرًا، ونفى الدالاي لاما صدقيتها.

خاب ظن كل من في المجموعة. خصوصًا وأنهم جميعًا، بمن فيهم باولو، كانوا على قناعة بوجود غدة بين العينين، اسمها الغدة الصنوبرية، لم يكن العلماء قد اكتشفوا جدواها بعد. لذا، كانت العين الثالثة موجودة، لكن خلافًا لما وصفه «لوبسانغ سيريل رامبا».

صباح اليوم الثالث، قرّرت حبيبة باولو أن تعود، وقرّرت بما لا يقبل الشك أن يرافقها. رحلا قبل طلوع الشمس من دون أن يودعا أحدًا أو ينظرا إلى الوراء، وصرفا يومين وهما يهبطان شرق السلسلة الجبلية في حافلة طاغية بالناس والحيوانات الأليفة والمنتجات الغذائية والأشغال اليدوية.

اغتنم باولو الفرصة لشراء حقيبة مزركشة أمكنه طيها ووضعها في حقيبة ظهره. وقطع على نفسه وعدًا بالآ يسافر بعد اليوم في حافلة لدة تتعدى اليوم.

من مدينة ليما، توخها إلى سانتياغو دو تشيلي مستوقفين السيارات العابرة. كان العالم آمنًا. ورغم ما ولدته ملابسهم من خوف في نفوس السائقين، فإنهم قد توقفوا ليقلّوهما. في سانتياغو، وبعد ليلة ناما فيها ملء أجفانهما، سالا أحدهم أن يرسم لهما مخططًا يفضي بهما إلى النفق الواقع تحت السلسلة الجبلية الذي يربط تشيلي بالأرجنتين. تابعا من ثم باتجاه البرازيل، مستوقفين السيارات العابرة من جديد، إذ واطبت حبيبة باولو على الترداد بأن المال الذي بقي في حوزتهما قد يُسعهما في حال حدوث طارئ طبي. كانت حذرة على الدوام، أكثر تعقلًا على الدوام، متشعبة بتربيتها الشيوعية العملية، التي حالت دون استرخائها تمامًا.

في البرازيل، عقب بلوغهما منطقة غالبيتها من حملة الجوازات الشقر الفاتحي العيون، اقترحت حبيبته التوقف عند محطة جديدة.

— فلنذهب إلى فيلا فيليا. يُقال إنها مكان مذهل.

لم يستشرفا الكابوس الآتي.

لم يستشعرا الجحيم.

لم يكن في وسعهما التهيؤ لما كان في انتظارهما.

سبق أن مرّا بأماكن عدّة مذهلة، فريدة، تنبأت فرادتها بدمارها المستقبلي على أيدي جحافل السياح الذين لا همّ لهم سوى اقتناء الحاجيات وتكديسها في منازلهم. كانت نبرة حبيبته نبرة حاسمة، لا تنطوي على سؤال، ذاك كان أسلوبها في الكلام لتُخطره بما سيفعلانه.

— بالتأكيد، فلنذهب إلى فيلا فيليا، فهي مكان مذهل. إنها موقع

جبولوجي بمنحوتات طبيعية أخاذه صقلتها الريح، وحاولت البلدية الأقرب الترويج لها بأي ثمن، مُنفقة ثروة طائلة في مسعاها هذا. عرف الجميع وجود «فيلا فيليا»، لكن بعض المتهورين حطّوا على شاطئ يحمل الاسم نفسه يقع في ولاية قرب ريو دي جانيرو، في حين وجد آخرون الموقع مشوّفاً للغاية، لكن وصوله كان عسيراً جداً.

كان باولو وحبيبته الزائرين الوحيديين للمكان. ذُهِلا لقدرة الطبيعة على تكوين كؤوس زهر وسلاحف وجمال، أو ذُهِلا تحديدًا لقدرتنا على تسمية كل شيء، حتَّى ولو بدا الجمل المعني أكثر منه رمانة من جمل في نظرها، وكبرتقالة في نظره. في أيِّ حال، وخلافًا لما كانا قد شاهدها في «تياواناكو»، فإنَّ هذه المنحوتات الجيرية تركت المجال مفتوحًا أمام كل أنواع التوضيحات.

توجَّها بعد ذلك إلى «بونتا غروسا»، وهي المدينة الأقرب، مستوقفين السيارات العابرة. ولعلم حبيبته بأنَّ رحلتها قد شارفت على الانتهاء، قرَّرت، وهي في الواقع من كان يقرَّر بشأن كل شيء، أن ينزلا ذاك المساء للمرة الأولى منذ أسابيع طويلة في فندق جيّد، وتناول اللحم على العشاء! كان اللحم أحد أفضل ما في تلك المنطقة من البرازيل، ولم يكونا قد تذوّقاها منذ مغادرتها «لا باز»، فقد بدا لهما على الدوام أنَّه مكلف جدًّا.

نزلا في فندق حقيقي، استحمَّا، ومارسا الحبَّ قبل التوجُّه إلى الردهة للسؤال عن «روديزيو، جيّد، أيُّ أحد تلك المطاعم التي تقدِّم من اللحم قدر ما شئت.

وإذَّهما في انتظار البواب، دنا منهما رجلان، استغنيا عن المجاملات، وأمر باولو وحبيبته أن يتبعاهما إلى الخارج. أبقى كلُّ من الرجلين يده في جيبه، كما لو أنَّهما يحملان سلاحًا، وأرادا أن يفهماهما ذلك.

«هنا!»، قالتها حبيبته، مقتنعة بأنَّهما يتعرَّضان للاعتداء، وتابعت: «لديَّ خاتم من الماس في غرفتنا».

لكن كان الرجلان قد شذاهما بذراعيهما، ودفعا بهما إلى الخارج، بعد أن فصلا بينهما. ثمة سيارتان من دون نمر، كانتا تنتظران في الشارع المقفر، وكذلك رجلان آخران. صوّب أحدهما سلاحه نحو الشنائي الشاب قائلاً:

– لا تتحرّكا، لا تاتيا بأيّ حركة مشبوهة. سوف نفتشكما.

أخذوا يتحسّسونهما بفضاظة. حاولت حبيبة باولو الاحتجاج أكثر. أما هو، فكان قد دخل في نوع من الانخطاف، وغاب وعيه تماماً. جُلّ ما قَدِرَ عليه اختلاس النظر بطرف العين، لعلّه يرصد شاهداً قد يُقدِّم أخيراً على الاتصال بالشرطة.

قال أحد الرجال مخاطباً المرأة: – أطبقي فمك أيتها الساقطة الخرقاء. انتزعوا محفظتيهما المشدودتين إلى خصريهما، وفيهما جوازاهما ومالهما، ودسّ كل منهما في مقعد خلفي من سيارة. لم يتسنّ الوقت لباولو كي يرى ما يجري لحبيبته، التي لم تتمكن هي أيضاً من معرفة ما يجري له.

في السيارة، جلس رجل آخر.

قال، وقد مدّ إلى باولو بقناع: «ضع هذا». وأردف: «وانطرح أرضاً». انصاع له باولو، وقد فقدَ ذهنه كلّ قدرة على ردّ الفعل. انطلقت السيارة هادرة. أراد القول إنّ أسرته تملك المال، وإنّه سيدفع أيّ فدية تكن، غير أنّ الكلمات أبت أن تخرج من فمه.

telegram @ktabpdf

أخذت سرعة القطار تتباطأ، دليلاً على الاقتراب من الحدود الهولندية.

سأله الأرجنتيني: - أكل شيء بخير صديقي؟

أوما باولو برأسه موافقاً، محاولاً البحث عن موضوع محادثة ليطرد أفكاره السلبية. مرت سنة، بل أكثر، على حادثة «فيلا فيلبا». وقد تمكن معظم الوقت من السيطرة على شياطين عقله. لكن، ما إن كان يلمح كلمة «شرطة»، ولو على بزة حارس جمركي، حتى يستولي عليه الذعر، من جديد. غير أن الذعر هذه المرة، لم يأت منفرداً، بل جلب معه كامل قصته، التي سبق أن رواها لبعض أصدقائه بحيادية، وكأنه كان من الحاضرين. بيد أنه الآن، وللمرة الأولى، كان يرويها لنفسه.

تابع الآخر، - لا يهم إن أرجعونا. يُمكننا أن نذهب إلى بلجيكا، ونعبرها إلى مكان آخر.

لم يرغب باولو في الكلام، فقد عاوده جنون الارتياب. ماذا لو كان الآخر يتاجر فعلاً بالمخدرات القوية؟ ماذا لو استنتجوا أنه متواطئ معه، وقرروا الزج به في السجن، إلى أن تثبت براءته؟

توقف القطار. لم يكن قد بلغ الحدود الجمركية بعد، بل محطة صغيرة في وسط اللامكان، صعد منها شخصان، وترجل عندها خمسة. وإذا

راى الأرجنتيني أنّ لا رغبة لباولو في التحالف، تركه لأفكاره، قلقاً عليه،
إذ تغيّرت تعابير وجهه فعلاً.

سأله مرّة أخيرة: - أمتأكد أنت أنّ كلّ شيء بخير؟

- أنا في صدد التخلّص من شيء.

فهم الآخر وضّمت.

كان باولو على علم بأن تلك الأشياء التي جرت له لا تحدث هنا في
أوروبا، أو بالأحرى حدثت، لكن ماضياً. لطالما تساءل كيف أنّ الناس، وهم
متجهون إلى غرف الغاز في معسكرات الاعتقال، أو مصطفىون أمام مقبرة
جماعية بعد أن رأوا الصف الأمامي يُردى بالرصاص دفعة واحدة، لم يأتوا
بأي ردّ فعل، لم يحاولوا الهرب، لم يهاجموا مُعديهم.

كانت الإجابة بسيطة: كان الذعر كبيراً إلى حدّ تسطيح وجودهم.
يصدّ الذهن كلّ شيء، فينتفي كلّ رعب أو خوف، ويتحوّل الأمر مجرد
خنوع لما سيحدث. تزول المشاعر ليحلّ محلّها نوع من التغافل، حيث يحدث
كلّ شيء في منطقة عجز العلماء عن تفسيرها حتّى الآن. في العموم، يُطلق
الأطباء على هذه الظاهرة وصف «انفصام في الشخصية مؤقت ناتج من
التوتر»، ولم يتكبّدوا يوماً عناء التدقيق في أثر الغياب الكلّي للمشاعر هذا،
أو التأثير المسطح، كما يسمّونه.

وباولو، كي يطرد أطياف الماضي نهائياً، ربّما عاش من جديد البلاء
الذي حلّ به من ألفه إلى يائه.

بدأ الرجل على المقعد الخلفي أكثر إنسانية من أولئك الذين قاربوهما في الفندق.

— لا تقلق، لن نقتلك. انطرح في أرض السيارة.

لكنه لم يكن قلقاً البتة، فقد تعطل رأسه. حسب أنه دخل واقعاً موازياً، أن ذهنه لم يقبل ما كان يحدث. تمكن من طرح سؤال أساسي فحسب.

— أيمكنني التشبث برجلك؟

— بالطبع.

تشبث باولو برجل ذلك الرجل بقوة، لم يكن الآخر يتوقعها. ربما أوجعه، لكن الرجل لم يبذ أي رد فعل، وتركه يفعل ذلك. لا بد من أنه تخيل إحساس أسيره، لا بد من أنه لم يسر بروية شاب نابض بالحياة يمز بتلك التجربة. لكن، هو أيضاً، كان يُنفذ ما تلقاه من أوامر.

لم يستطع باولو احتساب الوقت الذي استغرقتة الرحلة بالسيارة. وكلما تقدّمت، ازداد قناعةً بأنه يُقتاد إلى الإعدام. ظن أنه يفهم إلى حد ما ماذا يجري؛ انتشلت جماعة مسلحة، وبات مُذاك رسمياً من عداد المفقودين. لكن ما مال هذا التفكير الآن؟

توقفت السيارة. أخرج منها بوحشية، ودفع به في ما بدا أنه رواق.
فجأة، ارتطمت رجله بجاجز، قضيب ما.
استنجد بهم قائلاً: - برفق من فضلكم.
وإذا باللكمة الأولى تنهال على رأسه.
- أطبق فمك أيها الإرهابي!

خر أرضاً. أمر بالنهوض وخلع كل ملابسه، وخذر من نزع القناع.
اطاع. وعلى الفور، انهالت عليه الضربات من كل صوب. وإذا جهل وجهتها،
عجز جسمه عن التحضر لها، وعجزت عضلاته عن الانكماش. فكان الوجد
أشد من كل الأوجاع التي أحس بها في أي شجار حدث في طفولته. هوى
أرضاً من جديد، وتحولت اللكمات إلى ركلات. لا بد من أن موجة الضرب
دامت بين عشر دقائق وربع ساعة، إلى أن علا صوت أمر الرجال بالتوقف.
كان لا يزال واعياً، لكنه لم يتمكن من معرفة إن كان قد انكسر
جزء منه. كان الألم شديداً إلى حد أفقده القدرة على الحراك. غير أن
الصوت الذي قضى بإنهاء جلسة التعذيب الأولى، طلب إليه النهوض قبل
أن ينهمر عليه بأسئلة حول العصا، والمتواطئين معه، وما جاء لفعله في
بوليفيا؛ أكنت على اتصال بتشي غيفارا وعصابته؟ أين مخبأ الأسلحة؟..
هدد الصوت باولو بأنه سيقتل عينه ما إن يتأكدوا من تورطه في
الحركة. علا صوت آخر معاكس، صوت الشرطي الصالح. كان من
الأفضل له أن يعترف بالسطو الذي نفذوه على مصرف في الضواحي، وهكذا
يتضح كل شيء، وسيُزج به في السجن لجرائمه، وعلى الأقل لن يمسوه
ثانية.

في تلك اللحظة تحديداً، وفيما شق عليه النهوض، أخذ يخرج من

الخمول الذي حلّ به، ويستعيد ما شكّل في نظره أعظم الصفات الإنسانية، غريزة البقاء. كان عليه الخروج من هذا الوضع. كان عليه أن يُنادي ببراءته.

أمروه أن يُخبرهم عما فعله في الأسبوع الماضي. روى لهم كلّ شيء بدقائق تفاصيله، رغم شكوكه بأنهم لم يسمعوا من قبل به، ماتشو بيتشو.. ردّ الشرطي الفاسد: - وفر وقتك بتزلفنا. لقد وجدنا الخارطة في غرفتك في الفندق. أنت والشقراء، شوهدتما في مكان الجريمة.

— خارطة؟

عبر شقّ في القناع، أراه الرجل الرسم الذي زودهما به أحدهم في تشيلي، وأتاح لهما بلوغ النفق تحت سلسلة جبال الأنديز.

— يخال الشيوعيون أنهم سيفوزون في الانتخابات المقبلة، أنّ أليندي سوف يستخدم ذهب موسكو لإفساد أميركا اللاتينية قاطبة. لكنكم على خطأ. ما موقعك من الحلف الذي يهّمون في تشيله؟ ومن هي جهات الاتصال التي تعرفها في البرازيل؟

استجدهم باولوا، أقسم لهم أنّ كلّ هذا غير صحيح، أنّه مجرد شاب أراد السفر وتعرّف العالم. واستغلّ الفرصة ليسال عن حبيبته.

أجاب الشرطي الفاسد: - تلك التي أرسلت من يوغوسلافيا، من بلد شيوعي، لتقوّض ديمقراطية البرازيل؟ إنها تنال المعاملة التي تستحقّها.

توغده رعب قاتل بالاستحواذ على كيانه من جديد، لكن عليه بضبط النفس. عليه أن يجد سبيلاً للخروج من هذا الكابوس. عليه أن يستيقظ.

وضع أحدهم بين قدميه صندوقاً مجهّزاً بأسلاك كهربائية وبمقبض دوار. قال آخر إنهم يطلقون على هذه الآلة اسم «هاتف»، ويكفي أن يُعلّقوا المشابك المعدنية بجسمه، وأن يُديرُوا المقبض لإرسال صدمة، لا يسع أيّ ذكّر مقاومتها.

فجأة، وعلى أثر وجود الآلة أمامه، وجد باولو المخرج الوحيد المحتمل. نسي خنوعه ورفع صوته:

— اعتقدون أنني أخشى صدمة بسيطة؟ أنني أخشى ألّا بسيطاً! اطمئنوا، سوف أعذب نفسي بنفسي! فقد سبق أن أدخلت مستشفى المجانين. لم أدخلها مرّة، أو اثنتين، بل ثلاث مرات. سبق أن تلقيت كلّ أنواع الصدمات الكهربائية. يُمكنني إنجاز العمل عنكم. لا بدّ أنكم تعرفون ذلك، أعتقد أنكم تعرفون كلّ شيء عن حياتي.

ما إن فرغ من قوله، حتى أخذ يغرّز أظافره في جسمه أينما كان، مُدْمِياً نفسه، وهو يصيح كلّ الوقت أنّهم يعرفون كلّ شيء، أن بإمكانهم حتّى قتله، أنّه لا يأبه لذلك قطعاً، فهو من المؤمنين بالتقمص، وسيرجع لإيجادهم، هم وأسرهم، حالما يبلغ العالم الآخر.

اقترّب واحد منهم، وأوثق يديه. لم ينطق أحدهم بشيء، لكن أحسّ باولو بأنهم ارتاعوا.

قال «الشرطي الصالح»: — توقّف باولو. أيّمكنك أن تُفسّر لي ما هذه الخارطة؟

راح يصرخ كمجنون، مفسّراً كيف احتاجا في عبورهما سانتياغو إلى المساعدة لإيجاد نفق بين تشيلي والأرجنتين.

— وحبّيتي، أين حبّيتي؟

زعق أكثر فأكثر، على أمل أن تتمكّن من سماعه. جهد الشرطي الصالح، في تهدئته. يبدو أن المضطهدين، في بداية «سنوات الرصاص» لم يكونوا قد بلغوا أقصى وحشيتهم.

طلب إليه أن يكفّ عن الرجفان. وأكّد له قائلاً: «إن كنت بريئاً، فعليك الأمان. ينبغي لنا أن نتنبّث أولاً، من صحّة أقوالك. بانتظار ذلك، عليك البقاء هناك قليلاً». لم يُحدّد الشرطي الوقت، لكن عرض عليه سيجارة. لاحظ باولو أنّ الآخرين شرعوا في مغادرة الحجرة، إذ لم تعد لهم مصلحة في ذلك.

– انتظر حتّى أخرج. وعندما تسمع الباب يُوصد، تستطيع نزع قناعك. ومتى رجع أحدهم، وطرق بابك، أعدّ وضع القناع. ومتى حصلنا على كلّ المعلومات، سنُخلي سبيلك.

صرخ باولو من جديد:

– وحبّيتي؟

لا يستحقّ ما كان يجري. وإن كان ابناً رديئاً، وكثيراً ما عكّر صفو والديه، فهو لا يستحقّ ما كان يجري. كان بريئاً، ولو كان يحمل سلاحاً في تلك اللحظة، لأطلق النار عليهم جميعاً. ما من إحساس بالظلم أشدّ من إحساس امرئٍ بعقاب على فعلة لم يرتكبها.

– لا تقلق. لسنا غاصبين متوحشين. نريد فقط أن ننتهي من أمر أولئك الذين يحاولون إنهاء بلدنا.

خرج الرجل، أوصد الباب، ونزع باولو القناع. كان في حجرة عازلة للصوت، ذات عتبة حديدية، هي ما تعرّبه لدى دخوله. إلى اليمين، قام زجاج معتم ضخّم أحادي الانعكاس لا شك في أن وظيفته التمكين من

مراقبة مَنْ يُعْتَقَلْ هنا. وكان ثَمَّة ثقباً رصاص أو ثلاثة في السقف، تدلّت شعرة من أحدها. لكن كان عليه الادّعاء بأنّه لا يُبالِي بأيّ من كلّ هذا. عاين جسمه، أثار الخدوش والدم الذي كان عليه أن يستنزفه بنفسه. تلمّس كلّ جزء من جسمه، واستخلص عدم وجود أيّ كسور، فقد أجادوا فنّ إخفاء أيّ أثر دائم، ولهذا السبب بالضبط خشوا ردّ فعله.

افترض أنّ المرحلة الثانية التي سيقدمون عليها الاتصال بريو دي جانيرو للتحقّق من قصة إيداعه المصحّة والصدمات الكهربائية، وكذلك كلّ خطوة اتّخذها هو وحبيبته التي أمكن لجواز سفرها الخارجي أن يحميها ويجرّمها في آن، بالنظر إلى أنّها من بلد شيوعي.

إذا تبين أنّه كذب، فسوف يُعَذَّب عذاباً متواصلًا على مدى أيام. وإنّ تبين أنّه صدق، فيُحتمل أن يتوصّلوا إلى أنّه ليس سوى هيبّي مخدّر من أسرة ميسورة، وسوف يُطلقون سراحه.

هو لم يكن يكذب، وصلى أن يكتشف الآخرون ذلك سريعًا.

لم يعرف كم من الوقت مضى على وجوده في هذا المكان المجرد من النوافذ، تحت الضوء المنار كل الوقت. ولم يلمح وجهًا سوى وجه المصور التابع لمركز التعذيب هذا. أكان في ثكنة، أم في مفوضية؟ طلب إليه المصور أن ينزع القناع، نَصَبَ آلة التصوير على مستوى وجهه لنلا يظهر عريّه، أمره أن يقف جانبياً. التقط له صورة أخرى، ثم خرج من دون أن ينطق بكلمة.

حتى الطرق على الباب لم يتبع أي قاعدة، ما سمح له باستنتاج هذا الانتظام: الفطور، الذي كان يُستتبع أحياناً بالغداء بعد فارق وقت وجيز، فالعشاء بعد ساعات. ومتى شعر بضرورة قضاء حاجته، وضع القناع، وطرق على الباب، إلى أن يستنتجوا مراده من خلال الزجاج الأحادي الانعكاس. حاول تبادل بضع كلمات مع الرجل الذي كان يسوقه إلى الحمام، لكن بلا جدوى. كل شيء عنى سكوتاً.

كان ينام معظم الوقت. ذات يوم (أو بالأحرى ذات ليل؟)، فُكِّرَ في تسخير هذه التجربة للتأمل أو التركيز في كيانٍ أسمى: تذكر كيان القديس يوحنا الصليب الذي حكى عن ليل الروح الحالك، عن رهبان صرفوا سنوات حبسي كهوف وسط الصحراء، أو في جبال هيمالايا. له أن يحذو حذوهم، أن يسخر ما جرى له لمحاولة تحسين الذات. وإذا أخذ يفكر، استخلص أن البواب في الفندق، إذ كان هو وحبيبته النزليين الوحيدين

فيه، قد وشى بهما. تارة، اعترته رغبة في قتله فور خروجه من هنا، وتارة كان يفكر في أن الطريقة الفضلى لخدمة الله هي مسامحته من أعماق قلبه، لأن هذا الرجل، لم يكن يدري ماذا يفعل.

غير أن الغفرة فن مرهف. سعى إلى التوحد مع الكون في كل أسفاره. لكنه الآن، في هذه المرحلة من حياته، على الأقل، لم يكن مُجبراً على تحمل الناس الذين كانوا يَسْخَرُونَ كل الوقت من شعره الطويل، والذين كانوا يستوقفونه في الطريق ليسألوه كم من الوقت مضى على اغتساله آخر مرة، الذين علّقوا أن ملابسه المزركشة دليل على توجّهه الجنسي غير المحدّد، وكانوا يسألونه كم من الرجال ضائع، والذين قالوا له أن يكفّ عن الترحال والتعاطي، أن يبحث عن عمل شريف، أن يقوم بواجبه في إنقاذ بلاده من الأزمة.

حال مقتله للظلم، ورغبته في الانتقام، وغياب الغفرة، دون تركيزه بما يكفي، وقاطعت أفكاره وضیعة تأمله، وضیعة لكن مبررة تماماً في نظره.

هل أخطروا أسرته؟

جهل والداه تاريخاً محدّداً لعودته، لكن لا بدّ من أنهما لم يستغربا غيابيه الطوّل. كانا على الدوام ينحيان باللائمة على حبيبته التي كانت تكبره بأحد عشر عاماً، والتي حاولت في رأيهما أن تستغلّه لتُشبع رغباتها الأرذل من أن توصف، لكسر رتابة وجاهتها المحبّطة، هي الغريبة في البلد الخطأ، اللعوب المتلاعبة بالشبان الذين كانوا يبحثون عن أم بديلة عوضاً عن رفيقة. لم يكن باولو ككلّ أصدقائه، ككلّ أعدائه، كباقي الناس الذين مضوا في حياتهم من دون التسبّب بمشكلة لأحد، من دون أن

يُجبروا أسرهم على تقديم التبرير والتعليل بشأن حياة ولدهم، من دون أن يُظهروا ذوبهم بهيئة أولئك الأشخاص الذين أخفقوا في تربية أولادهم تربية صالحة. كانت شقيقة باولو تدرس الهندسة الكيميائية في الجامعة، وكانت من الطلبة الأذلق في صفها، لكن لم يفتخر والداها بها كما يجب، فقد كانا أكثر انهماكًا في ردّ ابنهم إلى العالم الذي عرفوه.

في أيّ حال، وبعد انقضاء وقت استحالة تحليده، أخذ باولو يفكر أنه استحقّ تمامًا ما كان يجري له. بعض أصدقائه انخرطوا في المقاومة المسلحة، مُدركين ما كان ينتظرهم، لكن وحده هو من كان يسند ثمن العواقب: لا بدّ من أنّه كان عقابًا سماويًا لا بشريًا. استحقّ، مقابل كلّ الأحزان التي سبّتها، أن يقف عريانًا على أرض زناينة خَرَمَت أحد جدرانها ثلاث رصاصات (فقد عدّها)، استحقّ أن يسرّ أغوار ذاته فيراها بلا قوّة، ولا عزاء روحي، ولا صوت يحادثه كذاك الصوت الذي حدّته عند «بؤابة الشمس».

صرف وقته في النوم. ظلّ يفكر أنّه سيستيقظ من الكابوس. وكان يستيقظ دائمًا في المكان نفسه، على الأرض نفسها. ظلّ يردّد لنفسه أنّ الأسوأ قد مضى، وكان يستيقظ دائمًا وهو يتصبّب عرقًا، مرعوبًا كلّما سمع طرقًا على الباب. ربما لم يثبتوا شيئًا ممّا رواه لهم، وسوف يُستأنف التعذيب، أشدّ عنفًا.

طَرَقَ أحدهم على الباب. كان باولو قد فرغ لتؤه من تناول العشاء، لكنه عرف أنهم قد يقدّمون إليه وجبة الفطور لكي يشوشوه أكثر. وضع القناع، سمع الباب يُفتح، وقذف أحدهم برزمة على الأرض، وقال:
- ارتدّ ملابسك. وانتبه ألا تخلع القناع.

كان ذاك صوت الشرطي الصالح، أو بالأحرى، الجلّاد الصالح، كما أثار تسميته في سرّه. انتظر الرجل أن يرتدي باولو ملابسه وحذاءه. عندما انتهى، أمسكه بذراعه ونصحه بالانتباه للقضيب المائل عند عتبة الباب (التي سبق أن اجتازها عشرات المرات للذهاب إلى الحمام، لكن لا بُدَّ أن الرجل قد شعر بالحاجة إلى قول عبارة لطيفة) وذكره بأنّه وحده المسؤول عن النُدب التي نحتت جسمه.

مشيا قرابة ثلاث دقائق، ثمّ علا صوت آخر: - الفاريانت تنتظرك في الخارج.

الفاريانت؟ أدرك باولو لاحقاً أنّه طراز سيّارة، ولكنه، آنذاك، حسبته شيفرة سرّية تعني، فصيلة الإعدام جاهزة..

اقتيد حتّى السيّارة، ومُدَّ إليه بقلم وورقة مميّزهما من تحت القناع. لم يفكر حتّى في قراءة المضمون، كان مستعدّاً للتوقيع على كلّ ما ارادوه، على أيّ اعتراف يضع حدّاً لهذا العزل المُخبل. شرح، الجلّاد الصالح، أنّها لائحة بأغراضه التي وجدوها في الفندق. كانت الحقائب في الصندوق.

الحقائب! قالها بصيغة الجمع. غير أن باولو كان فاقد الإحساس إلى درجة أنه لم يلاحظ ذلك على الفور.

أطاع ما أمر به. فُتح الباب المقابل في السيارة. استرق باولو النظر من الشق في القناع وتعرّف إلى ثياب ألفها. كانت هي! طلبوا إليها أن تفعل الأمر نفسه، أن توقع ذيل مستند، لكنها رفضت، أرادت أولاً أن تقرأ مضمونه. دلت نبرة صوتها على أن الذعر لم يتملكها طول المحنة التي ألّت بهما، أنها تحكمت تماماً بمشاعرها. نزل الرجل عند طلبها خانقاً. بعد أن أتمت القراءة، وقعت الورقة أخيراً، ثم وضعت يدها على يد باولو.

قال «الجلاد الصالح»:- لا يُسمح بأي اتصال جسدي.

تجاهلته. ولهنهية، فكّر باولو أنهما سيعادان إلى الداخل، وضربهما لعدم انصياعهما للأوامر. حاول سحب يده، لكنها أوثقت الشدّ عليها.

اكتفى «الجلاد الصالح» بإغلاق الباب، والإيماء بإشارة المغادرة. عندما سألها باولو عن حالها، راحت تريق وترعد منددة بكل ما حدث. ضحك أحد الجالسين في المقعد الأمامي، توسلها باولو أن تسكت حباً بالله، إذ يمكنهما أن يتحدّثا في الأمر وحدهما لاحقاً، أو في يوم آخر، أو في المكان الذي كانا يُقتادان إليه، والذي ربما كان سجنًا حقيقيًا.

قالت: «لا يطلب إليك أحد أن توقع على مستند يُوثق أن اغراضنا أُعيدت إلينا لو لم يكن ذلك بداعي إطلاق سراحنا.. علت ضحكة أخرى من الأمام، ضحكتان في الواقع. ذلك أن السائق لم يكن وحده.

علّق أحد الرجلين قائلاً: - لطالما سمعتُ أن النساء أكثر شجاعة وأذكى من الرجال، وقد لاحظنا ذلك بين المعتقلين.

هذه المرة، كان الرجل الجالس في الأمام هو من طلب إلى رفيقه

السكوت. مضت السيارة لبعض الوقت، ثم توقفت، وطلب إليهما الرجل الجالس في مقعد الراكب أن ينزعا قناعيهما.

كان أحد الرجال الذين أمسكوا بالثنائي في الفندق، آسيوي العرق. وبدا الآن يبتسم وسع فمه. ترخّل معهما من السيارة، توجه إلى الصندوق لفتحه، أخرج منه الحقائق، ومدّ بها إليهما بدل أن يلقيها أرضاً.

— يُمكنكما الذهاب الآن. اتّجها يساراً عند الإشارة التالية، سيراً نحو ثلث ساعة، وستقعان على محطة الحافلات.

عاد إلى السيارة، التي انطلقت على مهل، كما لو أنّ ما حدث كان بلا أهمية. كان ذلك واقع البرازيل الجديد: كانت السلطة بأيديهم، ولم يستطع أحد رفع صوته ليشتكي.

تبادل باولو وحبيبته النظرات، والارتواء في الاحضان من ثمّ، والقَبْل المطوّلة. توجهّا بعد ذلك نحو المحطة. فكّر في خطورة الكوث هنا. وبدا أنّها لم تتغير مطلقاً، كما لو أنّ كلّ تلك الأيام، أو ربما تلك الأسابيع أو الشهور أو السنوات، لم تكن سوى وقفة وجيزة في سفرة الأحلام التي طغت عليها الذكريات الحلوة، ولم تستطع هذه الحادثة أن تكدرها. حتّ خطاه لئلا يضطرّ إلى القول إنّ الذنب ذنبها، وإن من غير المفترض أبداً أن يتوقّفاً في «فيلا فيليبا» لرؤية منحوتات شكّلتها الريح، وإنّهما لو تابعا سيرهما، لما حدث أيّ ممّا حدث. غير أنّ الذنب لم يكن ذنب أحد، لا هي، ولا هو، ولا أحد ممن يعرفانه.

هذه سخافة وضعف منه. فجأة، أصابه ألم عنيف في الرأس، كان شديداً إلى درجة أنه أوشك أن يُقعده عن السير، أو العودة إلى حيث نشأ، أو إلى «بوابة الشمس» لكي يلتمس عون السكان القدامى، المنسيين، لكي يفهم ما جرى. استند إلى الحائط، وترك حقيبته تنزلق عنه أرضاً.

سألته، لتُجيب من ثم بنفسها عن السؤال: - أتعرف ماذا يجري لك؟
أنا أعرف، فقد اخترته بنفسى عندما كانت بلادى تُقصِف. خلال كل
ذلك الوقت، كان الأمر كما لو أن ذهني تناقل، أن الدم لم يجر في عروقي
كعادته. سيستمر ذلك ساعتين أو ثلاثاً، لكننا مع ذلك سنشتري الأسبرين
في المحطة.

حملت حقيبةته، رفعتة بكتفها، وشدته ليمشي، رويداً أولاً، ثم أسرع.
يا لها من امرأة، يا لها من امرأة! ويا للأسف الذي اعتراه يوم اقترح عليها
أن يذهب إلى مركزي العالم، ميدان البيكاديللي، وساحة «دام»، وأجابت أن
السفر قد أنهكها، وأنها، صراحةً، لم تعد تحبه، وأن على كل منهما الذهاب
في سبيله.

توقف القطار، وأطلت اللوحة المخيفة التي كُتب عليها بلغات عدة:
الجمارك.

صعد بضعة أفراد جمركيين، وأخذوا يفتشون العربات. كان باولو
قد هدأ بعد أن فرغ من جلسة الطرد. غير أن جملة من آية في الكتاب المقدس،
وتحديدًا من سفر أيوب، أثبت أن تفارق ذهنه: «وَالَّذِي قَزَعْتُ مِنْهُ جَاءَ عَلَيَّ».
كان عليه أن يتمالك نفسه، إذ باستطاعة أي يكن أن يشتّم رائحة
الخوف.

حسنًا. إذا صحّ كلام الأرجنتيني، فأسوأ الحال هو إرجاعهما عن
الحدود، ولا مشكلة في ذلك. فثمة حدود أخرى يُمكن عبورها. وإن أوصدت
كل الأبواب في وجهيهما، فإن مركز العالم الآخر لا يزال قائمًا؛ ميدان
«البيكاديللي».

انتابته سكينه عارمة تلت الرعب الذي حلّ به قبل عام ونصف العام.
لكأنه كان عليه مواجهة كل شيء بلا مهابة، والنظر إلى الأمور كواقعة
حياتية بسيطة؛ نحن لا نختر ما يُصيبنا، لكن بوسعنا أن نختر طريقة
استجابتنا له.

وادرّك أن سرطان الظلم واليأس والعجز كان، حتى تلك اللحظة، في
أنحاء جسمه الطيفي كله. غير أنه خُر الآن.

وهو يبدأ من جديد.

دخل العملاء الجمركيون المقصورة التي شغلها برفقة الأرجنتيني وأربعة آخرين لا يعرفانهم. وكما كان متوقعًا، طلبوا إليه وإلى رفيقه الترحّل من القطار. كان الجو باردًا قليلًا في الخارج، مع أنّ المساء لم يكن قد أوغل في الظلمة بعد.

غير أنّ الطبيعة تتبع دورة تنعكس في روح الإنسان: تلك النبتة الزهرة لتجذب النحلة التي قد تولّد ثمرة. وتنتج الثمرة بذورًا تتحوّل بدورها إلى نبات يتفتّح زهرًا من جديد، فمجذب النحلة، التي تُخصب النبتة، التي تُنتج من ثمّ ثمارًا... وهكذا حتّى أبد الدهر. أهلاً بك أيها الخريف: حانت لحظة التخلّي عن القديم وأهوال الماضي للسماح للجديد بأن يتجلّى.

اقتيد عشرة شباب، بين ذكور وإناث، إلى داخل مركز الجمارك. لم ينطق أحد بكلمة. وحرص باولو على الوقوف أبعد ما يكون عن رفيقه الأرجنتيني، الذي لاحظ ذلك ولم يحاول فرض حضوره ولا حديثه عليه. لا بُدّ من أنّه أدرك لحظتها أنّ البرازيلي يُدينه، أنّه حذر منه. لكنّه رآه أيضًا خلاف ذلك، رأى وجهه يمتقع ظلماً ليشرق من جديد الآن. لعلّ من المبالغة القول إنّهُ، أشرق، لكن على الأقلّ كانت التعاسة الشديدة التي علته منذ قليل قد تبدّدت.

جرى استدعاؤهم واحدًا واحدًا إلى قاعة، ولم يدر أيّ منهم ما كان يُتداول فيها، لأنّ الخروج كان من باب ثانٍ. كان باولو ثالث المستدعين. خلف طاولة، جلس جمركي يرتدي زيّه الرسمي. طلب جواز سفر باولو، وأخذ يتصفّح حافظة أوراق ممثلة بالأسماء.

شرع باولو في القول: «أحد أحلامي أن أذهب...»، غير أن الجمركي أشر عليه ألا يقاطعه.

تسارع نبض قلبه، وتنازع مع نفسه للتصديق بأن الخريف قد حلّ، وأن الأوراق الصفراء بدأت تتساقط، أن رجلاً جديداً قد انبثق من ذاك الذي كان حتى حينه خائزاً منهازاً.

الذبذبات السلبية تجنب المزيد من الذبذبات السلبية. هكذا حاول تهدئة نفسه، خصوصاً وأنه قد لاحظ أن الجمركي يضع قرطاً في إحدى أذنيه، وهو أمر غير مألوف في أي من البلدان التي زارها. في القاعة الممتلئة بالأوراق، حاول إلهاء نفسه بالتركيز في صورة الملكة وفي ملصق يُصور طاحونة. وضع الرجل لائحته جانباً، ولم يكلف نفسه حتى سؤال باولو عما جاء يفعله في هولندا. أراد أن يعرف فقط إن كان يحوز ما يكفي من المال للعودة إلى بلاده.

ردّ باولو مؤكداً. عرف مسبقاً أن تذكرة العودة كانت الشرط الأساسي للسفر إلى أرض أجنبية، فاشترى تذكرة ذهاب وإياب باهظة جداً، أوصلته أولاً إلى روما، وكان تاريخ العودة المدوّن فيها يمتدّ لسنة. مدّ يده إلى المحفظة التي أبقى عليها مخبأة في حزامه، ليثبت أقواله. غير أن الجمركي قال إن ما من داعٍ لذلك، وإنه أراد أن يعرف فقط كم يملك من المال.

– في حوزتي ١٦٠٠ دولار تقريباً. ربما كان المبلغ أكثر قليلاً، لست أدري كم أنفقت في القطار.

وصل إلى أوروبا في الطائرة، وفي حوزته ١٧٠٠ دولار، جناها من تدريس اختبارات الانتساب إلى مدرسة الفنون المسرحية التي ارتادها. كانت

التذكرة إلى روما الأرخص بين التذاكر الأخرى. لدى وصوله، بلغه من البريد الخفي، أن الهيبين غالباً ما كانوا يتجمعون في ساحة إسبانيا، أسفل الدرجات الإسبانية. وجد مكاناً في متنزه لياوي إليه، واقتصر طعامه على السندويشات والبوظة. واستطاع أن يبقى في العاصمة الإيطالية، حيث التقى امرأة إسبانية من جيليقية، فأصبحتا صديقين على الفور، وأصبحت حبيبته في ما بعد. وانتهى به الأمر إلى شراء أوروبا بخمسة دولارات في اليوم، الكتاب الأكثر مبيعاً ورواجاً آنذاك، والذي علّم يقيناً أنه كان سيغير حياته. لاحظ في الأيام التي قضاها في ساحة إسبانيا، أن المسافرين العاديين أيضاً، المستقيمين، كما شاعت تسميتهم، وليس الهيبين فقط، قد اقتنوا هذا المؤلف الذي عدّ إلى جانب المواقع السياحية المهمة، الفنادق والمطاعم الأقل تكلفة في كل مدينة.

بفضل هذا الكتاب، لن يضيع في أمستردام متى بلغها. وعندما أعلمته الإسبانية أنها ذاهبة إلى أثينا في اليونان، قرّر أن يمضي في سبيله إلى وجهته الأولى (كانت الثانية ميدان البيكاديللي، التي لم يكلّ من ترديد اسمه على نفسه).

مدّ يده من جديد إلى محفظته ليُشهر ماله، لكن سرعان ما أعيد إليه جواز سفره وقد خُتم. سأله الجمركي إن كان يحمل فواكه أو خضراً. كانت بحوزته تفاحتان طلب إليه الجمركي أن يرمي بهما فور مغادرته في سلة المهملات الموضوعة خارج المحطة.

— والآن كيف أتوجه إلى أمستردام من هنا؟

قيل له إن عليه أن يركب قطاراً محلياً يمر كل نصف ساعة.

كانت تذكرة السفر التي اشتراها في روما صالحة للذهاب إلى وجهته الأخيرة.

أشار الجمركي إلى باب الخروج، ووجد باولو نفسه من جديد يستنشق الهواء الطلق، ينتظر القطار التالي، وقد أخذته الدهشة والسرور في آن، لأنهم صدّقوا أقواله عن التذكرة والمال. لقد دخل، بحق، عالمًا آخر.

لم تهدر كارلا كلَّ العصر بالتسكّع في ساحة «دام»، فالمطر بدأ يتساقط. وكانت العزّافة قد ضمنت لها أن المنتظر طويلاً سوف يصل في الغد. فقرّرت الذهاب إلى السينما لمشاهدة فلم ٢٠٠١: أوديسة الفضاء، الذي أخبرها الجميع أنه تحفة حقّة، رغم عدم انجذابها إلى أفلام الخيال العلمي. وكان تحفة فعلاً. ساعدها الفلم على قتل الوقت خلال انتظارها. وظهرت لها نهايته ما ظنّت أنها كانت تعرفه. في الواقع لم تكن المسألة متمحورة حول ما تظنّه أو لا تظنّه، فقد كانت حقيقة مُثبتة لا تقبل الجدل، الوقت دائري، ويرجع دوماً إلى النقطة ذاتها. نُولد من بذرة، ننمو، فنهرم، ثم نموت، ونعود إلى الأرض ونُصبح بذرة من جديد، عاجلاً أم آجلاً، متفحصين شخصاً آخر. ورغم أنها تتحدّر من أسرة لوثرية، فقد التفتت إلى الكاثوليكيّة لبعض الوقت، وكانت تتلو دستور الإيمان في القداس الذي أخذت تحضره بانتظام. كانت هذه جملتها المفضّلة:

«أؤمن [.....] وأترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي. آمين».

قيامة الموتى، حاولت ذات مرّة أن تناقش كاهناً في هذا المقطع، بسؤاله عن القيامة. قال إن المسألة ليست كذلك. سألته ما هي عليه إذن؟ بدا لها الردّ قمةً في البلاهة، هي لم تكن على قدر النضوج الذي يمكنها من فهم الأمر. وإذا خلصت إلى أن الكاهن نفسه لا يعرف معنى هذه الجملة، راحت مذاك تبتعد عن الكاثوليكيّة.

«آمين»، ردّتها وهي عائدة إلى الفندق ذاك اليوم. أبقت على أذنيها

صاغيتين لعل الله فُرّر أن يتكلّم معها. منذ أن أقصت نفسها عن الكنيسة، سعت إلى الهندوسية والطاوية والبوذية والعبادات الإفريقية ومختلف أنواع اليوغا، بحثاً عن إجابة لأسئلتها عن معنى الحياة. قال أحد الشعراء قبل قرون: «نورك يفيض على الكون كله، وقنديل الحب يشتعل على طبق المعرفة».

ولمّا كان الحب في حياتها معقداً جداً، إلى درجة أنها كانت على الدوام تتفادى التفكير فيه، خلصت إلى أن «المعرفة، كامنّة فيها، وهذا بالأساس ما كان يبشّر به مؤسّسو تلك الديانات. وإذا أصبح كلّ ما تبصره يذكرها بالربّ، سعت إلى أن تكون أفعالها عربون امتنان لحياتها. كان حسبها ذلك، فأسوأ القتل ذاك الذي يقتل فرحنا في الحياة».

دخلت إلى مقهى *Coffe shop* حيث تباع أنواع مختلفة من الماريوانا والحشيشة. لكنّها أرادت تناول فنجان قهوة فقط، والتحدث مع شابة أخرى، هولندية كذلك، بدت كطائر يغرّد خارج السرب، وكانت هناك لتناول القهوة أيضاً.

تدعى ويلما. قررتا الذهاب إلى «باراديسيو»، ثمّ بدلتا رأيهما. ربّما غُزي ذلك إلى أن المكان قدّ بريقه، كالخدرات التي تباع في هذا المقهى. ربّما استقطبت السياح، لكن قلّما اكترث لها من كانت في متناولهم.

ذات يوم من أيام مستقبل بعيد، سوف تستنتج الحكومات في مختلف أنحاء العالم أنّ الحلّ الأفضل لما يسمّونه «مشكلة» سيكون بتشريعها. فجزء كبير من الغموض الذي يلفّ الحشيشة يكمن في حظرها، وبالتالي في ابتغائها.

رَدَّتْ ويلما على رأي كارلا - لكن لن يهتم أحد بذلك. هم يحصدون مليارات الدولارات جزاء الحظر. يخالون أنهم فوق الجميع. يعتقدون أنهم خشبة خلاص المجتمع والأسرة. ووضع حدًا للمخدرات يُشكّل مُنبراً سياسياً ممتازاً. أي فكرة تريدان أن يحلّوها محلّها؟ وضع حدًا للفقر؟ لكن لم يعد أحد يصدّق ذلك.

صمتتا، وحدّقت كل منهما إلى كوبها. فكّرت كارلا في الفلم، وفي «سند الخواتم»، وفي حياتها. لم تختبر فعلياً تجارب مشوّقة. ولّبت في أسرة تقية، درست في ثانوية لوثرية، حفظت الكتاب المقدس عن ظهر قلب، فقدت عذريتها مراهقةً مع هولندي عفيف مثلاً، سافرت لبعض الوقت عبر أوروبا. وجلت عملاً في العشرين من العمر (عمرها الآن ثلاث وعشرون سنة)، مرّت أيامها طويلة ومتواترة، تحوّلت إلى الكاثوليكية لجُرد الوقوف في وجه أسرتها، قرّرت ترك منزل والديها لتسكن وحدها. صاحبت لفيفا من الشبان الذين دخلوا حياتها، وخرجوا منها ومن جسدها بوتيرة راوحت بين يومين وشهرين. وخمّنت أنّ الذنب ذنب روتردام ورافعاتها وطرقاتها الرمادية ومرفأها الذي رست عنده دوماً قصص أكثر تشويقاً من القصص التي سمعتها من أصدقائها.

اتفقت أكثر مع الأجانب. ولم تقاطع رتابة حرّيتها المطلقة سوى مرّة، عندما قرّرت أن تغرم برجل فرنسي يكبرها بعشر سنوات. أقنعت نفسها، وحدها، أنّها ستحوّل هذا الحبّ المدمر إلى شعور متبادل، رغم كامل معرفتها أنّ مضاجعتها كان جُلّ مراد هذا الرجل، وهي ممارسة تفوّقت فيها، وعملت دوماً على تحسينها. ولم يمض أسبوع، حتى تخلّت عن الفرنسي في باريس، بعد أن استنتجت أنّها لم تكتشف بعد فعلياً الغاية من

الحب في حياتها. وكان شرطاً وضعته على نفسها بنفسها. ذلك أن معارفها قد تحدثوا في لحظة من اللحظات عن أهمية الزواج والأولاد والطله، وعن وجود من نأاهد معه التلفاز، ونذهب معه إلى المسرح، ونجوب معه العالم، ونقدم إليه المفاجآت الصغيرة متى عاد إلى المنزل، ونحب، ونربي الأولاد، وندعي غض النظر عن معرفتنا الخيانات الصغيرة التي أقدم عليها، ونصرح في النهاية أن الأولاد هم غاية الحياة الوحيدة، ونعلق بشأن ما سبأكلونه على العشاء، بشأن ما سيكونون عليه مستقبلاً، وبشأن نجاحهم في المدرسة وفي العمل وفي الحياة ككل.

وبذلك نطيل لسنوات الإحساس بجدوانا على هذه الأرض، إلى أن يرحل الأولاد عاجلاً أم آجلاً. آنذاك يفرغ المنزل، ولا يعود مهماً بالفعل إلا وجبة غداء الأحد، عندما يلتئم من جديد شمل الأسرة التي سيدعي أفرادها دوماً أن كل شيء على ما يرام، وأنهم لا يشعرون بذرة غيرة أو تنافس فيما بينهم، في حين أنهم يتراشقون بالخناجر الخفية في الهواء؛ فأنا أجنبي أكثر منك، وزوجتي مهندسة معمارية، ونحن اشترينا لتونا منزلاً لم يكن لديكم فكرة عنه، وهكذا...

قبل عامين، توصلت إلى عدم جدوى الاستمرار في عيش هذه الحرية المطلقة. أخذت تفكر في الموت، وتلمست فكرة دخول دير، حتى أنها زارت رهبنة الكرمليات الحافيات اللواتي عشن حبسات، بعيدات تماماً عن العالم. قالت لهن إنها معمة، إنها اكتشفت المسيح، وتريد أن تكون عروسه لما تبقى من أيامها. وبطلب من رئيسة الدير، أخذت شهراً من التفكير للتأكد من قرارها. وفي خلال هذا الشهر، كان لها أن تتخيل وجودها في صومعة، مجبرة على الصلاة من الشروق إلى الغروب، مُرندة

الكلمات نفسها حتى إفراغها من معناها. أدركت أنها أعجز من أن تعيش حياة يتوَعَّدها بالجنون. كانت رئيسة الدير على حق. لم تعد. فمهما تكن حزينتها المطلقة رديئة، سيكون أمامها دومًا مُستجَدَّات أكثر تشويقًا تكتشفها وتفعِّلها.

تعرفت إلى بخار من بومباي، فضلًا عن أنه كان عشيقةً ممتازًا (وقد ندر أن صادفت هذا النوع)، عرَّفها بالتصوِّف الشرقي. إذًا، شرعت في التفكير بأن قدرها في الحياة كان الرحيل بعيدًا جدًّا، والعيش في كهف في هيمالايا، مؤمنة بأن الآلهة ستظهر لها وتكلِّمها ذات يوم، وأنها سوف تتحرَّر من بيئتها الحاليَّة التي وجدت فيها ضجرًا قاتلاً.

من دون الدخول في التفاصيل، سألت ويلما عن رأيها في أمستردام. فأجابت:

— مضجرة حتى الموت.

بالضبط. ليست أمستردام فحسب، بل هولندا كلها، حيث يولد المرء تحت جناح الحكومة، وحيث تكون شيخوخته مضمونة بفضل دور رعاية المسنِّين، واستحقاقات الخلف، والضمان الاجتماعي المجاني أو شبه المجاني، وحيث الملكات هنَّ مَنْ يتربَّعن على العرش منذ جيلين، الملكة الأم فياهلمينا، والملكة الحاليَّة جوليانا، التي ستخلفها الأميرة بياتريكس. وبينما كانت النسوة في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة يطالبن بالمساواة، ويحرقن حمالات صدورهن، كانت كارلا، التي لم ترتدِ حمالة صدر رغم كبر نهديهما، تعيش في مكان حُقِّقت فيه هذا المساواة منذ عهد بعيد، بلا ضجيج، بلا استعراض، بفضل النطق السلفي الذي يقضي بمنح السلطة للنساء: في الواقع، هنَّ من يحكمن أزواجهنَّ وأبناءهنَّ، ورؤساءهنَّ وملوكهنَّ، الذين

سعوا من جهتهم إلى توليد الانطباع لدى الكل بأنهم جنرالات ورؤساء دول وأصحاب شركات استثنائيون.

الرجال: يخالون أنهم يحكمون العالم، ولا يحرك واحد منهم ولو خنصرًا ما لم يستشر، متى حلّ المساء، شريكته أو عشيقته أو حبيبته أو أمه. كانت كارلا في حاجة إلى اتخاذ خطوة جذرية، إلى اكتشاف بلاد بكر في ذاتها أو خارجها، أن تجد مخرجًا من هذا الضجر القاتل الذي أحسّت أنه يستنفد طاقتها يومًا إثر يوم.

أملت أن تكون قارئة الطالع قد صدقت. وإذا لم يظهر الموعود في الغد، فسوف تنطلق إلى نيبال وحدها، وتركب خطر أن ينتهي بها المطاف، أمة بيضاء، تباع لسلطان بدين في بلاد لا تزال الحريم فيها ضرورة، حتى ولو خامرها الشك في أن يجروا أحدهم على فعل ذلك. لكنها قادرة على الدفاع عن نفسها أفضل من أي رجل، درعها نظرات متوعدة وسلاح في اليد.

ودعت ويلما، التي كانت ستلتقيها غداً في «باراديسيو»، وتوجهت نحو النزل، حيث قضت ليااليها الرتيبة في أمستردام، المدينة التي حلم كثير من الناس بها، إلى درجة أنهم عبروا العالم لبلوغها. مشت في شوارع ضيقة لا أرصفة لها، أرهفت أذنها لأدنى إشارة. كانت تجهل ماهيتها. لكن هذه هي حال الإشارات: إنها مذهشة، مموهة في أمورنا اليومية. رذاذ المطر المتساقط على وجهها إلى الواقع، لا الواقع الذي أحاط بها، بل واقع أنها حية، أنها تسير بأمان تام في أزقة مظلمة، وتصادف تجار مخدرات أتوا من سورينام ليعملوا هنا في العتمة. كانوا هؤلاء خطراً حقيقياً على زبائنهم، لأنهم زودوهم بمخدرات الشيطان، بالكوكايين والهرويين.

مرّت بساحة أخرى. ففي هذه المدينة، خلاف روتردام، كان ثمة ساحة تشغل كل ناصية من كل شارع. انهار المطر بغزارة، وفاضت

امتنانًا على امتلاكها قوّة على الابتسام، رغم الأفكار القاتمة التي استحوذت عليها في المقهى *coffee shop*.

مضت تُصَلِّي بصمت، تتلو صلاتها بلا كلمات لوثريّة أو كاثوليكيّة، تشكر الحياة التي اشتكت منها قُبيل ساعات، تبجّل السموات والأرض، والشجر والحيوانات، التي فصلت، بمجرد رؤيتها، تناقضات روحها ولفّت كلّ شيء بسلام عميق، لا ذاك السلام الذي نعرفه متى غابت التحديات، بل السلام الذي كان يُعدّها لمغامرة عزمت على خوضها مع رفيق درب أو من دونه. عرّفت يقينًا أنّ الملائكة تحرسها وتُنشد لها ألحانًا صامتة تدوي في كيائها، رغم سكونها، وتغسل ذهنها من شوائب الفكر، وتوصلها من جديد بروحها، وتعلّمها أن تحبّ ذاتها، وإن لم تعرف الحبّ من قبل.

لن أدع الشعور بالذنب يُخالجني لما خطر لي منذ قليل، ربما راودتني تلك الأفكار بسبب الفلم، أو بسبب الكتاب... وإن كان ذلك نابغًا مني ومن عجزتي عن رؤية الجمال بي، فإنني أسألك المغفرة، أنا أحبّك، وأشكرك على مرافقتي دومًا، أنت التي أنعمت عليّ بوجودك، التي تُنجيني من تجربة المذات ومن الخوف من الألم.

وعلى غير عاداتها، انتابها الشعور بالذنب لما كانت عليه، لسكنها البلد الذي يضم أكبر تجمّع من المتاحف في العالم، لعبورها في هذه اللحظة بالذات أحد الجسور التي يبلغ عددها في المدينة ألفًا ومئتين وواحدًا وثمانين، للنظر إلى تلك المنازل الثلاثية النوافذ الأفقيّة الجانبيّة (اقتصرت على ثلاث، فما زاد على هذا العدد، اعتُبر مصدر تباهٍ ومحاولة لإذلال الجار). كانت فخورة بالقوانين التي رعت شعبها، وبتاريخهم كملاحين، حتّى ولو تجاهلهم الجميع من أجل الإسبان والبرتغاليين.

وعلى امتداد تاريخهم، لم يرتكبوا من الأخطاء سوى واحد: تبادل جزيرة مانهاتن مع الإنكليز. لكن ما من أحد مثالي.
فتح لها الحارس الليلي باب النزل. دخلته بكل تودة، أغمضت عينيها، وفكرت قبل أن تغفو في الشيء الوحيد الذي تفتقر بلادها إليه.
الجبال.

هذا بيت القصيد: ستذهب إلى حيث الجبال، بعيداً عن هذه السهول الشاسعة اللامتناهية التي غزاها من البحر رجال أولو العزم، أفلحوا في ترويض طبيعة جامحة أثبت الخضوع.

قررت أن تستيقظ أبكر من عاداتها. كانت جاهزة للخروج مرتدية ملابسها بحلول الساعة الحادية عشرة صباحاً، في حين أنّ من عاداتها الخروج في الساعة الواحدة بعد الظهر. كان اليوم بحسب العرافة هو اليوم المفترض للقاء رفيق الدرب المنتظر. ولا يمكن أن تكون العرافة قد أخطأت، فقد دخلتا كلتاها في انخطاف غامض، خارج عن سيطرتهما، على غرار أغلبية حالات الانخطاف. ما نطقت به ليلي من كلمات لم يخرج من فمها، بل من روح اسمي، شغلت حيز مقصورتها كله.

كانت ساحة «دام» شبه مقفرة، هي التي خربت احتشادها شيئاً فشيئاً بدءاً من الظهر. لكنّها، وأخيراً، لاحظت وجهاً جديداً. لاحظت شعراً عادياً كالآخرين، وسترة محدودة الرموز التي رفعت عليها (كان أكبرها علماً تعلوه كلمة برازيل)، حقيبة ظهر مزركشة، برّجح أنّها حيكّت في أميركا الجنوبية. كانت تلك الحقائق، إلى جانب أوشحة البونشو والقبعات البيروفيّة، رائجة بين الشباب الذين يجوبون العالم. كان يُدخّن

سيجارة، سيجارة عادية، ذلك أنها تمكنت من التحقق منها بالمرور قربه،
من دون أن تشتت رائحة غير رائحة التبغ.

كان منهمكاً بالعبث، ينظر حوله، وإلى المبنى في الجهة المقابلة من
الساحة وإلى الهيببيين حولها. يُرَخي أنه رغب أن يحدث أحدهم، غير أن
الخجل، الخجل المفرط، لاح في نظراته.

جلست على مسافة آمنة منه، بحيث تجعله على مرمى نظرها، ولا
تدعه يغادر قبل أن تحاول عرض السفر عليه إلى نيبال. إذا كان قد جال
البرازيل وأميركا اللاتينية، كما أوحى حقيقته، أفلم يرغب في الذهاب إلى
مكان أبعد؟ بدا أنه من جيلها، وليست لديه خبرة واسعة، وسيكون إقناعه
يسيراً حتماً. فلما أبهت لوسامته أو قبحه، لبدانته أو ضعفه، لقصره أو
طوله. كان حُلّ همّها أن تجد رفيقاً على درب مغامرتها الخاصة.

كان باولو قد لاحظ الهيبة الفاتنة التي مرّت بقربه، لكن منعه خجله الشديد وافتقاره إلى الشجاعة من الابتسام لها. بدت مقاربتها صعبة، ربّما كانت في انتظار أحدهم، أو أرادت أن تتأمل الصباح الرمادي الذي يُنبئ بهطول المطر.

حوّل انتباهه من جديد إلى المبنى أمامه، وهو تحفة معماريّة حقّة، وصفها كتاب «أوروبا بخمسة دولارات في اليوم، أنّها قصر ملكي شيد على ٦٥٩ ١٣ وتدا (ولحظ الدليل أيضًا أنّ المدينة بأكملها بُنيت على أوتاد، مع أنّ أحدًا لم يلاحظ ذلك فعليًا). لم يكن ثمة حراس عند المدخل، حيث يدخل السياح ويخرجون حشودًا في طوابير. كان هذا القصر من الأماكن التي لم يفكر البتّة في زيارتها أثناء وجوده هنا.

عندما نكون تحت الأنظار، نحسّ بذلك دومًا. وقد أحسّ باولو بأنّ الهيبة الفاتنة التي تجلس الآن خارج حقل رؤيته تسرح فيه نظرها. أدار رأسه، كانت فعلاً هناك، لكنّها همت بمطالعة كتابها، لحظة تلاقي نظرتهما.

ما العمل؟ ظلّ يُردّد لنصف ساعة أنّ عليه النهوض، والجلوس إلى جانبها، كان هذا شائعًا في أمستردام، حيث يلتقي الناس من دون أن يُضطروا إلى الاستئذان، أو تقديم المبررات لمجرّد الرغبة في التحدث وتبادل التجارب. بعد مرور نصف الساعة، وبعد أن كثر على نفسه للمرّة الألف أنّ

ليس لديه ما يخسره أبداً، وأنها لن تكون لا المرة الأولى ولا الأخيرة التي يُصدّ فيها، نهض متوجّهاً إليها. ضلّت غارقة في كتابها.

رأت كارلا أنه يقترب، الأمر الذي كان نادراً، فهنا، يحترم الواحد حيّز الآخر. جلس إلى جانبها ونطق بأكثر الكلمات سخفاً في وضع مماثل:
- عفواً.

نظرت إليه، وهي تنتظر الآتي الذي لم يأت. مرّت خمس دقائق غريبة قبل أن تقرّر المبادرة.

- علام العفو بالضبط؟

- على لا شيء.

مع ذلك، ولفرحتها وانفراجها، تفادى الحماقات المعتادة، كقول «أمل أنني لا أزعجك» أو «ما هذا المبنى هناك؟» أو «يا لجمالك!» (يعشق الأجانب استخدام هذه العبارة)، أو «من أي بلاد أنت؟» أو «من أين ابتعت هذه الملابس؟»، وسوى ذلك.

قررت أن تساعد قليلاً، فقد كانت مهتمة به أكثر ممّا تصوّر.

- لم تضع شعار النبالة مع كلمة «البرازيل» على كمّك؟

لاحتمال أن أصاف برازيليين، لأنني برازيلي. لا أعرف أحداً في هذه المدينة، هكذا قد يساعدوني على لقاء أشخاص مشوّقين.

إذاً، هذا الشاب، الذي يبدو ذكياً، بعينه السوداوين اللتين تشعان طاقة شديدة وتعباً أشدّ، قد قطع الأطلسي للقاء مواطنين خارج بلده!

كانت قمة السخافة، لكنّها شاعت أن تُعطيه بعض الاعتبار. أمكن لها أن تفتح موضوع نيبال على الفور ومتابعة الحديث، أو تعدل عن ذلك

نهائياً، وتبدل مكانها في الساحة، بذريعة أنها على موعد مع أحدهم، أو أن ترحل ببساطة من دون شرح أو تقديم.

لكنها أثرت الآ تحرّك ساكننا، وكان للآزمته المدعو باولو، وهو يدرس خياراته أن تغرّ مسار حياتها تماماً.

هكذا هي قصص الحب، حتّى ولو كانت لحظتها بمنأى عن التفكير في هذه الكلمة السريّة وبأخطارها. ها هما معاً. لقد صدقت العزّافة. كان العالم الداخلي والعالم الخارجي يندمجان بسرعة. ربّما انتابه إحساسها هو أيضاً، لكنّه بدا شديد الخجل، أو ربّما أراد من يشاركه في تدخين سيجارة حشيشة فحسب أو، أنه، وهذا هو الأسوأ، لم ير فيها سوى شريكة محتملة يصطحبها إلى «فوندل بارك» ويمارس معها الحب، ويفترقان، وكان شيئاً لم يكن، باستثناء بلوغ رعشة الجماع.

لكن أنى لنا تحديد طبيعة إنسان في غضون دقائق؟ يُمكننا طبعاً أن نستشعر إن أوحى لنا أحدهم بالنفور، ونبتعد عنه سريعاً، لكن لم تكن هي الحال الآن بكل تأكيد. كان نحيلاً كمسمار، لكنّ شعره كان مغسولاً، لا بدّ أنّه استحمّ صباح اليوم، فلا تزال رائحة الصابون تفوح من جسده.

ولحظة جلوسه قريبا، وتفوّهه بتلك الكلمة البلهاء «عفواً»، انتاب كارلا رخاء عميق، كما لو أنها لم تعد وحيدة. كانت معه، كان معها، وأدركا كلاهما ذلك، وإن لم ينبس الواحد منهما للآخر ببنت شفة، وخجلاً ما كان يجري بالضبط. كانت عواطفهما المكنونة في انتظار أن تتجلّى، لكنها لم تكن لتظلّ جمراً تحت رماد. كانت كارلا وباولو يتحنيان اللحظة المناسبة لإظهار مشاعرهما. تلك اللحظة التي تتلاشى فيها علاقات كثيرة كان بالإمكان أن تتحوّل إلى حب كبير، إما لأن أيّ روحين متى تلاقنا على وجه الأرض، عرفتا وجهتهما، فأخافهما ذلك، وإما لأننا

نصب كل تركيزنا في أمورنا بحيث لا ندع لهما مجالاً للتعارف. ننطلق سعيًا إلى الأفضل، ونخسر بذلك فرصة العمر.

سمحت كارلا لروحها أن تتكشف. أحيانًا يوقعنا كلام الروح في الخطأ، لأن الروح تغدر بنا أحيانًا، فهي ترتضي حالات لا تشبهنا بشيء، نحاول أن نرضي العقل وتغفل عن الشيء الذي كانت كارلا تغوص إلى قاعه أكثر فأكثر، تغفل عن المعرفة. إن الأنا المرئية، الذات التي نظن أنها ما نحن عليه، ليست سوى حيز محدود، غريب عن الأنا الحقيقية. لهذا، يصعب على كثير من الناس الإنصات إلى همس الروح؛ يحاولون السيطرة عليها لكي تسير تمامًا وفق مقدراتهم، وفق رغباتهم وآمالهم ومستقبلهم وتوقعهم أن يقولوا لأصدقائهم: «التقيت أخيرًا حب حياتي»، وخوفهم من أن ينتهي بهم المطاف وحيدين في دار عجزة.

لم يعد بوسع كارلا الادعاء أكثر. وإذا جهلت كنه مشاعرها، حاولت ترك الأمور على ما هي، من دون الإسهاب في التفسير أو التبرير. أدركت أن عليها، في النهاية، أن ترفع الحجاب عن قلبها، لكنها لم تكن تعرف كيف، ولم تكن لتكتشف ذلك قريبًا. كان الأمل أن تبقى باولو على مسافة آمنة لتتبين كيف ستجري الأمور بينهما في الساعات أو الأيام أو السنوات المقبلة، لا، ليس السنوات، لأن قدرها كان في كهف في كاتماندو، حيث ستكون وحدها، في تواصل مع الكون.

أما روح باولو، فلم تكن قد تكشفت بعد، ولم يكن في وسعه أن يحزر إذا كانت هذه الفتاة ستختفي بين لحظة وأخرى. لم يعد يعرف ما يقوله، ولزمت هي الصمت. حل صمت قَبْلَهُ كلاهما. سَدَدَ كل منهما بصره إلى الأمام من دون أن ينطق بكلمة. حولهما، كان الناس يتوجّهون إلى مقاصف الوجبات السريعة وإلى المطاعم، وكانت عربات الترام المكتظة تمرّ امامهما، غير أنّ أعينهما تاهت في المَبْهَم، وكانت عواطفهما في بُعدٍ آخر.

— أتودّ تناول الغداء؟

أخذ باولو سؤالها كدعوة فاجأته وأدهشته. لم يستوعب أن تعرض عليه فتاة بهذا الجمال تناول الغداء معها. وهذه بداية طيبة في أمستردام تتخذ منحنى جميلاً.

لم يكن قد تصوّر شيئاً مماثلاً من قبل، ويبدو أن الأمور متى حدثت بلا تخطيط وبلا توقّعات، تُصبح مُستساغة ومُجدية. وإذا تحدثت مع فتاة غريبة، من دون أي غاية رومنسية مبطنّة، يتدفّق كلّ شيء سلساً وطبيعياً.

أكانت وحدها؟ كم من الوقت سيبقى منار اهتمامها؟ ماذا عليه أن يفعل ليُبقّيها إلى جانبه؟

لا شيء. تبخّر دفق الأفكار الغبية هذا في الفضاء. ومع أنّه تناول الطعام

منذ قليل، قبل دعوتها. أمل فقط ألا تختار مطعمًا مكلفًا كثيرًا، إذ ينبغي
لذخراته أن تكفيه سنة كاملة حتى تاريخ تذكرة العودة.

أيها الحاج، مشتت أنت، فاهدا.
فليس كل مدعو مختارًا،
وليس كل امرئ ينام قرير العين،
أو يرى ما ترى الآن.

علينا التشارك طبعًا، حتى وإن كان في أمر نعلمه جميعًا. من المهم ألا
ننجرف مع أفكارنا الأنانية بأن نكون الشخص الوحيد الذي سيبلغ منتهى
الرحلة. ومن يفعل ذلك، سيجد جنة خاوية، تخلو مما يسترعي الاهتمام،
وسرعان ما سيجد نفسه في ضجر قاتل.

يجب ألا نستحوذ على القناديل التي تُنير دروبنا ونحملها معنا.

متى فعلنا ذلك، نملاً حقائبنا بالقناديل، لكن لن يملأ كل هذا النور
الذي نحمله فراغ الرفقة التي إليها نفتقر. فبمّ يُفيدنا ذلك؟

لم يستطع باولو أن يُسكن ذهنه. شعر بالحاجة أن يخطّ كل ما
كان يدور من حوله: ثورة بلا أسلحة، طريق بلا رقابة على الجوازات،
ولا منعطفات خطيرة. عالم أصبح يانغًا فجأة، بمعزل عن أعمار الناس
وقناعاتهم السياسية أو الدينية. أشرقت الشمس، كما لو أنها تعلن عودة
النهضة، تُغيّر عادات الجميع وأعرافهم. وذات يوم وشيك، لن نعود رهن آراء
الآخرين، بل رهن طريقتنا الخاصة في النظر إلى الحياة.

أشخاص يرتدون الأصفر يرقصون ويُنشدون في الشوارع، ثياب ملونة،
فتاة تقدّم الورد إلى عابر، ابتسامات على كل ثغر... نعم، سيكون الغد

أفضل، رغم كل ما كان يجري في أميركا اللاتينية وسواها من البلدان. سيكون الغد أفضل، لمجرد أن الخيارات ستنتفي، أن لا سبيل للعودة إلى الماضي وترك التزمّت والخبث والنفاق، تستولي من جديد على أيام سكّان هذه الأرض ولياليهم. استحضر جلسة الطرد في القطار وآلاف الانتقادات التي ما برحت تنهال عليه من الجميع، أقرباء وغرباء. استحضر ألم والديه ورغّب في مهاتفتها الآن ليقول لهما:

لا تقلقا، أنا سعيد، وستفهمان قريباً لماذا لم أولد لأرتاد الجامعة واحوز شهادة وأجد عملاً. ولدتُ لأكون حراً ويمكنني أن أحيا هكذا. سيشغلني دوماً نشاط ما، سأجد دوماً وسيلة لجني المال، ويمكنني دوماً أن أتزوج وأؤسس عائلة، لكن ليس اليوم. اليوم هو وقت أن أحاول عيش الحاضر فقط، في الهُنا والآن، بفرح الأولاد الذين خصّهم يسوع بملكوت السموات. إن اقتضى الأمر أن أصبح فلأخا، فسوف أفعل من دون تدمر، سوف يُتيح لي ذلك أن أتواصل مع الأرض والشمس والمطر. وإن اقتضى الأمر أن أمسي أسير مكتب، فسوف أفعل من دون تدمر، لأنني سوف أحظى بآخرين إلى جانبي، سنشكّل مجموعة، مجموعة تكتشف كم من المتع الجلوس إلى طاولة والتحدث والصلاة والضحك عند نهاية اليوم، لكي تفضّ عنها كل أوقات بعد الظهر تلك من العمل المتواتر. وإن اقتضى الأمر أن أكون وحيداً، فسوف أكون وحيداً، وإن أغرمتُ وقررت الزواج، فسوف أتزوج، لأنني على يقين بأن زوجتي، التي ستكون حبّ حياتي، ستقبل فرحي كأكر النعم التي يُمكن لرجل أن يُقدّق بها على امرأة.

توقّفت الفتاة إلى جانبه لشراء بعض الأزهار. وبدل أن تحملها، جعلتها على

شكل تاجين، وضعت أحدهما على رأسه، والآخر على رأسها. كانت هذه الحركة أبعد من أن تبدو سخيفة، كانت طريقة للاحتفاء بالانتصارات الصغيرة في الحياة، كما احتفى الإغريق منذ قرون بالمظفرين والأبطال منهم، بأكاليل ليست من ذهب، بل من غار. قد تكون ذبلت، لكنها كانت خفيفة، ولم تستدع التيقظ الدائم لتيجان الملوك والملكات. صادم باولو وكارلا أشخاصا كثيرين ممن اعتمروا هذا النوع من التيجان، وبدا كل شيء أجمل.

كان ثمة عازفون يعزفون على الزمار والكمان والغيتار والسيتر، التي شكلت أنغامها مقطوعة موسيقية مشوشة، لكنها كانت في تناغم طبيعي مع شارع كهذا بلا أرصفة، شأنه شأن معظم شوارع هذه المدينة، التي كانت تعج بالدراجات الهوائية، بتباطؤ الزمن وتسارعه، وكان باولو يخشى أن تكون الغلبة للتسارع، فينتهي هذا الحلم.

لم يكن باولو، في هذه اللحظة، يرتاد شارعًا، بل كان في منام، وكان حيث الأشخاص الذين هم من لحم ودم، يتخاطبون بلغات غير مالوفة، وينظرون إلى المرأة المائلة قربه ويبتسمون لجمالها. تبادلهم الابتسامة، فتتقد فيه غيرة سرعان ما تخبو أمام شعوره بالفخر بأنها اختارته هو رفيقًا لها.

كان بين الحين والحين يقترب منهم، لشراء البخور، والأساور، والسُر المزركشة المصنوعة على الأرجح في البيرو أو في بوليفيا. رغب باولو في شراء كل شيء، لأن الناس ظلوا يبادلونه الابتسامة، لم يستاءوا، لم يلحوا، خلافاً للباعة في المتاجر. لو اشترى شيئاً بسيطاً، لربما أتاح لهم قضاء نهار أو ليلة إضافية في هذه الجنة. لكنه في صميمه، كان على يقين بأن الجميع

يعرفون كيف يحافظون على بقائهم في هذا العالم، وأن عليه أن يقتصد في إنفاقه، ويجد مصدر رزق في هذه المدينة، إلى أن تُلقى تذكرة السفر بثقلها على محفظته المشدودة إلى حزامه، المخبأة حول خصره، مُعلنة أن الساعة قد أزفت للاستيقاظ من الحلم والعودة إلى الواقع.

هذا الواقع الذي تبدى أحياناً في تلك الشوارع وتلك المتنزهات، على طاولات صغيرة ارتفعت خلفها ملصقات تُظهر القضاعات المرتكبة في فيتنام، ومنها صورة لجنرال يُعدم أحد أعضاء جبهة «فيت كونغ»، بدم بارد. وكان قد طُلب إلى المازة أن يُوقعوا فحسب على عريضة، ولم يُمانع أحد.

أدرك لحظتها أن الدرب لا تزال طويلة أمام النهضة لكي تسيطر على العالم. لكنها بدأت، نعم بدأت. ولن ينسى أي من هؤلاء الشباب، وهم جمع غفير في هذا الشارع، كيف كان يعيش آنذاك، وأنه حين يعود إلى وطنه، سيُبشّر بالسلام والحب. ذلك أن حلول عالم جديد كان ممكناً، عالم مُحَرَّر أخيراً من الاضطهاد والحقد والأزواج الذين يضربون زوجاتهم، والجلادين الذين يُعلقون الناس رأساً على عقب، ويقتلونهم بهبطاء...

... كان حسن العدل لا يزال نابضاً فيه، والظلم الذي ساد في العالم يهزّ كيانه، لكنه الآن في حاجة أن يستريح ويستعيد قواه. فقد بذّر جزءاً من شبابه في الخوف من كل شيء، وقد حلت لحظة الأدثار بالشجاعة في مواجهة الحياة والدرب المجهولة التي كان سيتبعها.

دخلا متجراً من عشرات المتاجر التي كانت تباع الغلايين والأوشحة المتعددة الألوان وتماثيل قديسي الشرق، والرموز التي يُمكن ترقيع الثياب بها. اشترى باولو ما كان يبحث عنه، حزمة من دبابيس الزينة الحديدية الصغيرة التي لها شكل نجمة، والتي سوف يثبتها بسترته لدى عودته إلى النزل.

في أحد المنزهات الكثيرة في المدينة، كانت ثلاث فتيات عاريات الصدر يتأملن، وقد اغمضن جفونهن، وجلسن في وضعية من وضعيات اليوغا باتجاه الشمس التي كانت ستختفي قريباً خلف السحب، وتخبو موسمين لترحع في الربيع. وفيما عبّر المكان، أمعن النظر، ووجد ساحة البلدة تعجّ بأشخاص أكبر سنّاً، عائدین من أعمالهم أو ذاهبين إليه، أشخاص لم يتكبدوا حتّى عناء النظر إلى الفتيات الثلاث. هنا، لم يكن العري يُقابل بالحظر أو العبوس، فكلّ امرئ كان سيّد جسده، وله أن يفعل به ما يشاء.

أما الأقمصة القصيرة الأكمام، فكانت أشبه بلوحات إعلانات متنقلة، طبع بعضها بصورة لعبود، أمثال جيمي هيندركس، جيم موريسون، جانيس جوبلين، غير أنّ معظمها أعلن عن قدوم النهضة،

اليوم هو اليوم الأول من بقية حياتك.

حلم بسيط لأقوى من ألف واقع.

خلف كلّ حلم عظيم، حالم.

استوقفته الجملة الآتية تحديداً: مكتبة الرمحي أحمد

الحلم امر لا يمكن التنبؤ به، وهو خطير على أولئك

الذين لا يتحلون بالشجاعة ليحلموا.

صحيح. كان هذا ما لم يُجزه النظام، لكنّ الحلم سينتصر في النهاية، قبل هزيمة الأميركيين في فيتنام.

كان مؤمناً. كان قد اختار جنونه وبنوي الآن الاسترسال فيه، ملازمته، حتّى يسمع الدعوة تناديه لفعل ما يُسهّم في تغيير العالم. كان

حلمه أن يصبح كاتبًا، لكن لم يزل الأمر مبكرًا على ذلك الآن. لم يكن على يقين بأن للكتب تلك القدرة على التغيير، لكنه سيبدل قصاره ليظهر للآخرين ما عجزوا عن رؤيته.

بيد أنه كان متيقنًا من أن كل عودة مستحيلة، وليس هناك إلا درب النور من الآن فصاعدًا.

التقى ثنائيا برازيليا، تياغو وتابينا، اللذين لاحظا العلم على سترته وعرفاه بأنفسهما.

قالا له قبل أن يدعوا إلى مكان عيشهما، - نحن أبناء الله.

ألسنا جميعًا من أبناء الله؟

بلى، لكن هم اتبعوا عقيدة اختبر مؤسسها رؤيا. سألاه إن كان يود معرفة المزيد.

ردّ باولو أنه يود ذلك طبعًا. فعندما ستركه كارلا مساءً، سيكون لديه أصدقاء جدد.

لكن ما إن ابتعدا، حتى أمسكت كارلا بالرقعة الموضوعة على سترته، وانتزعتها عنها.

- سبق أن اشتريت من المتجر ما كنت تبحث عنه. النجوم أجمل كثيرًا من الأعلام. إذا أردت، سوف أساعدك على وضعها بشكل صليب مصري، أو بشكل رمز السلام.

- لم يكن من داع أن تفعل ذلك. كان يمكنك سؤالي وتركى أقرر

إن كنتُ أريد الإبقاء عليها أو نزعها عن كُفِّي. أحب بلادي وأكرهها، لكن هذا يخصني. لم يمضِ على تلاقينا وقتاً. فإذا كنت تخالين أن بإمكانك أن تُعَلِّي عليّ ما أفعل، وأن تصدري أوامرك، وتخالين أنني أعتمد عليكِ لأنك الشخص الوحيد الذي التقيته هنا، فحري بنا أن نفرق الآن. لن يكون من الصعب أن أجد وحدي مطعمًا غير مُكلف.

كانت نبرة صوته قد خُسنت. واستحسنت كارلا، التي أخذها على حين غرة، رد فعله هذا. لم يكن غريباً يُدْعَن إلى ما يُمليه عليه الآخرون، حتى ولو كان في مدينة يجهلها. لا بُدَّ من أنه عانى في حياته. ردت الرقعة إليه.

— ضعها في مكان آخر إذا. من قلة الأدب أن تحكي لغة لا أفهمها، ومن نقص الخيال أن تكون قد جئت إلى هنا من مكان بعيد لتتعرّف أشخاصاً أمكنك تعرّفهم حيث أتيت. فإذا تكلمت البرتغالية من جديد، سوف أتكلم الهولندية، وأعتقد أن هذا سيقضي على الحوار بيننا.

لم يكن المعلم رخيضاً فحسب، بل كان .مجانياً، هذه الكلمة السحرية التي تجعل كل شيء الذّ طعمًا.

— من يدفع مقابل كل هذا؟ أهى الحكومة؟

— لا تسمح الحكومة الهولندية بأن يعرف أي من مواطنيها الجوع. لكن في هذه الحالة، يأتي المال من جورج هاريسون الذي تبنى ديننا.

أصغت ككارلا إلى الحديث بمزيج من الاهتمام الكاذب والضجر الواضح. وواقع أنّه لم ينطق بكلمة، وهما يسيران، أكد أقوال العرافة: كان هذا الشاب الرفيق المثالي لرحلتها إلى نيبال. لم يكن مهنازًا، لم يسعَ إلى فرض رأيه، لكنه كان يعرف تمامًا كيف يدافع عن حقوقه، كحاله مع قضية الرقعة. لم يبقَ أمامها سوى تحين اللحظة المناسبة لطرح الموضوع.

توخّجها إلى البوفيه، واترعا طبقيهما بملذّات نباتية شتّى، وهما يُصغيان إلى أحد الأشخاص الذين ارتدوا البرتقالي وعزّفوا عن هويتهم للوافدين الجدد. لا بُدّ من أنّهم كانوا كثيرين. وكان تحويل معتنق الناس في ذاك الزمن أمرًا سهلاً جدًّا، خصوصًا وأنّ أهل الغرب عشقوا كلّ ما جاء من أرض الشرق الغريبة.

قال أحدهم، وقد بدا أكبرهم سنًا، لا بُدّ من أنّكم التقيتم أفرادًا من مجموعتنا في طريقكم إلى هنا. كان ذا لحية بيضاء، وعلى وجهه

هيئة القداسة كمن لم يرتكب إثماً في حياته برمتها. تابع، الاسم الأصلي لديانتنا صعب جداً، لذا يُمكنكم أن تلقبونا ببساطة بـ «هاري كريشنا». نعرّف بهذا الاسم منذ قرون، إذ نؤمن بأنّ ترداد هاري كريشنا، هاري رام، يُمكنه أن يُفرغ اذهاننا، ويُنفذ الطاقة إليها. نحن نؤمن بأن الكل واحد، وبأننا نشارك في روح واحدة، وبأنّ كل قطرة نور تدخلها تنتشر إلى الزوايا العتمة التي تحيط بها وتُنيرها. هنا كلّ ما في الأمر. يُمكن لمن يريد ذلك أن يأخذ كتاب البهاغا فادجيتا لدى خروجه، وملء استمارة طلب انتسابه رسمياً. لن ينقصكم شيء، لأنّ هذا كان وعد الربّ المستنير قبل المعركة الكبرى، عندما شعر أحد القاتلين بالذنب لانخراطه في حرب مدنيّة. أجابه الربّ المستنير أن لا أحد قاتل ولا أحد مقتول، أنّ عليه أن يؤدي واجبه فحسب، وأن يقوم بما أمر به..

تناول الرجل نسخة من الكتاب المذكور. حدّق باولو إلى المعلم الروحي باهتمام، وحدثت كارلا إلى باولو باهتمام، مستغربة أنّه لم يسمع بكلّ هذا من قبل.

«يا ابن كونتي *Kunti*، إمّا أنّك ستموت في ميدان القتال وتُحمل إلى الأجرام السماويّة، وإمّا أنّك ستَهزم أعدائك وتظفر بالملكة الدنيويّة. لذا، بدل أن تسأل قم بعزم وقاتل..»
أغلق المعلم الكتاب.

هذا ما علينا فعله. بدل أن نهدر وقتنا في القول «هذا صالح، وهذا طالح»، علينا أن نحقق قضاءنا وقَدَرنا. إنّهُ القدر الذي جاء بكما إلى هنا اليوم. يُمكن لمن يريد أن يرقص ويُغني معنا في الشارع بُعيد انتهائنا من تناول الطعام.

برقت عينا باولو، ولم تحتج كارلا إلى كلام يُقال. لقد فهمت كل شيء.

— أنت لا تنوي الانضمام إليهم، أليس كذلك؟

— بلى، بكل تأكيد، فلم يسبق لي أن رقصت وغنيت في الشوارع هكذا. — أتعلم أنهم يحظرون الجنس قبل الزواج، ويُجيزونه بهدف التكاثر فقط وليس اللذة؟ أعتقد أن مجموعة تدعي التنوير قادرة على نبذ فعل جميل كهذا وتحريمه وإدانته؟

— لا أفكر في الجنس بل في الرقص والموسيقا. مضى وقت طويل على استماعي إلى الموسيقا، على الغناء، وهذا ثقب أسود في حياتي. — يُمكنني اصطحابك هذا المساء للغناء والرقص.

لم كانت هذه الفتاة توليه هذا القدر من الاهتمام؟ أمكن لها أن تجد من أرادت من الرجال، متى أرادت. تذكر الأرجنتين، لعلها في حاجة إلى من يساعدها على أداء عمل لم يسترِع اهتمامه البتة. قرر أن يجس نبضها؛ — أتعرفين بيت الشمس الشارقة؟

حمل سؤاله ثلاثة مضامين؛ أولاً، هل تعرف أغنية «The House of the Rising Sun»؟ «ذا انيمالز؟» ثانياً، هل تعرف معنى الكلمات. ثالثاً، هل تود الذهاب إلى هناك؟

— كُفَّ عن هذا الهراء.

هذا الفتى الذي رأت فيه أول الأمر شاباً ذكياً وفاتناً ومقتضب الحديث ويسهل التحكُّم به، بدا أنه قد أساء فهم كل شيء. ومهما يبدُ ذلك صعب التصديق، فقد كانت في حاجة إليه أكثر من حاجته إليها.

– جيد جداً. اذهب برفقتهم، سألحق بك على مسافة. سنلتقي في النهاية.

رغبت أن تضيف: سبق لي أن تخطيتُ مرحلة هاري كريشنا، لكنّها لجمت نفسها لنألا تخيف فريستها.

كانت متعة فائقة أن تثب وتقفز إلى الأمام والوراء وتغني بأعلى صوتك، متبعا أولئك الأشخاص الذين لبسوا البرتقالي، وقرعوا الأجراس الصغيرة، وبدوا أنهم ينعمون بسلام داخلي. انضم خمسة آخرون إلى المجموعة، وكبر الموكب وهو يمضي قدما في الشوارع. بين الحين والحين، كان باولو يلتفت إلى الوراء ليرى إن كانت كارلا لا تزال تسير خلفه. لم يُرد أن يضيعها، فقد كان تقاربهما من الغموض بمكان، وكان لا بُد من صونه. لم يكن مفهومًا البتة، لكنه كان مُصانًا. نعم، كانت هناك، على مسافة آمنة خلفه، لئلا تُنسب إلى أولئك الرهبان، أو الرهبان المبتدئين. كانا يتبادلان الابتسامات كلما التقت نظراتهما.

ثمة رابط ينعقد بينهما، أخذت أواصره تشتد.

تذكر حكاية من طفولته، زمار هاملن، حيث قرّر بطل الحكاية الانتقام من البلدة التي أخلت بعهد تسديد أجره مقابل تخليصه لها من الجردان، فقرّر شد أطفالها وسوقهم بعيدًا بقوة موسيقاه. هذا ما يحدث الآن؛ رجع باولو طفلاً يرقص وسط الشارع، لم يعد هو الذي صرف سنوات غارقاً في كتب السحر، في ممارسة طقوس معقدة ظاناً أنه كان يدنو من تجسّد ذاته الحقيقية. لعله فعل حقاً، أو لم يفعل، مهما يكن، فقد ساعده الرقص والغناء على بلوغ الحالة الذهنية نفسها.

ولشدة ترداد المانترا والوثب، راح يبلغ حالة انتفت معها أهمية الفكر

والمنطق والشارع. كان رأسه فارغاً تماماً، ولم يكن يرجع إلى الواقع إلا بين الحين والحين ليتثبت من لحاق كارلا به. نعم، لا تزال هناك، وكم يُستحسن أن تظلّ هناك، في حياته، طويلاً، حتّى ولو لم يمضِ على تعارفهما سوى ثلاث ساعات....

كان واثقاً بأنّها تبادله الإحساس، وإلاّ لكانت ببساطة تخلّت عنه في المطعم.

أخذ يفهم كلام «كريشنا، الموجه إلى المقاتل، أرجونا، قبل خوض المعركة. لم تكن مماثلة تماماً لتلك التي في الكتاب، لكن في روحه، قاتل، عليك بالقتال لأنك تواجه معركة.

قاتل لأنك في سلام مع الكون، مع الكواكب، مع الشمس المتفجرة، مع النجوم الخابية الآفلة إلى الأبد.

قاتل لتحقيق قدرك، من دون أن تفكر في الأرباح أو الخسائر أو الاستراتيجية أو الانتصارات أو الهزائم.

لا تسع إلى إرضاء نفسك، بل إلى إرضاء الحب الأعظم الذي لا يقدم إليك سوى تواصل وجيز مع نظام الكون، ويستوجب بالتالي فعل تفانٍ كامل، من دون شكوك، من دون تساؤلات، أحبّ لتحبّ لا أكثر.

حبّ لا يُدين بشيء لأحد، ولا يتوجب عليه شيء، يسرّ لوجوده ببساطة وبقدرته على التجلي.

بلغ الموكب ساحة «دام»، وأخذ يدور فيها. قرّر باولو أن ينشقّ عنه لكي ترجع إلى جانبه الفتاة التي تعرّف إليها. بدت مختلفة، أكثر استرخاءً،

أكثر اطمئنناً في حضرته. خفت حرّ الشمس، ولا بُدَّ أنه لن يرى الفتيات العاريات الصدر من جديد. لكن بدا كل شيء يحدث بعكس ما توقع. إلى يسار مجلسهما، لاحظا أنواراً ساطعة، وبما أنه لم يكن من شاغل يشغلها قررا التوجه إلى هناك لرؤية ما يحدث.

انعكست الكشّافات الضوئية على جسد عارضة أزياء، عارية تماماً، حملت في يدها زهرة توليب سترت بها عورتها. شكّلت المسلة في وسط دام، خلفية لها. سألت كارلا أحد المساعدين عما يجري.

— إعلان مصوّر لوزارة السياحة.

— وهذه هي هولندا التي تبيعونها للأجانب؟ مكان يتمشى فيه الناس عراة؟

ابتعد المساعد من دون أن يجيبها. أخذ الفريق استراحة من جلسة التصوير. دخلت فنية التبرج على المشهد لتضع اللمسات الأخيرة على النهدي الأيمن للعارضة، فتوجهت كارلا إلى مساعد آخر. كررت عليه سؤالها. توسل إليها الرجل، المتوتر نوعاً ما، ألا تقاطعه. لكن عرفت كارلا مراده.

— تبدو متوتراً. ما الذي يقلقك؟

أجاب المساعد، وقد أراد التخلص من هذه الفتاة المتطاولة: — الضوء. سوف يغيب الضوء سريعاً. وبعد قليل ستتوشح الساحة بالظلام.

— أنت لست من هنا، أليس كذلك؟ نحن في بداية الخريف ويظل الضوء حتّى السابعة مساءً. أضف إلى ذلك أنني أمتلك القدرة على إيقاف الشمس.

نظر إليها الرجل متفاجئاً. لقد نجحت في الحصول على مرادها، فقد شدت انتباهه.

– لَمْ تَتَنَجَّجُوا إِعْلَانًا مَصَوِّرًا لَامْرَأَةً عَارِيَةً تُغَطِّي عَوْرَتَهَا بِزَهْرَةِ
التُولِيْب؟ أَهَذِهِ صُورَةُ هُولَنْدَا الَّتِي تَرِيدُونَ إِظْهَارَهَا لِلْعَالَمِ أَجْمَعِ؟
أَجَابَهَا بِغَيْظٍ مَبْطُنٍ:

– عَنْ أَيِّ هُولَنْدَا تَتَكَلَّمِينَ؟ مَنْ قَالَ إِنَّنَا فِي هُولَنْدَا، الْبَلَدِ الَّذِي تَتَوَسَّطُ
مَنَازِلُهُ نَوَافِدُ مَنْخَفِضَةٌ وَسَنَائِرُ مَخْرُومَةٌ تَسْمَحُ لِلْجَمِيعِ بِمُشَاهَدَةِ مَا يَجْرِي
فِي الدَّخْلِ؟ مَا مِنْ أَحَدٍ يَرْتَكِبُ الْإِثْمَ، وَحَيَاةَ كُلِّ أُسْرَةٍ أَشْبَهَ بِكِتَابٍ مَفْتُوحٍ؟
هَذِهِ هِيَ هُولَنْدَا يَا عَزِيزَتِي، بَلَدٌ بِقَبْضَةِ الْكَالْفِينِيِّينَ، حَيْثُ الْجَمِيعُ أَثْمُونٌ
حَتَّى ثُبُوتُ الْعَكْسِ، حَيْثُ الْإِثْمُ يَعْشَشُ فِي الْقَلْبِ، فِي الرُّوحِ، فِي الْجَسَدِ، فِي
الْوُجْدَانِ. وَحَيْثُ لُطْفُ اللَّهِ وَحْدَهُ قَادِرٌ عَلَى خِلَاصِ بَعْضِهَا، لَكِنْ لَيْسَ
كُلُّهَا، الْمُخْتَارِينَ فَقَطْ. أَنْتِ مِنْ هُنَا، وَلَمْ تَفْهَمِي ذَلِكَ بَعْدَ؟
أَشْعَلُ سَيَّجَارَةً مُحَدَّقًا إِلَى الشَّابَةِ، الَّتِي اسْتَحَالَتْ وَقَاحَتُهَا السَّابِقَةُ
خَشِيَّةً.

– لَكِنْ، يَا صَغِيرَتِي، نَحْنُ لَسْنَا فِي هُولَنْدَا، بَلْ فِي أَمَسْتَرْدَامِ، حَيْثُ
الْمُؤَسَّاتُ خَلْفَ الْوَاجِهَاتِ، وَالْمَخْدَرَاتِ فِي الطَّرِيقَاتِ. أَمَسْتَرْدَامِ، الَّتِي يُحِيطُ بِهَا
نِطَاقٌ صَخِيٌّ خَفِيٌّ. وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَجَرَّأُونَ عَلَى الْخُرُوجِ بِهَذِهِ الْأَفْكَارِ عَنْ
الْمَدِينَةِ. لَيْسَ فَقَطْ سَيَفْقِدُونَ التَّرْحِيبَ بِهِمْ، بَلْ سَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِمْ إِيجَادُ وَلَوْ
غُرْفَةٍ فِي فَنْدَقٍ، مَا لَمْ يَكُونُوا مَتَأَنِّقِينَ. تَعْرِفِينَ هَذَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَذَا،
مِنْ فَضْلِكَ، ابْتَعدِي وَدَعِينَا نَقُومُ بِعَمَلِنَا.

كَانَ هُوَ مَنْ ابْتَعدَ، تَارِكًا كَارِلَا مَعَ ذَهُولِهَا، كَمَا لَوْ أَنَّهَا تَلَقَّتْ
صَفْعَةً لِلتَّوْ. حَاولَ بِأَوَّلُو مَوَاسَاتِهَا، لَكِنَّهَا تَمَتَّعَتْ لِنَفْسِهَا،
«هَذَا صَحِيحٌ. أَنَّهُ مُحَقَّقٌ. هَذَا صَحِيحٌ».

كَيْفَ؟ فَحَتَّى الْحَارِسَ الْجَمْرَكِيِّ عَلَى الْحُدُودِ يَضَعُ قَرْطًا عَلَى إِذْنِهِ!

قالت: - حول هذه المدينة جدار خفي، تُريدون أن يَجَنَّ جنونكم؟ إذن سنجد مكاناً يُمكن للجميع فيه أن يفعلوا ما يشاؤون، لكن لا تتجاوزوا هذه الحدود، وإلا سوف يجري إيقافكم بتهمة الإتجار بالمخدرات، حتّى ولو كنتم تستهلكونه فقط، أو بتهمة التعدي على الحشمة، فارتداء حُفالة صدر والحفاظ على الحشمة والآداب أمر واجب لكي يتمكن هذا البلد من التقدم.

أخذت الدهشة باولو. وهمّ بالابتعاد.

- عُد إلى هنا الليلة عند التاسعة. فقد وعدتك باصطحابك للاستماع إلى موسيقا حقيقيّة، والرقص.

- لكنك لست مضطرة إلى ذلك.

- بلى طبعاً. ولا تخذلني، فما من رجل تخلّى عني يوماً وهرب.

ساور الشكّ كارلاً. ندمت لأنّها لم تُشارك في الرقص والإنشاد في الشارع، فربّما كان ذلك ليقرب بينهما أكثر. لكن في النهاية يحتاج كلّ ثنائي إلى المجازفة.

ثنائي؟

غالباً ما كانت تسمع الآخرين يقولون: «صرفتُ حياتي أصدق كلّ ما يقوله لي الناس، وينتهي بي الأمر خائباً. أحدث ذلك لك يوماً؟..

بالطبع حدث، لكنّها الآن، وقد بلغت الثالثة والعشرين، تعلّمت كيف تكون حذرة. والخيار الوحيد الآخر الذي كان أمامها عدا الوثوق بالناس، كان تحويل نفسها إلى كائن دائم التأهب، عاجز عن الحبّ، يتخذ القرارات، ويُلقى باللّامة على الآخرين إزاء كلّ سوء بصيبه. لكن ما جدوى العيش هكذا؟

عندما نثق بذواتنا، نثق بالآخرين. لأننا نعرف في الصميم أن يوم سيلحق بنا الغدر، وسوف يحدث ذلك، لأنها طبيعة البشر، سيكون البدء من جديد ممكناً. وهذا بالضبط جزء من متعة الحياة: أن نجازف.

كان «باراديسيو»، هذا الاسم الموحى، اسم نادي السهر الذي دعت كارلا باولو إليه وكان في الحقيقة... كنيسة. كنيسة من القرن التاسع عشر شُيّدت أساساً لتؤوي مجموعة من أتباع ديانة محلية استنتجت منذ منتصف العام ١٩٥٠ أنها لم تعد تستقطب الكثير من الأتباع، رغم أنها بشرت بنوع من الإصلاح اللوثيري. وفي العام ١٩٦٥، وبسبب تكاليف الصيانة، قرّر من تبقى من المؤمنين هجر المبنى، الذي شغله الهيبيون بعد عامين. وقد وجدوا في الصحن الرئيسي للكنيسة المكان المثالي للتداول في الأمور وتنظيم ورش العمل والحفلات الموسيقية والأنشطة السياسية.

بعد فترة وجيزة، طردتهم الشرطة، لكن بقي المكان مهجوراً، وعاد الهيبيون في جحافل، وقد أعطوا الشرطة خياراً واحداً: إما أن يطردوهم بالقوة والعنف، وإما أن يدعوهم يمكنون. أسفر اتفاق بين ممثلي الفاسقين الكثي الشعّر، وممثلي البلدية المتأنقين على أكمل وجه، عن السماح للهيبيين بتشديد مسرح مكان المذبح القديم شرط أن يؤدوا الضرائب عن كلّ بطاقة مبيعة، وأن يراعوا نوافذ الكنيسة الزجاجية المزخرفة القائمة خلفه.

وطبعاً، لم تؤدّ الضرائب قط. زعم الهيبيون أن الأنشطة الثقافية كانت تأتي بخسارة، وبدا أن الجميع لا يبالون بذلك أو بالتعرض للطرْد من جديد. في الوقت نفسه، أبقوا على الزجاج الملون المزخرف نظيفاً،

وكانوا يصلحون أدنى تشقّق بواسطة الرصاص والزجاج الملّون، وواظبوا بذلك على إظهار مجد «ملك الملوك» وجماله. ومتى سُئلوا لم أوليتموها هذا القدر من العناية؟ كان المسؤولون يجيبون:

«لأنّ النوافذ جميلة. ولأنّ تصميمها وصنعها وتركيبها، استوجبت الكثير من العمل. نحن هنا لنُظهر فنّنا، ونحن نحترم فنّ من سبقونا».

عندما دخلا، كان الناس يرقصون على أنغام إحدى الأغاني الذائعة حينذاك. لم يؤمّن السقف الشاهق العلو تردّدًا صوتيًا جيدًا، لكن ما الهم؟ هل فكّر باولو في أجهزة صوت عندما أنشد هاري كريشنا في الشوارع؟ الهم أن الجميع كانوا يبتسمون، يضحكون، يُدخّنون، يتبادلون نظرات الإغواء أو مجرد الإعجاب. حينها، لم يعد يتوجّب أي رسم دخول أو تسديد ضريبة: فقد أخذت الحكومة المحلية على عاتقها الحيلولة دون خروجهم عن القانون، ووجوب الاعتناء بالمكان، مُخصّصة لهم إعانة لذلك.

وفضلاً عن المرأة العارية التي تغطّي زهرة التوليب عورتها، انصبّ اهتمام المسؤولين على تحويل امستردام إلى عاصمة ثقافية من نوع محدّد. أعاد الهيبّيون إحياء المدينة. وبحسب كارلا، فقد ازداد الإقبال على الفنادق: أراد الجميع أن يشاهدوا هذه القبيلة التي لا زعيم لها، بنسائها المستعدّات على الدوام لممارسة الحبّ مع أوّل المُقبّلين. وهو زعم خطأ طبعاً.

— الهولنديون أذكاء.

— بالطبع نحن أذكاء. لقد غزونا العالم في الماضي، بما فيه البرازيل. صعدا إلى إحدى الشرفات التي كانت على مدار الصحن الرئيسي. وللعجب، كان التردّد السمعي فيها معدومًا، حيث استطاعا التحدّث من

دون أن تزعجهما الموسيقى الصادحة أسفل. لكن لم يرغب باولو، ولا كارلا، في الحديث. انحنيا فوق الدرايزين الخشبي لمشاهدة الراقصين. اقترحت عليه النزول والانضمام إليهم، لكنّه اعترف لها أنّ الموسيقى الوحيدة التي عرف الرقص على إيقاعها فعلاً كانت هاري كريشنا هاري راما. ضحكا، أشعلا سيجارة تشاركا في تدخينها، ثمّ أومأت كارلا إلى أحدهم عبر سحابة الدخان. لاحت له شابة أخرى. قالت معرّفة عن نفسها:

— ويلما.

قالت كارلا،

— سنذهب إلى نيبال.

أطلق باولو ضحكة وقد خالها مزحة. بغتت ويلما من تعليق كارلا من دون أن تُبدي ذلك. استأذنت كارلا باولو لمحادثة صديقتها قليلاً بالهولندية. وحول باولو نظره من جديد إلى الراقصين.

إلى نيبال؟ إذن هذه الفتاة التي التقاها منذ فترة قصيرة والتي بست أنّها تحبّ رفقة، سترحل قريباً؟ قالت «سنذهب، كما لو أنّ أحدهم سيرافقها في هذه المغامرة. السفر إلى ذلك الحدّ القصي، يستدعي تذكرة لا بُدّ من أنّها ثمنها يعادل ثروة!

أدرك سبب إعجابه الشديد بأمستردام؛ هو لم يكن فيها وحيداً. لم يكن مضطراً إلى مقاربة أيّ يكن، منذ وصوله، التقى إحداهنّ، وأحبّ لو أمكنه استكشاف كلّ ما يجب استكشافه برفقته. كان من المبالغة القول إنّّه بدأ يقع في غرامها، لكن كان لكارلا من الطبع ما عشقه، فقد عرفت بالضبط مرادها.

لكن، ماذا عنه؟ هل يريد الذهاب إلى نيبال مع فتاة شَعَرَ أنّه، رغماً

عنه، مجبرًا على السهر عليها وحمايتها؟ هذا ما أنشأه عليه والده. كان ذلك فوق إمكاناته المادية. عرف أن عليه مغادرة هذه المدينة الأخاذة عاجلاً أم آجلاً، وأن وجهته التالية، إذا أجازتها الجمارك الإنجليزية، ستكون ميدان البيكاديللي، وكل الناس الذين أموه من العالم أجمع.

كانت كارلا لا تزال تتحدث إلى صديقتها، في الوقت الذي ادعى فيه باولو اهتمامه بالأغاني التي كانت تصدح في الأسفل، أغاني سايمون وغارفانكل، البيتلز، جايمس تايلور، سانتانا، كارلي سايمون، جو كوكر، بي بي كينغ، كريدنس كلرووتر ريفايفل، بالمختصر، لائحة طويلة كانت تكبر كل شهر، كل يوم، كل ساعة.

كان الثنائي البرازيلي الذي التقاه عصر اليوم خيارًا قائمًا دومًا، أمكن أن يفتح له أبوابًا أخرى على أشخاص آخرين. لكن هل كان بإمكانه أن يترك هذه الفتاة تخرج من حياته بالسرعة التي دخلتها؟

تناهت إليه أنغام الوتر المألوفة من أغنية لفرقة «أنيملز»، وتذكر أنه طلب إلى كارلا أن تصطحبه إلى «بيت الشمس الشارقة». كانت نهاية الأغنية مروعة، فهم تمامًا معنى كلماتها، غير أنه إلى الخطر كان منجذبًا وبه مفتتنًا.

[...] في صرف حياتهم أئمين بانسين

في بيت الشمس الشارقة

شرحت كارلا لويلما أن الفكرة راودتها على حين غرة.

- لحسن الحظ أنك نجحت في كبح جماحك. لَكُنْتُ أفسدت كل

شيء.

— إلى نيبال؟

— صحيح. سوف أشيخ يوماً ما وأغدو بدينة، ويكون لي زوج غيور وأولاد سيمنعونني من الاعتناء بنفسي، سيكون لي عمل مكتبي أكرّر فيه الأمر نفسه كل يوم، وسيُفضي بي إلى تعود هذه الرتابة، هذه الراحة، تعود مكان سكّني. يُمكنني دوماً أن أرجع إلى روتردام. يُمكنني دوماً أن أستفيد من منافع ضمان البطالة أو من الضمان الاجتماعي، التي يوفرها لنا بلدنا. يُمكنني حتّى أن أصبح رئيسة شركة shell أو Philips أو Heineken، لأنّني هولندية، وهم لا يثقون إلّا بالهولنديين. لكن نيبال، فإما أن أزورها اليوم وإما لن أزورها أبداً، أنا أصلاً بدأت أشيخ.

— في الثالثة والعشرين من العمر؟

— تمضي السنوات أسرع ممّا تظنّين يا ويلما. وانصحك بأن تحذري حذوي. جازي الآن مادمت تتمتعين بالصحة والشجاعة. نحنا متفقتان على أن أمستردام مكان مضجر حتى الموت، لكننا نراها هكذا لأننا ألفناها. اليوم، عندما رأيت هذا البرازيلي وشدة البريق في عينيه، اكتشفت أنّي أنا المضجرة حتى الموت. أنّي لم أعد أرى جمال الحزبة لأنّني ألفتها.

رمت بنظرة على باولو، ورائته يُصغي إلى أغنية Stand by Me
مغمض العينين. تابعت قائلة،

— لذا علي أن أستعيد الجمال، حسبي الجمال. فأنا على يقين بأنّني، متى غدت يوماً، سوف يظل هناك الكثير لأراه وأحياء. أين يذهب قلبي، ما لم أتعرف كل هذه الدروب؟ أين ستكون وجهتي التالية، إذا لم أكن أرحل من هنا كما ينبغي؟ أيّ هضاب سيُفضي بي الأمر إلى تسلّقها، ما لم أرّ الحبل أمامي؟ جنّت من روتردام إلى أمستردام لهذا السبب. حاولت

أن أقترح على عددٍ من الرجال أن يتخذوا دروبًا غير موجودة، أن يصعدوا
مراكب لا ترسو عند أي مرفأ، أن يرتفعوا إلى سماء بلا حدود، لكنهم
رفضوا جميعًا، كلهم استهابوني أو استهابوا الوجهة المجهولة، إلى أن حلَّ
عصر اليوم والتفتيت البرازيلي. ومن دون أن يأخذ رأيي في الحسبان، تبع
الهاري كريشنا في الشارع، غنى ورقص معهم. أردتُ أن أفعل مثله، لكن
همني في أن أبدو امرأة قوية في نظره منعني من ذلك. الآن، اكتفيتُ من
الظنون.

لم تستوعب ويلما بعد لم اختارت نيبال تحديدًا ولا كيف ساعد
باولو كارلا.

— عندما وصلت، وذكرْتُ نيبال، شعرت بأن ما قلته كان عين
الصواب. لاحظتُ أنه فوجئ كما ارتاع في أن. لا بد أنها الإلهة من ألهمتني
على نطق تلك الكلمات. قلقي الآن أخف مما كان صباحًا، أو مما كان
طوال الأسبوع، عندما رحت أشك في قدرتي على تحقيق هذا الحلم.

— أيرودك هذا الحلم منذ وقت طويل؟

— لا. بدأ الأمر باقتطاعي إعلانًا من صحيفة بديلة. مذاك وهو يلزم
ذهني.

كانت ويلما ستسألها إن كانت قد دُخنت الكثير من الحشيشة اليوم،
غير أن باولو دنا منهما.

سأل: — ألن نرقص؟

أمسكت كارلا بيده، وهبطا معًا إلى الصحن الرئيسي. ظلت ويلما
متسمة في مكانها لا تدري ما تفعل. لكن لم يدم ذلك، فما إن ستشاهد
وحدها، حتى يقرب منها أحدهم ليحادثها. فهنا الجميع كانوا يحادثون
الجميع.

عندهما خرجا إلى رذاذ المطر الساكن، كانت آذانهما تطنّ من
الموسيقا. اضطرّا إلى الصراخ ليتحدّثا.

— ستكونين في المحيط غدًا؟

— سأكون حيث رأيتني للمرّة الأولى. بعد ذلك، عليّ أن أذهب لشراء
تذكرة الباص إلى نيبال.

نيبال، من جديد؟ تذكرة باص؟

أضافت كما لو أنّها تسديه خدمة كبيرة: — رافقني إذا أردت، لكن
قبل ذلك، أودّ اصطحابك في نزهة خارج أمستردام. هل سبق أن رأيت
طاحونة هواء؟

ضحكت على سؤالها. فهكنا تصوّر العالم أجمع بلادها؛ قباقيب،
طواحين هواء، أنبار، ومومسات خلف الواجهاات.

أجاب باولو: — موعدا في المكان نفسه.

انتابه قليل من القلق وقليل من السرور. فهذه الفتاة، آية من الجمال
بشعرها المسّرح جينًا والزّين بالزهر، بتنوّرتها الطويلة، بصداها المطرز
بقطع مرايا صغيرة، بعطرها ذي رائحة الباتشولي، هذه الآية من شعرها
إلى قدميها، رغبت في أن تراه مجددًا.

تابع: — سأكون هناك قرابة الواحدة بعد الظهر. أحتاج إلى النوم

قليلاً. لكن ألم يكن من المفترض أن نذهب إلى بيت من بيوت الشمس
الشارقة؟

— قلت لك إنني سوف أريك أحدها، بلى سوف أذهب معك.

قطعا مسافة تقلّ عن مثني متر، ووصلا إلى زقاق، حيث توقفا أمام
باب لم يحمل لافتة، ولم تنبعث منه موسيقا.

— إليك بهذا البيت. أودّ أن أقترح عليك اقتراحين.

خطر لها أن تستخدم كلمة «نصيحة»، لكنها ربما كانت الخيار
الأسوأ على الإطلاق. تابعت:

— احذر أن تحمل شيئا عندما تغادر. قد لا ترى الشرطة، لكن لا بدّ من
أنها خلف تلك النوافذ، تراقب كلّ من يزور هذا المكان. في العادة، يفتشون
كلّ من يخرج. ومن خرج وفي حوزته شيء يذهب مباشرة إلى السجن.
أوما باولو برأسه إشارة على استيعابه قولها، وسأل عن الاقتراح الثاني.
— لا تجزّب شيئا.

طبعتم من ثمّ قبلة على شفّتيه، قبلة بريئة حملت كثيرا من
الوعود لكن لم تُفصح عن شيء. استدارت، وهمت بالعودة إلى النزل. بقي
باولو وحده يسأل نفسه إن كان ينبغي له اجتياز العتبة أو لا. ربّما كان
من الأفضل أن يعود إلى النزل، ويشرع في وضع النجوم المعدنية التي اشتراها
عصر اليوم على سترته.

لكن تملكه الفضول، وتوجّه إلى الباب.

كان الرواق ضيقاً خفيض السقف وخافت الإضاءة. وقف عند آخره رجل حليق الرأس بدا أنه خبير بالطرائق البوليسية من بلد ما. صوب الرجل نظره نحو باولو، أخفضه وصعده. كانت تلك القراءة الجسدية، الشهيرة التي تتيج تقييم نيات الشخص المائل أمامك ودرجة انفعاله العصبي ووضع المادي ومهنته. سألته إن كان يملك مالا للإنفاق. نعم، كان لديه مال للإنفاق، لكنه لم يفكر في إشهاره كما فعل عند الجمارك. خالج الشك الرجل لثانية، ثم أذن له بالمرور. فهو لا يعقل أن يكون سائحاً، السياح لا يكثرثون لهذا.

كان ثمة أشخاص مستقلقون على فرش تناثرت على الأرض، وآخرون أسندوا ظهورهم إلى الجدران المطلية بالأحمر. ما الذي جاء به إلى هنا؟ الأرضي فضولاً سقيماً؟

خلا المكان من أي حديث وأي موسيقا. كان فضوله السقيم محصوراً بما رآه، الألق نفسه في عيون الجميع، أو بالأحرى غياب الألق عنها. حاول تبادل أطراف الحديث مع فتى بعمره، هزيل القوام، مجرد من قميصه، لطخت جلده بقع حمراء عدة، كانت أشبه بلسعات حشرة حُكَّت حتى احمرت والتهبت.

دخل رجل آخر. بدا أنه يكبر بعشر سنوات معظم الشبان في الخارج. لكن لا بد من أنه يقرب من عمر باولو. كان، في تلك اللحظة على الأقل،

الوحيد الصاحي بين الحاضرين. بعد قليل، سيدخل كونا آخر، لذا اقرب منه باولو ليرى إن كان بإمكانه أن يستقي منه شيئاً، ولو جملة بسيطة للكتاب الذي كان ينوي تأليفه يوماً. كان حلمه أن يصبح كاتباً، وقد دفع ثمناً باهظاً لاختياره هذه الدرب الهامشية، من إبداعه مستشفى الأمراض النفسية غير مرة، والسجن، والتعذيب، واستحالة لقاء حبيبته المراهقة، التي نهتها أمها عن الاقتراب منه، وازدراء رفاقه عندما راح يرتدي ملابس مختلفة النمط.

وكذلك انتقامه، حسد الكل له عندما التقى حبيبته الأولى الجميلة والثرية، وعندما راح يطوف العالم.

لكن لم يفكر بنفسه فقط في جو على هذا القدر من الانكفاء؟ لأنه أحس بالحاجة إلى التكلّم مع أحدهم. جلس إلى جانب الشاب الأكبر سناً. رآه يخرج ملعقة ملوثة اليد وإبرة بدا أنها قد استعملت مراراً. — أودّ...

نهض الشاب ليبدّل مكانه، لكنّه تسمر عندما أخرج باولو ما يعادل ثلاثة دولارات أو أربعة من جيبه، ووضعها على الأرض إلى جانب اللعقة. نظر إليه مدهوشاً.

— أنت شرطي؟

— لا، لست شرطياً، لست هولندياً حتّى. أودّ فقط...

— صحافي؟

— لا. أنا كاتب. لهذا أنا هنا

— ما الكتب التي ألفتها؟

— لَمْ أُولَفْ أَيَّ كِتَابٍ. عَلَيَّ أَنْ أُجْرِيَ بِحُورًا أَوَّلًا.

نظر الشاب إلى المال المطروح أرضًا، ثم إلى باولو. تجاذبته الظنون بأن
فتى يافعًا إلى هذه الدرجة، لديه القدرة على كتابة أي شيء، باستثناء
الكتابة للصحف التي شكّلت جزءًا من «البريد الخفي». مدّ يده إلى المال، غير
أن باولو أوقفه.

— خمس دقائق فقط. خمس دقائق لا أكثر.

وافق الآخر الأكبر سنًا، لم يقدم إليه شخص من قبل، ولو قرشًا
مقابل وقته، منذ أن ترك عمله التنفيذي الواعد في مصرف متعدّد
الجنسيّات، بعد أن حُزب «قُبلة الإبرة» للمرة الأولى.

— قُبلة الإبرة؟

— صحيح. نشكّ أنفسنا مرّات عدّة قبل أن نحقن الهيرويين: ما تسمّونه
«الألم» هو في نظرنا تمهيد للقاء شيء لن تفهموه يومًا.

كانا بتهامسان لئلا يجذبنا انتباه الآخرين، رغم معرفة باولو
أنّه حتّى ولو سقطت قنبلة ذريّة على هذا المكان، لن يتكبّد أحد عناء
الفرار.

أضاف الشاب قبل أن يتابع: — لا يُمكنك أن تذكر اسمي.

بدأ الشاب الأكبر سنًا ينفرج، والدقائق الخمس تمرّ بسرعة. استشعر
باولو وجود الشيطان في هذا البيت.

— إذن؟ ما هو هذا الإحساس؟

— إحساس هو أعجز من أن يوصف. يجب أن يُجرّب. أو عليك أن
تصدّق وصف «لو ريد، أو «فيلفت أندر غراوند، له.

Cause it makes me feel like I'm a man

When I put a spike in my vein^()*

سبق لباولو أن استمع إلى «لو ريد» لكن لم يكن هذا كافياً.

— حاول أن تصف، من فضلك. دقائقنا الخمس تمرّ بسرعة.

أخذ الشاب نفساً عميقاً. أبقى عيناً على باولو وعيناً على الإبرة. عليه أن يجيب هذا «الكاتب المتطاوّل بأسرع ما يمكن قبل أن يُطرد من البيت، أخذاً معه ماله.

— اظنّ أنّ لديك بعض الخبرة مع المخدرات. أنا أعرف أنّ الحشيشة والماريوانا تولّدان السلام، الانسراح، الثقة بالذات، الرغبة في الأكل، ممارسة الحب. لا أبالي بكلّ هذا، فهو جزء من حياة علمونا عيشها. تُدخّن الحشيشة وتقول لنفسك: «العالم جميل، ها أنا أنتبه للأمور أخيراً»، لكن بحسب الجرعة، ينتهي بك الأمر إلى ارتحالات تهوي بك إلى الجحيم. تتناول مخدّر LSD وتقول لنفسك: «ربّي! كيف لم ألاحظ كلّ هذا من قبل؟ كيف لم ألاحظ أنّ الأرض تتنفّس والألوان تتبدّل بتبدّل اللحظة؟»، أهذا ما تريد معرفته؟

نعم كان هذا ما أراد معرفته. لكنّه ترك الشاب الأكبر سنّاً يُكمل.

— الأمر مختلف تماماً مع الهيرويين: يسعك التحكم بكلّ شيء، بجسمك، بعقلك، بروحك، بفنك. ونعم الكون كلّهُ غبطة عارمة لا توصف. يسوع على الأرض. كريسنا في العروق. بوذا المبتسم لك من السماء. لا هلوسات. كلّهُ حقيقة، حقيقة صُرف. أتصدّقني؟

(*) فمتى حققت عروقي، شعرت بأنني رجل.

لا، هو لا يصدّقه لكنّه لم ينطق بكلمة واكتفى بإيماء رأسه.

— في اليوم التالي، لا تشعر بأيّ صداع من أثر المخدّر، تشعر فقط بأنك ذهبت إلى الجنّة وعُدت إلى هذا العالم القدر. تذهب إلى العمل وتترك أن كلّ شيء كذبة، والناس يحاولون أن يبرزوا حياتهم، أن يظهروا مهمّين، أن يضعوا العراقيل، لأنّها تمدهم بشعور من السلطة، من النفوذ. وتعجز أكثر فأكثر عن تحمّل كلّ هذا الخبث، وتقرّر أن ترجع إلى الجنّة، لكنّ الجنّة مكلفة، وبابها ضيق. من يعبره يكتشف أنّ الحياة حلوة، أنّ الشمس بوسعها أن تنشطر فعلاً إلى إشعاعات، وتكفّ عن كونها تلك الكرة المدوّرة المملّة التي لا يسعنا حتّى النظر إليها مباشرة. وفي اليوم التالي، ترجع إلى العمل في قطار يعجّ بالناس ذوي النظرات الخاوية، أكثر خواءً من كلّ عيون هؤلاء الناس هنا. يُفكّر الجميع في العودة إلى المنزل، في إعداد العشاء، في تشغيل التلفاز، في الهروب من الواقع. لكن يا رجل: الواقع هو هذا المسحوق الأبيض، لا التلفاز!

كلّما استرسل الشاب الأكبر سنّاً في الكلام، تعاظم شعور باولو بغواية أن يجزّب المخدّر مرّة، ولو مرّة فقط. وادرك الآخر ذلك جيّداً.

— الحشيشة، أعرف أن ثمة عالماً لا أنتمي إليه، شأنه شأن LSD. لكنّ الهيرويين، يا رجل، الهيرويين أنا. بفضلها تستحقّ الحياة أن تُعاش، بمعزل عما يقال في الخارج. ثمة مشكلة واحدة فقط...

لحسن الحظّ أن ثمة مشكلة. أراد باولو معرفتها من فوره، لأنّه كان قيد أنملة من رأس الإبرة وتجربته الأولى مع الهيرويين.

— ... المشكلة أنّ الجسم يُنمّي القدرة على تحمّله. بدأت بتعاطي ما قيمته خمسة دولارات في اليوم. واليوم أحتاج إلى عشرين دولاراً لأبلغ الجنّة.

سبق أن بعث كل ما لدي، سيكون التسؤل في الشوارع الخطوة التالية. وبعد التسؤل سأكره على السرقة، لأن الشيطان لا يحب من عرفوا الجنة. أعرف ما سوف يحدث لي، لأنه حدث لكل من هم هنا اليوم. لكن، لا أهمية لذلك. يا للغرابة. لكل امرئ منظوره للبوابة المفضية إلى الجنة.

— اعتقد أن الدقائق الخمس قد انقضت.

— نعم، أحسنت الشرح جيداً وأشكرك على ذلك.

— عندما تضمّن كتابك ما أفضيت به، لا تفعل كغيرك ممن يهدرون حياتهم في إدانة ما لا يفهمونه. كن صادقاً. املأ الفراغات بخيالك. وإذا انتهى الحديث، لزم باولو مكانه. لم يُزعج ذلك الشاب الأكبر سناً على ما يبدو. حشر المال في جيبه، وفكر: بما أن باولو قد دفع له، فإن له الحق في المشاهدة.

وضع قليلاً من المسحوق الأبيض والماء على اللعقة اللوئية البید، وسخن أسفلها بلهب قنّاحته. شيئاً فشيئاً، أخذ الخليط يتحوّل إلى سائل ويفور. طلب إلى باولو مساعدته على لفّ الرقاقة لكي ينفر العرق تحت الجلد.

— لم يعد لدى البعض مكان في ساعد البید، لذلك أصبحوا يشكّون أنفسهم في القدم أو ظاهر البید. أما أنا، فبفضل الله، لا تزال الدرب طويلة أمامي.

ملأ الحُقنة بالسائل، وكما سبق أن شرح تماماً في بداية كلامه، غرز الإبرة مرّات عدّة، مُستبقاً لحظة فتح البوابة الشهيرة. أخيراً، حقن نفسه بالجرعة. وتحوّل القلق إلى بهجة صافية في عينيه اللتين فقدتا كلّ الق بعد مدة راوحت بين خمس دقائق وعشر، وراحتا تحدّقان إلى نقطة ما في الفضاء، حيث طاف بوذا وكريشنا ويسوع على حدّ زعمه.

نهض باولو، وتوجه إلى المخرج، خطأ بكلّ تؤدة فوق الشباب الراهقين على الفرش المتسخة. غير أنّ الحارس الحليق الشعر وقف في وجهه.

— وصلت من فورك، وتخرج الآن؟

— نعم. لا أملك مالاً.

— أنت كاذب. رآك أحدهم تدسّ بعض الدولارات إلى تيد (لا بدّ أنّه اسم الشاب الأكبر سنّاً الذي حادثه). هل جئت تبحث عن زبائن جدد؟

— أبداً. لم أحادث سوى شخص واحد، ويُمكنك أن تسأله لاحقاً عمّا دار حديثنا.

حاول باولو المرور من جديد، غير أنّ المارد منعه بجسمه. راح القلق يتسلّل إليه، رغم معرفته أنّ مكروهاً لن يصيبه، فقد قالت كارلا إن الشرطة في الخارج، عند النوافذ، تُبقي عينها على المكان.

اضاف المتنمر، مُشيراً إلى باب في آخر الصالون: «يودّ صديق لي محادثتك. كان واضحاً من نبرته أنّ لا مجال أمام باولو سوى الإذعان. لعلّ قصّة الشرطة مجرّد خيال ابتكرته كارلا لنلّا يقلق.

وإذ وجد أنّ لا خيار أمامه حقّاً، توجه نحو الباب المشار إليه. وقبل أن يبلغه، انفتح على رجلٍ بلباس رزين، له تسريحة شعر ألفيس برسلي وسالفيه. طلب إليه الرجل بموّد أنّ يدخل ويجلس.

لم يكن المكتب يُشبه بشيء ما تعود باولو رؤيته في الأفلام السينمائية، فتيات مغريات، شامبانيا، أشخاص يضعون نظارات معتمة مدخجون بالسلاح من العيار الثقيل. على العكس، كانت الغرفة بسيطة: بعض اللوحات المقلّدة الرخيصة الثمن معلّقة على الجدران المطلية بالأبيض، وهاتف فحسب على طاولة المكتب. وتماماً خلف المكتب، خلف قطعة الأثاث العتيقة هذه لكن المحفوظة جيّداً، علّقت صورة ضخمة.

قال باولو من دون أن يدرك أنه تكلم بلغته الأم، - برج بيليم.

أجاب الرجل بالبرتغالية أيضاً، - بالضبط. فمنه انطلقنا لغزو العالم.

أترغب في شرب شيء؟

- لا، شكرًا. لم يكن قلبه قد سَكَن بعد.

تابع الرجل: - حسنًا، أتصوّر أنك شخص مشغول. أنت تلك الجملة خارج السياق، لكنها أفصحت مع ذلك عن لطف. وأكمل: - لاحظنا أنك دخلت، وها أنت تغادر، بعد محادثة زبون واحد فقط من زبائننا، ولا تبدو عليك هيئة شرطي سري، بل شخص، بلغ هذه المدينة، بعد جهد جاهد، للاستمتاع بكل ما تقدّمه.

ظلّ باولو ساكتًا.

- ولم تبدِ كذلك أيّ اهتمام بالمادّة الممتازة التي نعرضها هنا. هل يُمانع أن تُريني جواز سفرك؟

بالطبع كان يُمانع، لكن كيف له أن يرفض؟ دَسَ يده في الحفظة المشدودة إلى حزامه، أخرج منها الجواز، ومدّه به إلى مخاطبه، ونَدِمَ على ذلك من فوره، ماذا لو أبقاه الرجل بحوزته؟

غير أن الرجل الغامض قلب صفحات الجواز فقط، ابتسم، وأعادها إليه.

- آه. قليل من البلدان فقط. عظيم. البيرو، بوليفيا، تشيلي، الأرجنتين،

إيطاليا، وهولندا، طبعًا. أتصوّر أنك عبرت الحدود بلا أي مشكلة.

- بلا أي مشكلة.

- وإلى أين ستذهب الآن؟

- إلى إنجلترا.

كانت تلك الإجابة الوحيدة التي خطرت له، مع أنه لم يكن في نيته
قط أن يحدّد لهذا الرجل مساره الكامل.

— أودّ اقتراح عرض عليك. عليّ نقل بضاعة، تعرف نوعها على ما
أحسب، إلى دوسلدروف في ألمانيا. كيلوغرامان فقط، يمكن تخبئتهما
بسهولة تحت قميصك. سوف نشري لك كنزة أكبر بالطبع. الجميع
يرتدون كنزات في الشتاء. في المناسبة، لن تسعفك سرتك هذه طويلاً،
فالخريف على الأبواب.

اكتفى باولو بالإصغاء إلى العرض.

— سوف ندفع لك خمسة آلاف دولار، ألفين وخمسمئة في أمستردام
والألفين وخمسمئة بعد تسليمك البضاعة لموردنا في ألمانيا. لن يكون أمامك
سوى حدود واحدة تعبرها. وستكون إقامتك في إنجلترا مريحة أكثر بلا
أدنى شك. هناك العملاء الجمركيون متشدّدون جداً في العادة؛ بالمبدأ،
يسألون السائح، عن مقدار المال الذي بجوزته.

لم يصدّق ما بلغ سمعه. كان الأمر مغرياً جداً. سيسمح له مبلغ
مماثل بالسفر لمدة سنتين.

— احتاج فقط إلى ردّ منك في أسرع وقت ممكن. والأمثل أن يأتيني في
الغد. اتصل من فضلك عند الرابعة بعد الظهر على رقم الهاتف العمومي
هذا.

أخذ باولو البطاقة التي مدّ بها إليه. كان الرقم عليها مطبوعاً. لا بدّ
من أنهم يشهدون ازدهاراً في تسليم البضائع، أو أنهم يخشون أن تفضحهم
خطوط أيديهم عبر تحليلها.

— أرجو العذرة، عليّ العودة إلى العمل. شكراً جزيلاً على قدومك إلى

مكتبي المتواضع. كل ما أفعله، هو إتاحة الفرصة للناس كي يعرفوا السعادة.

نهض الرجل، وفتح الباب، ووطأ باولو مجدداً الغرفة التي اتكأ الناس على جدرانها، أو استلقوا على الفرش القذرة. مرّ بالحارس، الذي ابتسم له هذه المرة ابتسامة معرفة.

خرج إلى رذاذ المطر، سائلاً الله أن يعينه، أن ينوره، ألا يتركه في هذه اللحظة.

كان في حيّ يجهله من المدينة، لم يعرف سبيل العودة إلى وسطها، لم يكن معه خارطة، لم يكن معه أي شيء. تستطيع سيارة الأجرة، بالطبع أن تحل المشكلة في حالات الطوارئ، لكنّه شعر بالحاجة إلى المشي تحت هذا الرذاذ، الذي تحوّل سريعاً إلى زخات بدت أنّها لم تغسل شيئاً، لا الهواء من حوله، ولا ذهنه الذي استحوذت عليه الدولارات الخمسة آلاف.

سأل كيف يمكنه بلوغ ساحة «دام»، غير أنّ الناس عبروه، هو مجرد هيبّي آخر حطّ هنا وعجز عن اللحاق بقومه. أخيراً، قام «سامريّ صالح»، رجل عند مكشكك صحف كان يفرد صحف اليوم التالي، ببيعه خارطة، وأشار إلى الاتجاه الذي عليه أن يسلكه.

وصل إلى النزل، أضاء البوّاب الليلي مصباحه الخاص الذي يُستخدم للتحقّق من أن النزيل قد دفع أجرة اليوم، كان الختم ختماً لامرئياً يُطبع دوماً على الجلد قبل الخروج. غير أنّ ختمه كان من أمس. فقد صرف أربعاً وعشرين ساعة في الخارج بدت أزليّة. توجب عليه دفع أجرة ليلة إضافية. قال للبوّاب: أرجوك، لا تضع الختم الآن، عليّ أن أستحمّ، عليّ أن أغتسل، أنا قذر بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وافق البواب شرط أن يعود بعد نصف ساعة كحد أقصى، لأنّ نوبته ستنتهي بحلول ذلك الوقت. دخل باولو إلى الحمام المختلط، كان الجميع يتحادثون بصوت عالٍ، ثمّ عاد إلى غرفته. أخذ البطاقة التي تحمل رقم الهاتف ورجع إلى الحمام عارياً، والبطاقة في يده. كان تمزيقها أوّل ما فعله، قطعها إرباً، بلأها بحيث يستحيل جمعها، ورماها على الأرض. تذمّر أحدهم قائلاً: لا يجوز رمي الأشياء على الأرض، عليك باستخدام سلة المهملات الموضوعة تحت المغسل. توقف آخرون وقد تفرّست عيونهم هذا الهمجي الذي لا يعرف كيفية احترام المكان. لم ينظر إليهم باولو ولم يبرّر تصرّفه، اكتفى بالإذعان، هو الذي لم يدعّن لأحد منذ وقت طويل.

بعد ذلك، رجع إلى الحمام وشعر بالطمأنينة. أمكن له أن يعود متى شاء إلى بيت الشمس الشارقة، والحصول على الرقم من جديد، لكنّه عرف أنّه سيمنع من الدخول. اتته الفرصة وأضاعها.

ومنحه ذلك سروراً عظيماً.

تمدّد على السرير. فقد رحلت شياطينه الآن. علّم ذلك علم اليقين، تلك الشياطين التي توقّعت أن يقبل عرضها لكي تأتي باعيان جدد إلى مملكتها. استسحف التفكير هكذا. ففي النهاية، يمكن القول إن المخدرات قد مُنحت في الأساس طابعاً شيطانياً. لكن في هذه الحالة، بدا الناس على حقّ. كان تفكيره سخيلاً فعلاً، فهو الذي طالما دافع عنها على أنّها نوع من مضخّات الوعي، تمنّى الآن أن تحظر الشرطة الهولندية تلك البيوت، وأن توقف كلّ من يديرونها وتبعدهم أقصى ما يمكن عن أولئك الذين أرادوا السلام والحب فقط في العالم.

وإذ لم يطمئنّ جنبه إلى نوم، راح يحدث الله، أو ملاكاً. توجه إلى

الخزانة حيث وضع أغراضه. نزع المفتاح الذي علّقه في عنقه، وأخذ دفترًا أحب أن يخطّ فيه بعضًا من الخواطر والتجارب. مع ذلك، لم يكن في نيّته أن ينسخ كلّ ما رواه له تيد. فهو، على الأرجح، لن يكتب عن الموضوع مستقبلاً. خربش الكلمات القليلة التي تصوّر أن الله أملاها عليه:

لا فرق أبداً بين يَمّ وموج،

عندما تتشكّل الموجة، فمن ماء تكون،

وعندما تتكسر عند الرمل، من الماء نفسه تكون.

قل لي يا ربّي: لِمَ هما سيّان؟ أين الغموض والنهاية؟

يجيبه الربّ، كلّ الأشياء وكلّ الناس سواء، هذا هو

الغموض والنهاية.

عندها وصلت كارلا، كان باولو هناك. كان الاسوداد تحت عينيه شديداً، كما لو أنه ظلّ ساهداً طول الليل أو أنه.... فضلت ألا تفكر في الاحتمال الثاني، الذي عنى أنها لن تتمكن من الوثوق به بعد الآن. وقد سبق لها أن تعوّدت حضوره ورائحته.

— إذن، فلنذهب لرؤية طاحونة هواء، أحد المعالم الهولندية

نهض على مهل، وتبعها بصمت. أقلهما الباص متوجّهاً خارج أمستردام. أشارت إليه بضرورة شراء بطاقة، فتمة آلة مثبتة في الحافلة، لكنّه أثر تجاهل تحذيرها. هو لم ينم جيداً، كان تعباً من كلّ شيء، ويحتاج إلى استعادة طاقته. أحسّ أن قوته ترجع إليه شيئاً فشيئاً.

كان المنظر الطبيعي واحداً: سهول شاسعة تقطعها حواجز صخرية وجسور متحركة ترتفع على قنوات تمرّ بها مراكب لنقل البضائع إلى مكان ما. لم تُلح أمامه أيّ طواحين هواء، لكنّه النهار، والشمس قد سطعت من جديد، واقع نادر حتّ كارلا على التعليق عليه: ففي هولندا، ينهمر المطر دوماً.

قال باولو: «كتبْتُ شيئاً أمس». وسحب الدفتر من جيبه وقرأ ما كتبه بصوت مسموع. لم تعلق سلباً أو إيجاباً.

— أين البحر؟

— كان البحر هنا. يقول مثل قديم: «صنع الله العالم وصنع الهولنديون هولندا». لكنّ البحر بعيد من هنا، لا يُمكننا أن نراه ونرى الطاحونة في اليوم نفسه.

— لا. لا أريد رؤية البحر. ولا طاحونة الهواء. وهي شيء أتصور أنه
يدهش السياح، فانا لا أسافر لهذا الهدف، لا بُدَّ أنَّكَ تدركين ذلك.
ولمَ لم تقل هذا من قبل؟ سنمُت من اتِّخاذ الطريق القديمة نفسها
دوماً لكي أرى أصدقائي الأجانب شيئاً لم يعد يخدم وظيفته الأساسية
حتى. بمقدورنا أن نلأزم المدينة.
.... والذهاب حالاً إلى نقطة بيع تذاكر الباص. هكذا فُكِّرَت في سرَّها.
لكنها احتفظت بتلك الفكرة لنفسها. كان عليها أن تتحقَّن اللحظة المناسبة
لتلقي الطعم في الماء.

— لم أقل شيئاً آنذاك لأنني....

.... ورغماً عنه، افلُتت منه قِصَّة بيت الشمس الشارقة كلها.
أنصبت ككارلا، وقد شعرت بالارتياح والقلق في آن. أكان ردُّ فعله
متطرفاً؟ أكان باولو من النوع الذي ينتقل من الانسراح إلى الكآبة والعكس؟
عندما فرغ من روايته، شعر بحالٍ أحسن. استمعت إليه الفتاة بصمت
من دون أن تُدينه. من الواضح أنَّها لم تر أنه قد أضاع خمسة آلاف دولار
برميها في سلة مهملات الحمام. ولم تعدَّه ضعيفاً. وهذا بحدِّ ذاته جعله
يشعر أنه أقوى.

وصلاً أخيراً إلى طاحونة الهواء، حيث استمعت مجموعة من السياح
إلى مُرشد، «تقع الطاحونة الأقدم في..... (اسم يصعب لفظه)، وتقع
الأعلى ارتفاعاً في..... (اسم آخر يصعب لفظه)». استُخدمت هذه الطواحين
لجرش الذرة، وبذور القهوة، وحبوب الكاكاو، ولإنتاج الزيت. وساعدت
مُستكشفينا على تحويل الألواح الخشبيَّة الكبيرة إلى سفن تمكُّنا بفضلها
من بلوغ أماكن قصيَّة، وتوسيع الإمبراطوريَّة.....

تناهى إلى باولو صوت محرك الباص يُشغَل. أمسك بيد كارلا

وناشدها الإسراع في العودة إلى المدينة على متن الباص نفسه. ففي غضون يومين، لن يتذكر لا هو ولا السياح ما كانت جدوى طاحونة الهواء. هو لم يسافر هذه المسافة كلها ليتعلم هذا النوع من الأمور.

في طريق العودة، في إحدى المحطات، صعدت إلى الباص سيّدة، وضعت على ذراعها شارة كُتب عليها «جباية التذاكر». وراحت تتحقق من تذاكر الركّاب. عندما وصل الدور إلى باولو، أدارت كارلا وجهها إلى الناحية الأخرى.

قال: - لا أملك واحدة. اعتقدت أنّ الباص مجانيّ.

لا بُدّ من أن جابية التذاكر قد سمعت هذا النوع من الأعذار ملايين المرات، ذلك أنها رنّت بجواب جاء وكأنّه حفظ عن ظهر قلب أنّ هولندا سخية جداً لا محالة، لكن أصحاب الذكاء المتدنّي جداً وحدهم يحسبون أنّ وسائل النقل فيها مجانيّة.

- هل سبق أن رأيت هذا في مكان ما في العالم؟

- بالطبع لا. لكنّه لم ير كذلك.... لكنّه كارلا بساقها ليكفّ عن الجدل، فصمت. دفع جزاء فاق قيمة التذكرة عشرين مرّة، ورشقه الركّاب الآخرون بنظرات محمّلة بالبغض، هم الكالفيينيون، النزهاء، الذين يحترمون القانون، وليسوا ممّن يتردّدون على ساحة «دام» ومحيطها.

شعر باولو بالاستياء بعد أن ترخّلا من الباص. أكان يفرض وجوده على هذه الفتاة التي كانت ودودة كلّ الوقت رغم عزمها على نيل ما تريده؟ ألم يحن الوقت ليوذّعها ويدعها تذهب في سبيلها؟ هما بالكاد يعرف أحدهما الآخر، ومع هذا فقد صرفا من الوقت معاً أربعاً وعشرين ساعة ونيّفًا، وكان هذا الأمر أكثر الأمور طبيعية.

لا بُدّ من أن كارلا قد قرأت أفكاره، إذ دعتّه كي يرافقها إلى الوكالة، لشراء تذكرة الباص المتوجّه إلى نيبال.

تذكرة باص!

كانت تلك أكثر الأفكار جنونية التي أمكنه تصوّرها.

كانت الوكالة المزعومة عبارة عن مكتب صغير يعمل فيه موظف واحد عزّف بنفسه أنّه «لارس... فلان»، فكان اسم شهرته من تلك الأسماء التي يستعصي حفظها.

سألته كارلا عن موعد انطلاق «الباص السحري» التالي (هذا كان اسم الحافلة).

— في الغد. لم يبقَ من متّسع سوى لراكبين، وسوف يؤخذ المقعدان لا محالة. وإذا لم تحجزاهما، فسوف يوقفنا شخص ما في طريقنا ليركب معنا. حسنًا، أن لها الكفّ عن اللف والدوران.

— أليس من الخطر أن تسافر امرأة وحدها؟

— لا اعتقد أنّك ستبقيين وحدك لأكثر من يوم. فقبل وصولك إلى كاتماندو، ستكونين قد سلبت قلوب كل الركّاب الذكور. شأنك شأن كل المسافرين وحدهنّ.

من الغرابة أن كارلا لم يسبق لها قطّ أن فكّرت في هذا الاحتمال. هدرت وقتًا خيلاً تبحث عن رفيق درب وسط لفيّ من الفتيان المذعورين الذين لم يكونوا على استعداد سوى لاستكشاف ما سبق لهم معرفته، والذين حتّى أميركا اللاتينية شكّلت مصدر خطر لهم على الأرجح. راق لهم الادّعاء بأنهم أحرار ماداموا على مسافة آمنة من أمهاتهم. لاحظت كارلا أنّ باولو يجهد لإخفاء اضطرابه، وسرت لذلك.

— أودّ تذكّرك ذهاب. سافكر في العودة لاحقًا.

— إلى كاتماندو؟

في الواقع، كان الباص السحري يتوقّف عند عدد من المحطّات لنقل ركّابًا أو ينزلهم: ميونيخ، أثينا، اسطنبول، بغداد، طهران أو بغداد (بحسب الطريق السالكة).

— إلى كاتماندو.

— أوافقة أنك لا تريد أن استكشف الهند؟

لاحظ باولو أن كارلا ولارس يتغزلان. وإن يكن؟ هي لم تكن حبيبته، بل مجرد واحدة من معارفه الجدد، لطيفة بالتأكيد، لكنها حافظت على مسافة بينهما.

— ما ثمن التذكرة إلى كاتماندو؟

— سبعون دولارًا أميركيًا.

سبعون دولارًا للذهاب إلى الطرف الآخر من العالم؟ أي نوع من الباصات كان هذا؟ لم يصدق باولو ما سمعه.

أخرجت كارلا المال من حزامها، وقدمته إلى وكيل السفرات. ملأ لارس ذاك إيصالاً يشبه إيصال المطاعم، ولم يحدد فيه سوى اسم الشخص، ورقم جوازه، ووجهته النهائية. ثم ملأ قسمًا من الإيصال باختام لا طائل منها، لكنها أعطت التذكرة بعض الوقار. وقدمه إلى كارلا مع خارطة للطريق.

— لا يُستردّ المال إذا كانت الجمارك مغلقة، أو في حال وقوع الحوادث الطبيعية، أو النزاعات المسلحة على الدرب، أو أي حوادث من هذا النوع. فهمت ذلك تمامًا.

تدخل باولو مخترقًا صمته ورقاده: — ومتى ينطلق الباص السحري المقبل؟

— بحسب الظروف. فنحن لسنا خطّ نقل منتظمًا، كما لك أن تخمن. حملت نبرة لارس نفحة من العدائية، وتوجّه إلى باولو وكأنه أخرق. — أعلم ذلك جيدًا، لكنك لم تجبني عن سؤالي.

— من حيث المبدأ، إذا سار كل شيء على ما يرام، فلا بدّ من أن يرجع

كورتيز بباصه إلى هنا خلال أسبوعين. يرتاح بعض الوقت، وينطلق من جديد قبل نهاية الشهر. لكن لا يسعني أن أضمن أي شيء. فكورتيز، شأنه شأن كثير من سائقينا....

يخال المرء، إزاء استخدامه كلمة سائق بصيغة الجمع، أنها شركة كبيرة، وهو أمر قد نفاه منذ قليل.

— ... يُرهبون من اتخاذ الطريق نفسها على الدوام. وبما أنهم أصحاب مركباتهم، فإن من الممكن لكورتيز أن يختار الانطلاق باتجاه مراكش مثلاً، أو باتجاه كابول. هو يحدثني عنهما دوماً.

استأذنت كارلا وغادرت، وقد رمت السويدي بنظرة قاتلة.

قال لارس، رداً على مجاملة كارلا الصامتة: — لو لم أكن مشغولاً، لاصطحبتك بنفسى! وهكذا... لكننا تعارفنا بشكل أفضل...

من الواضح أنه لم ير وجوداً للرجل الذي رافق كارلا.

سوف تكون لنا فرص أخرى. لدى عودتي، يمكننا أن نتناول القهوة ونرى كيف سيتطور الأمر بيننا.

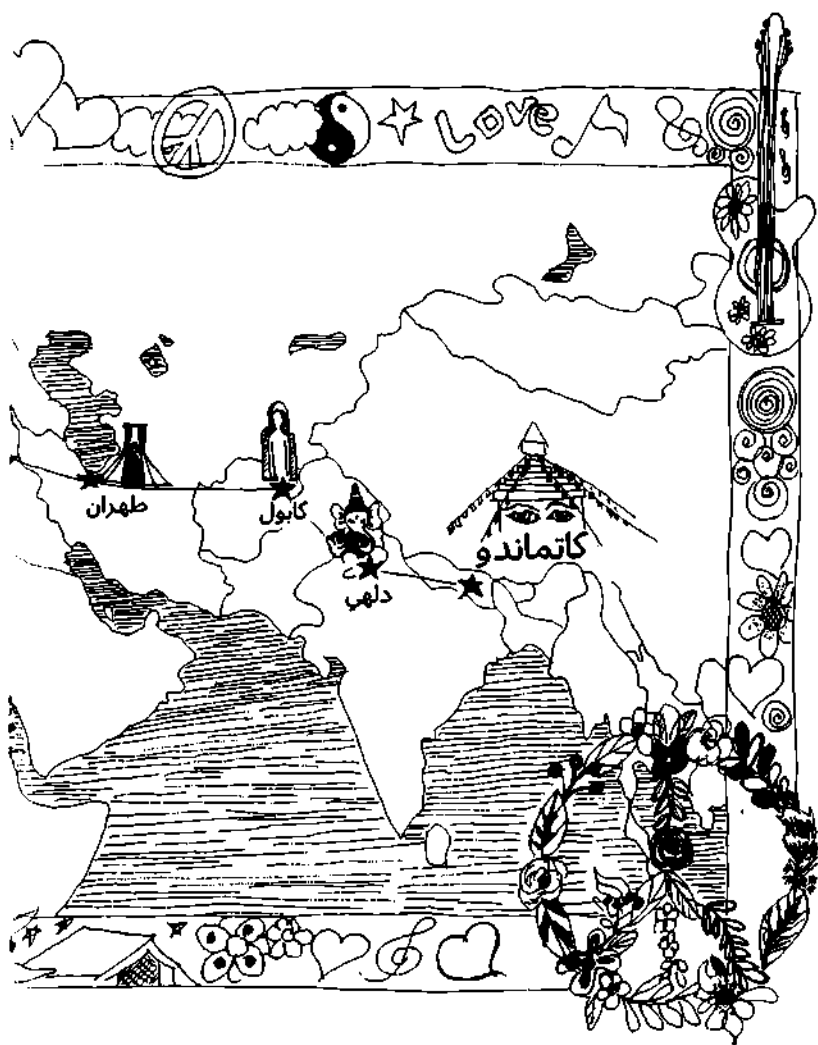
أضاف لارس، وقد بدّل نبرة صوته المتغترسة، وكأنه سيد العالم، الأمر الذي فاجأهما.

— من يبلغ النهاية، يُفَضُّ به الأمر إلى البقاء، لسنتين أو ثلاث على الأقل. في أي حال، هذا ما يقوله السائقون.

خطف؟ اعتداء؟

— على الإطلاق. تُلقَّب كاتماندو بـ «شانغريلا، أي وادي الجنة. لحظة يتعود المرء الارتفاع، يجد فيها كل ما يحتاج إليه في الحياة. ويُرجَّح أنه لن يرغب في العودة للعيش في المدينة.

وهو يقدم التذكرة إليها، زودها أيضاً بخارطة تشير إلى كل محطات التوقف.





- غداً عند الحادية عشرة تماماً، ينبغي للجميع أن يكونوا هنا. من يصل متأخراً، يفوته الباص.
- لكن اليس الوقت مبكراً قليلاً؟
- سوف يكون لديك الوقت كله للنوم في الباص.

كانت كارلا، التي امتازت بالعناد والإصرار، قد قرّرت أمس، بعد أن عاودت لقاء باولو في ساحة «دام» وفي خلال النزّهات اللاحقة، أن عليه الذهاب معها إلى نيبال. أحبّت رفقته، مع أنّهما لم يصرفا من الوقت معاً سوى أربع وعشرين ساعة ونيف. طابت لها فكرة أنّها لن تغرم أبداً بهذا البرازيلي، لكنّ امرأ غريباً راح يخالجها تجاهه، وعليها أن تتخلّص من شعورها في أسرع وقت. بالنسبة إليها، الوسيلة الفضلى تكمن في صرف الوقت مع شخص ما قبل أن يتبدّد سحره، في أقلّ من أسبوع.

إذا استمرّت الأمور على هذا النحو، وذهبت وحدها وتركت خلفها في أمستردام هذا الرجل الذي وجدته مثالياً، فسوف تُفسد ذكراه المتواصلة الرحلة. وإن واصلت تضخيم صورة هذا الرجل المثالي في ذهنها، فسوف تعود أدراجها في منتصف الدرب وينتهي بها الأمر إلى الزواج به، وهو أمر لم يندرج إطلاقاً ضمن مشروعاتها في هذه الحياة. أو أنّهما سيذهبان إلى بلاد بعيدة، غريبة، ممتلئة بالهنود، والأفاعي الزاحفة في طرقات مدنها الكبيرة (مع أنّها خالت في الواقع أنّ هذا الشقّ الأخير مجرّد أسطورة، على غرار الكثير من الحكايات التي شاعت عن بلادها).

كان باولو في نظرها مجرّد شخص مناسب في الوقت المناسب. لم يكن لديها أدنى نية في أن تُحوّل رحلتها إلى نيبال كابوساً، بأن ترفض عروض هذا أو ذاك. كانت عازمة على الرحيل. فهذه المغامرة تُعدّ الأكثر تهوؤاً، وتفوق حدودها كثيراً، هي التي كانت الحُدود شبه منتفية في نشاتها.

لن تتبع الهاري كريشنا أبداً في الشوارع، لن تنجز على غير هدى وراء أحد المعلمين الروحانيين الهنود الكثرين الذين التفتهم، والذين لم يجيدوا سوى تعليم الناس كيفية «إفراغ أذهانهم». كما لو أن ذهنًا فارغًا، فارغًا تمامًا، يسمح بالتقرب من الله. منذ أن عرفت تجاربها الأولى المحبطة في هذا السياق، آثرت أن تكون علاقتها مباشرة مع الخالق العظيم، الذي خشيته وعبدته في آن. كل ما همها كان العزلة والجمال، والتواصل المباشر مع الله، وأن تكون على مسافة آمنة بشكل خاص من عالم عرفته تمام المعرفة، ولم يعد يثير اهتمامها.

ألم تكن يافعة للتفكير والتصرف على هذا النحو؟ يمكنها أن تبدل رأيها لاحقًا متى شاءت، لكن كما قالت لويلما في المقهى *coffeeshop*، الجنة، كما رآها أهل الغرب، كانت سخيفة، ومتواترة، ومضجرة حتى الموت.

جلس باولو وكارلا على تراس مقهى كان يقدم القهوة والبسكوت فقط، وليس المنتجات التي تتوافر في المقاهي الأخرى. أدارا وجهيهما نحو الشمس. فقد حلّ يوم جميل آخر بعد ليل أمس الماطر، مدرّكين أنها بركة قد تختفي بين لحظة وأخرى. لم يتبادلا أي كلمة مذ غادرا، وكالة السفريات، بحجمها الصغير الذي أدهش حتى كارلا، التي توقعت أن تجد مكانًا أكثر مهنية.

— إذن... قد يكون هذا اليوم هو الأخير الذي نقضيه معًا. أنت ذاهبة إلى الشرق وأنا ذاهب إلى الغرب...

— ميدان «البيكاديللي». نعم أعرف، سوف تجد هناك نسخة عن كل ما رأيته هنا، الفرق الوحيد هو ما ستجده وسط الميدان. لكن من المؤكد أن تمثال إيروس فيها أجمل كثيرًا من الرمز القضيبى هنا في «دام».

لكن بعد المحادثة التي دارت في «وكالة السفريات»، ورغم جهل كارلا ذلك، كان باولو يستमित لمرافقتها، أو تحديدًا لاكتشاف أماكن لا نراها سوى مرة في العمر، وكل ذلك مقابل سبعين دولارًا فقط. رفض أن يتقبل فكرة أنه كان يقع في غرام تلك الشابة المائلة إلى جانبه، لأنها ببساطة لم تكن حقيقية، بل مجرد إمكانية فحسب. فهو لن يُغرم بمن لا تظهر له أي رغبة في مبادلتة الحب.

راح يعاين الخارطة، يجتازان جبال الألب، ثم بلدين شيوعيين على الأقل، ليلغا البلد المسلم الأول الذي سيزوره للمرة الأولى في حياته. كان قد قرأ الكثير عن الدراويش الذين يرقصون ويدورون، وهم يشرعون أنفسهم للأرواح. حتى أنه حضر استعراضًا لمجموعة كانت تجول البرازيل، في أحد مسارح المدينة الأساسية. أمكن أن يصبح حقيقة كل ما كان حتى حينه مجرد حبر على ورق.

مقابل سبعين دولارًا يمضي برفقة أشخاص لديهم حس الغامرة مثله. نعم، لم يكن ميدان «البيكاديلي» سوى ساحة دائرية يتحلق حولها ناس بثياب زاهية، في بلد لا يحمل فيه عناصر الشرطة أسلحة، وتُقل الحانات فيه عند الساعة الحادية عشرة ليلاً. ويقتصر الجاذب فيه على الآثار التاريخية، وأشياء من هذا القبيل.

كان قد بدّل رأيه بعد دقائق، فالغامرة أكثر تشويقًا من ساحة في مدينة. جاء عن الأقدمين أن التغيرات دائمة وثابتة، لأن الحياة قصيرة. ولو كان كل شيء ثابتًا، لانتفى العالم.

أنى له أن يبدّل رأيه بهذه السرعة؟

كثيرة هي الانفعالات التي تحرّك القلب البشري عندما يختار أن

يَكْرُسُ نفسه للدرب الروحانيات. قد يكون دافعه نبيلاً مثل الإيمان، أو حبّ القريب أو الإحسان. وقد يتلخّص في نزوة، في الخوف من الوحدة، في الفضول، أو في رغبة أن نُحَبّ.

لكن لا أهمية لأي من كلّ هذا. فالدرب الروحانية الحقيقية لهي أقوى من الأسباب التي تدفعنا إليها. تُفرض علينا شيئاً فشيئاً، وتحمل معها الحبّ، والانضباط، والكرامة. وتحلّ لحظة نستحضر فيها ما ولى، ونتذكّر ما كنّا عليه في بداية رحلتنا، فنضحك على أنفسنا. استطعنا أن نكبر وإن مشينا الدرب لأسباب وجدناها مهمة، غير أنّها كانت تافهة في الحقيقة. استطعنا أن نغيّر مسارنا لحظة اقتضى الأمر ذلك.

إن محبة الله لهي أقوى من الأسباب التي تدفعنا إليها. آمن باولو بذلك بكلّ جوارحه. فقدرة الله معنا في كلّ آن. علينا بالشجاعة لتتجلّى هذه القدرة في أرواحنا، في مشاعرنا، في تنفّسنا، علينا بالشجاعة لنغيّر رأينا عندما ندرك أنّنا لسنا سوى أداة بسيطة لمشيئته، وأنّ مشيئته هي ما علينا الوفاء به.

— افترض أنّك تريد أن أوافق، بالنظر إلى أنّك كنت منذ البارحة في باراديسيو، تنصبين لي الشّرك بتان.

— أنت مجنون!

— دوّمَا.

نعم، زُغِبْتُ جداً أن يرافقها. لكنّها، ككلّ امرأة على دراية بعقلية الرجال، لم تستطع قول شيء. لو قالت شيئاً، لشعر أنّه في موقع قوّة، بل أسوأ، في موقع ضعف. كان حينها قد فهم لعبتها الصغيرة، التي سمّاها «شركاً».

— أجيبني عن سؤالتي، أتريد أن آتي؟

— لا أبالي.

أسرت لنفسها، أرجوك تعال. ليس لأنك شاب مثير للاهتمام على وجه التحديد، فسويدي، الوكالة، كان في الحقيقة أشد حزمًا وعزمًا، بل لأنني معك أشعر بحال أفضل. وقد زهوْتُ بك فخرًا عندما تبعت نصيحتي، وخلصت الكثير من الأرواح، عندما قررت ألا تنقل الهيرويين إلى ألمانيا.

— لا تباليين؟ أتقصدين أن الأمر سيان؟

— صحيح.

— وفي هذه الحالة، إذا نهضت في هذه اللحظة عائدًا إلى وكالة السفريات، واشتريت التذكرة الأخيرة، ألن يسرك ذلك ولو قليلًا؟ نظرت إليه وابتسمت. أملت أن تفصح ابتسامتها عن كل شيء: أنها ستسّر جدًا أن يكون رفيق دربها في السفر، لكنها لم تستطع، بل لم تُرد التعبير عنه بالكلمات.

قال، وهو ينهض: — أنت من سيدفع ثمن القهوة. لقد أنفقت ثروة اليوم بسبب غرامة الباص.

كان باولو قد قرأ ابتسامتها، حاجتها إلى أن إخفاء فرحها. ولذلك، تفوّهت بأول ما خطر ببالها:

— هنا تشارك النساء على الدوام في دفع الحساب. لم تجرِ تربيتنا كاعراض جنسية. وقد دفعت غرامة لأنك لم تُصغ إليّ. لكن لا بأس، فلما بهمني أن تصغي إليّ، واليوم أنا من سيُسَدّ الحساب.

يا لها من امرأة نكدة! لديها رأي في كل شيء! أسر باولو بذلك لنفسه.

غير أنه حقيقةً كان بعشق طريقتها في تأكيد استقلاليتها عند أي فرصة.

سألها، وهما يعودان إلى الوكالة، إن كانت تعتقد حقاً بإمكانية بلوغهما نيبال، ذلك البلد البعيد جداً، بتذكرة بهذا الثمن الزهيد.

— ساورتني الشكوك قبل أشهر، حتى بعد أن رأيت إعلان الباص المتوجّه إلى الهند، أو نيبال أو أفغانستان، والذي تراوحت تكلفته تذكرته على الدوام بين سبعين دولاراً ومئة. ثم قرأت في «الأرك»، وهي صحيفة بديلة، قصة شخص سافر ورجع، ومذاك أستميت لفعل ما فعل.

لكنّها تحفّضت عن القول إنّها تنوي الذهاب فقط، وعدم العودة إلا بعد سنوات قليلة. فقد يستنكر باولو فكرة أن يرجع قاطعاً ملايين الكيلومترات التي تفصلهما عن وجهتهما.

لكن سيكون عليه أن يتأقلم. فالتأقلم مرادف للحياة.

لم يكن الباص السحريّ سحرياً في شيء، ولم يُشبه ذاك الذي رآته في إعلانات الوكالة، لم يكن حافلة مطليةً باللون زاهية تغطيها رسوم وعبارات. كان مجرد باص، على الأرجح أنّه استُخدم في وقتٍ ما لنقل التلاميذ إلى المدرسة، بمقاعد لا تنحني إلى خلف، ويعلوه إطار حديدي رُبّطت به عبوات وقود وعجلات احتياطية.

جمع السائق الركّاب وكانوا عشرين راكباً بدوا وكأنّهم خرجوا من الفلم السينمائي نفسه. تتفاوت أعمارهم، بين قاصرين قارّين من منازلهم (كانت ثمة فتاتان يانعتان، ولم يُطلب إليهما إبراز أي مستند شخصي) ومن هم أكبر سنّاً، كرجل كان يُجبل بنظره في الفضاء طوال الوقت، على محياه هيئة من حظي بالتنوير الذي طالما رجاه، وقرّر حينها أن يغادر في رحلة طويلة.

كان ثمة سائقان، واحد ينطق بلكنة إنجليزية، وكان الآخر، بلا ريب، هندياً.

– مع أنّي اكره الأنظمة، فإن علينا أن نمثّل لبعضها. الأولى: المخدرات محظورة في الباص لدى اجتياز الحدود. ففي بعض البلدان، يُعادل ذلك السجن، وفي بعضها الآخر، كما في إفريقيا، قد يعني الموت بقطع الرأس. أمل أن تكونوا قد أوليتم كلامي آذاناً صاغية.

توقّف السائق عن الكلام للتحقق من ذلك. فجأة، بدا أنّه لفت انتباه الجميع.

— أسفل الباص، أحتفظ، بدلاً من الحقائب، بحاويات ماء وإعاشات كنتك التي توزّع على العساكر. تحتوي كلّ إعاشة على هريس اللحم والمقرمشات والواح الحبوب بحشوة الفواكه ولوح شوكولاتة بالمكسرات أو الكاراميل، ومسحوق عصير البرتقال وسكر وملح. تحضّروا لتناول الطعام بارداً لجزء كبير من الرحلة، بعد عبورنا تركيا.

تُمنح التأشيرات عند الحدود، وهي تأشيرات عبور. ليست مجانية لكنّها غير باهظة. وبحسب البلد، يُمنع الترحّل من الباص، كما في بلغاريا، ذات النظام الشيوعي. إذن، اقضوا حاجتكم قبل بلوغ الحدود، فلن أتوقّف لحاجات خاصّة.

نظر السائق بشكل خاطف إلى ساعة يده.

— حان وقت الانطلاق. أبقوا حقائب الظهر معكم داخل الباص. أمل أن تكونوا قد جلبتم أكياساً للنوم. سنتوقّف ليلاً، أحياناً في محطات وقود أعرفها، وفي الريف أحياناً كثيرة، على مقربة من الطريق. ومتى استحال ذلك، كما في اسطنبول، سننزل في فنادق رخيصة.

— ألا يمكننا أن نضع حقائب الظهر على السقف، لكي يكون لدينا متسع أكبر لأرجلنا؟

— بالطبع يمكنكم ذلك. لكن لا تُفاجأوا إذا اختفت لدى التوقّف من أجل القهوة. في الداخل، في مؤخّر الباص مكان للحقائب. مكان واحد لكل شخص، وهنا مدوّن على ظهر البطاقة مع خارطة الطريق. وماء الشرب غير مشمول في سعر التذكرة. أمل أن تكونوا قد أحضرتهم عبوات للماء. يُمكنكم دوماً إعادة ملئها متى توقّفنا من أجل الوقود.

— وإذا وقع مكروه؟

— ماذا تقصد؟

— إذا مَرَضَ أحدنا مثلاً.

— لديّ علبة إسعافات أولية. لكن، كما يُشير اسمها، هي أولية وتُسعف إلى حين التمكن من بلوغ مدينة ما وإنزال المرضى فيها. لذا اعتنوا كلَّ العناية بصحتكم البدنية كما تحبذون الاعتناء بارواحكم. افترض أن الجميع ملقَّحون ضدَّ الحمى الصفراء والجُدري.

كان باولو مُحصَّناً باللقاح الأول. فقد توجَّب على كلِّ برازيلي أن يُحقن به قبل مغادرة البلاد، إذ اعتقد الأجانب بلا شك أن البرازيليين يحملون طيفاً من الأمراض المُعدية. لكنّه لم يكن مُحصَّناً ضدَّ الجُدري؛ ففي بلاده، سرى الاعتقاد بأنَّ الإصابة بالحصبة التي تحدث في الصغر، تُحصِّن المرء طبيعياً ضدَّ الجُدري.

وفي أي حال، لم يطلب السائق أيَّ دفتر لقاح من أحد. أخذ الركاب يصعدون ويختارون مقاعدهم. قام أكثر من شخص بوضع حقيبته على المقعد المجاور، لكنَّ السائق كان يصادرها على الفور، ويقذف بها إلى مؤخر الباص.

— سوف يصعد ركّاب آخرون في طريقنا أيها الحمقى.

جلست الفتاتان، اللتان بدتا قاصرتين وتحملان على الأرجح جوازي سفر مزيّفين، متجاورتين. وجلس باولو إلى جانب كارلا أيضاً. وكان أوّل ما فعلاه اتّباع نظام للتناوب على المقعد الملاصق للنافذة. اقترحت أن يتبادلا المقعد كلّ ثلاث ساعات، وأنها ليلاً، ستجلس ناحية النافذة لكي يتمكّنا من النوم نوماً هانئاً. وجد اقتراحها لاثلاقياً ومُجحفاً، لأنَّ ذلك سيُمكنها من أن تُسند رأسها. قرّرا في النهاية أن يتناوبا كلّ ليلة على الجلوس بمحاذاة النافذة.

شغل المحرك، وانطلق الباص المدرسي الذي لا يمت إلى الرومنسية
بصلة، باستثناء الاسم الذي حملته، الباص السحري، في رحلته لعبور آلاف
الأميال التي كانت ستفضي بهم إلى الطرف الآخر من العالم.

أسر باولو إلى رفاقته، «عندما كان السائق يتكلم، بدا لي وكأننا
ذهبون إلى الخدمة الإلزامية كما في البرازيل، وليس إلى خوض مغامرة.
تذكر عندها الوعد الذي قطعه على نفسه عندما نزل من جبال الأنديز
بالباص، والمزات الكثيرة التي لم يف به فيها.

أغاظ هذا التعليق كارلا، لكن لا يفترض بها أن تجادله، ولا أن تغير
مكانها، ولم يكن قد مضى على انطلاق الرحلة سوى خمس دقائق.
أخرجت كتابها من حقيبة يدها وراحت تقرأ.

— إذن أنت مسرورة لذهابنا إلى حيث أردت الذهاب؟ بالمناسبة، لقد
كذب علينا الشاب في الوكالة، ذلك أن ثمة مقاعد لا تزال شاغرة.

— لم يكذب علينا، لقد سمعت السائق جيدًا، إذ قال إن ثمة ركابًا
آخرين سنقلهم في طريقنا. ولست ذاهبة إلى حيث أردت الذهاب، بل أرجع
إليه.

لم يستوعب باولو ردها، الذي لم تسترسل في تفسيره، وقرّر أن يدعها
وشانها، وأن يركّز في المساحات المسطحة المحيطة به، والتي عبرتها قنوات
من كل حلب وصوب.

لم صنع الله العالم وصنع الهولنديون هولندا؟ ليست بلاد الأرض
واسعة، وتنتظر من بأهلها؟

بعد ساعتين، تصادق الركاب كلهم، أو تعارفوا على الأقل. كان
ثمة مجموعة من الأسراليين الذين، رغم ودهم وابتساماتهم العريضة،

لم يرغبوا كثيرًا في التحادث. وكارلا كذلك، ادّعت قراءة الكتاب الذي سبق أن نسبت اسمه، لا بُدَّ من أنها كانت تفكّر في وجهتهم، في الوصول إلى هيمالايا، مع أن آلاف الأميال لم يجز اجتيازها بعد. عرف باولو عن تجربة الشعور بالقلق الذي تولّده حالات مماثلة، لكنّه ارتأى السكوت، مادامت لا تفرغ مزاجها السيئ عليه، كان كلّ شيء على ما يرام. وإن حدث، فسوف يُبدّل مقعده.

جلس خلفهما فرنسيّان، أب وابنته، بدا عليهما التوتر وبدأت الحماسة. وإلى جانبهما، جلس ثنائي إيرلندي. عزّف الشاب بنفسه على الفور، واستغلّ الظرف ليخبرهما أنها رحلته الثانية، وأنه هذه المرّة قد اصطحب حبيبته. وهو يرى أن كاتماندو، إذا بلغناها طبعًا، مكان لا بُدَّ من المكوث فيه سنتين كحدّ أدنى. في زيارته الأولى، لم يمكث فيها تلك المدّة بسبب عمله. لكنّه، هذه المرّة، ترك كلّ شيء. باع مجموعة صمديات السيارات، جنى مالاً وفيرًا منها (أيّمكن لمجموعة الصمديات أن توفّر كلّ هذا المال؟)، وترك شقّته. ثمّ دعا حبيبته إلى مرافقته، وقد رسم على ثغره ابتسامة عريضة.

تناهت إلى كارلا جملة، مكان لا بُدَّ من المكوث فيه سنتين كحدّ أدنى، وخرجت عن ادّعائها القراءة لتسال عن سبب ذلك.

أوضح رايان، هذا هو اسمه، أنّه في نيبال شعر وكأنّه خرج من الزمن، ودخل واقعًا موازيًا، حيث كلّ شيء ممكن. لم يبدُ أن حبيبته ميرث، التي لم تكن لا محبّة ولا سمجة، على قناعة بأنّ هذا البلد هو المكان الذي ينبغي للجميع أن يعيشوا فيه للسنوات المقبلة. لكن من البديهي أن حبّها لرايان قد انتصر عليها.

— ماذا تقصد بواقع مواز؟

— تلك الحالة الروحية التي تستحوذ على جسدك وروحك عندما تشعرين بالسعادة، بالحب وقد ملء قلبك. فجأة، كل ما يشكّل جزءاً من يومك، يكتسي معنى جديداً، تُصبح الألوان أكثر بريقاً، وما كان يُزعجك، من برد، أو مطر، أو عزلة، أو دراسة، أو عمل، يتخذ هيئة جديدة. لأنك لهنيئة على الأقل، تكونين قد دخلت روح الكون وذقت كوثر الآلهة. بدا الإيرلندي مسروراً، وهو يعبر بالكلمات عما لا يمكن الشعور به إلا باختباره. بدا أن ميرث لم تستحب كثيراً مخاطبته الهولندية الجميلة. كانت تدخل واقعاً موازياً مضاداً، واقعاً جعل كل شيء يبدو فجأة قبيحاً وثقيل الوطأة.

تابع رايان، وكأنه خمن ما كان يجول في ذهن حبيبته: — هناك الوجه الآخر أيضاً، عندما تتحول تفاصيلنا اليومية الصغيرة إلى مشكلات من لا شيء. ثمة واقعات موازية. نحن في هذا الباص لأننا اخترنا ذلك، أمامنا آلاف الأميال، ولنا أن نختار كيف نسافر؛ بالسعي إلى حلم بدا مستحيلاً ذات يوم، أو بالتفكير في أن القاعد غير مريحة وأن الجميع لا يُطاقون. كل ما نتصوره الآن، سوف ينعكس على ما تبقى من الرحلة.

ادعت ميرث أنها لم تفهم أن الرسالة موجهة إليها.

— عندما كنت في نيبال للمرة الأولى، بدا الأمر وكأنني عقدت اتفاقاً مع هولندا، اتفاقاً لم يفسخ. تردّد في ذهني صوت متواتر: «عش اللحظة الآن، استفد من كل ثانية لأنك سترجع إلى موطنك قريباً. ولا تنس أن تلتقط صوراً قريباً لأصدقائك كي تظهر لهم أنك كنت مقدماً وشجاعاً، أنك عشت تجارب يودون عيشها لكنهم يفتقرون إلى الشجاعة»، إلى أن ذهب

ذات يوم إلى كهف في هيمالايا برفقة أشخاص آخرين. لدهشتنا الكبيرة، راينا زهرة صغيرة في مكان لا ينمو فيه أي شيء عملياً. كانت بحجم إصبع تقريباً. راينا فيها معجزة، إشارة. ولكي نقدم إليها احترامنا، أمسك بعضنا بأيدي بعض، وأنشدنا المانترا. في غضون ثوانٍ، راح الكهف يهتز. لم يعد البرد يُزعجنا، والجبال البعيدة بدت فجأة أقرب. لم؟ لأن من عاشوا هناك خلفوا وراءهم ذنبية حب نابضة شبه ملموسة، كانت قادرة على اكتناف كل شخص وكل شيء في ذلك المكان. وهذا تماماً كبذرة الزهرة تلك التي كانت قد حملتها الرياح، كما لو أن رغبتنا، رغبتنا الحرة في رؤية العالم عالماً أفضل، قد تجسدت، وأثرت في كل شيء في دربها.

لا بد من أن ميرث غالباً ما سمعت هذه القصة، غير أن باولو وكارلا كانا مأخوذتين بكلام رايان.

— لا أدري كم من الوقت امتد ذلك. لكن عندما عدنا إلى الدير حيث مكثنا، وأخبرنا عما حدث، قال لنا أحد الرهبان إن شخصاً اعتبروه قديساً عاش في ذلك الكهف. أضاف الرهبان أيضاً أن العالم كان يتغير، وأن الأهواء، كلها بلا استثناء، لسوف تشتد. سيشتد الكره، ويكون أكثر تدميراً وسوف يُشرق وجه الحب.

قاطع السائق الحديث قائلاً إن عليهم، نظرياً، متابعة السير حتى لوكسمبورغ، والكوث فيها ليلاً. لكن إذا تبين أن لا أحداً يهتم بالإمارة، فسوف يواصلون الرحلة، والنوم لاحقاً في الهواء الطلق قرب مدينة المانية اسمها دورتموند.

— سنتوقف بعد قليل لتناول الطعام، والاتصال بالمكتب، لكي يُخبروا الركاب التاليين أن يستعدوا للانطلاق مبكراً. إذا لم يذهب أحد إلى لوكسمبورغ، فسوف نوفر أميالاً قيمة.

رحب الجميع باقتراحه. كانت ميرث ورايان يهتمان بالعودة إلى مقعديهما، عندما أوقفتها كارلا،

— خِلْتُ أَنْ بلوغ واقع موازٍ ممكن فقط عبر التأمل وتسليم قلبك إلى الإله الواحد.

— هذا ما أفعله كلّ يوم. لكنني أفكر أيضًا في الكهف كلّ يوم، في هيمالايا، في الرهبان. أعتقد أنني أتممت إقامتي في ما نسميه «الحضارة الغربية». أبحث عن حياة جديدة. وبما أن العالم الآن في صدد التغير، فإنّ العواطف الإيجابية والسلبية أيضًا ستُصبح أقوى، كما أنني، بل نحن جميعًا في الواقع، لسنا على استعداد لمواجهة الوجه المظلم للحياة.

— لا داعي إلى ذلك، قالتها ميرث، وقد دخلت على الحديث بقولها للمرة الأولى، مُثَبِّتَةً أَنَّها نجحت في النجاة من سَمِّ الغيرة في غضون دقائق قليلة.

عرف باولو، بطريقة ما، كلّ ما قاله رايان. فقد سبق له أن خبر تجارب مماثلة. وفي أغلب الأوضاع كان له الخيار بين الانتقام والحب، فاختر الحب. لم يكن خياره الأفضل دومًا، فقد نعتوه بالعجبان أحيانًا. وأحيانًا، كان هو بنفسه، يشعر أنّه ينزِع إلى الخوف أكثر من نزوعه إلى الرغبة الصادقة في جعل العالم مكانًا أفضل. كان إنسانًا بكلّ ما في الإنسان من هشاشة. لم يفهم كلّ ما حدث له في حياته، لكنّه رغب رغبة عارمة أن يؤمّن بأنّه يبحث عن النور.

للمرة الأولى، منذ انطلاق الرحلة، فهم أنّ الأمر مكتوب: انبغى له أن يمضي في هذه الرحلة، أن يلتقي هؤلاء الأشخاص، أن يقوم بأمر دَرَج على التبشير به ولم يتحلّ دومًا بالشجاعة لتحقيقه: أن يُسلّم أمره إلى الكون.

بمرور الوقت، راح الركّاب ينقسمون مجموعات، أحياناً بسبب اللغة المشتركة، وأحياناً أخرى لغاية ليست لغويّة، كالجنس مثلاً. لذلك، مرّت الأيام الخمسة الأولى سريعة على الجميع ما عدا الفتاتين، اللتين كانتا أغلب الظنّ قاصرتين، وبقيتا على مسافة من كلّ شخص ومن كلّ شيء، لأنهما اعتقدتا خطأ أنهما محور الانتباه العام، وهكذا عبر تبادل القصص استكشف كلّ من الركّاب نفسه في غيره. ولم يكن الضجر حاضراً، وكان هذا الإيقاع يشهد انقطاعاً عندما يتوقّفون في محطات الوقود ملء خزّان الوقود وعبوات الماء، وشراء الشطائر والمشروبات وقضاء الحاجات في الحمامات. أما الوقت الباقي، فقد انقضى في التحادث والتحدّث والتحدّث أكثر.

ناموا تحت النجوم، قاسوا البرد معظم الوقت. لكنّهم كانوا ممتنّين لأنّهم استطاعوا تأمل السماء، وعرفوا أنّ بإمكانهم محادثة السكون، والنوم برفقة ملائكة شبه مرئيين، والكفّ عن الوجود لبضع لحظات، بل هُنَيات، إذ شعروا بالأبدية واللانهاية تحيطان بهم.

تقرّب باولو وكارلا ورايان وميرث. وتوخّياً للدقّة، يمكن القول إنّ ميرث قد انضمت إليهم رغماً عنها، فقد سبق أن سمعت قصّة الواقعات الموازية هذه عشرات المرات. فاقترصت مشاركتها إذن على مراقبة حبيبها بشكل متواصل لئلا تضطرّ إلى العودة في منتصف الطريق، لأنّها أخفقت في أمر بسيط: الاستمرار في جذب اهتمامه حتّى بعد مرور سنتين قضياها معه.

لاحظ باولو هو أيضاً اهتمام الإيرلندي الذي سأل، حالاً سنحت له الفرصة، عن طبيعة علاقته بكارلا. أجابت كارلا بكلمتين:

— لا علاقة.

— صديقان مقرَّبان إذن

— ولا حتى هذا. مجرَّد رفيقين في السفر.

ألم تكن هذه الحقيقة؟ قرَّر باولو أن يتقبَّل الأمور كما هي عليه، وأن ينسى أمر رومنسيَّة لا جدوى منها. كانا أشبه بملاحين يُبحران إلى بلاد ما، وإن شغلا المقصورة ذاتها، نام أحدهما على السرير العلوي والآخر على السفلي.

وكَلَّما ازداد اهتمام رايان بكارالا، اضطربت ميرث واغتاضت من دون أن تفضح نفسها طبعًا، وإلاَّ لكان ذلك دليلًا مردودًا على الخنوع. وتقرَّبت من باولو، بالجلوس إلى جانبه أثناء الحديث، وإسناد رأسها إلى كتفه أحيانًا، فيما روى رايان كلَّ ما تعلَّمه مذ عودته من كاتماندو.

يا للروعة.

بعد ستة أيام من السفر براء، نفذ الضجر إلى الجوّ، وخيم فوق الحماسة. والآن بعد أن فرغ الجميع من أيّ جديد على السنتهم، راحوا يفكرون كيف أنّ أيامهم اقتصرت على الأكل، والنوم في العراء، ومحاولة الجلوس في وضعية مريحة أكثر في مقاعدهم، وفتح النوافذ وإغلاقها لطرد دخان السجائر، والشعور بالملل من قصّ حكاياتهم والتكلّم مع الآخرين، الذين لم يفوتوا ولو فرصة في طرح التعليقات اللاذعة هنا أو هناك، أسوة بباقي البشر عندما يجتمعون في ثلة، حتى ولو كانت صغيرة وعارمة بالنيات الحسنة كهذه المجموعة.

بقي الأمر كذلك إلى أن ظهرت أمامهم الجبال. والوادي. والنهر الذي شقّ الصخور العملاقة. سال أحدهم عن موقعهم، أجاب السائق الهندي إنهم دخلوا النمسا من فورهم.

— سوف نترجل قريباً، ونتوقّف قرب النهر الجاري في الوسط لكي نغتسل. لا شيء أفضل من الماء البارد ليذكّرنا بأنّ دماً يجري في عروقنا، وأنّ أفكاراً تراودنا علينا أن نطرحها جانباً.

تحفّس الجميع لفكرة التعرّي تماماً، هذه الحرية المطلقة، هذا الرابط بلا وسيط مع الطبيعة.

التفّ السائق عند طريق حجرية، وراح الباص يترجّح وبعض الركاب يصرخون خشية أن ينقلب، ولم يسع السائق إلا الضحك. بلغوا ضفة جدول أخيراً، أو بالأحرى ذراعاً من النهر انشقت عنه، وشكّلت النواء ركنت إليه المياه، قبل أن تعود وتنضمّ إلى التيّار الجاري.

— أمامكم نصف ساعة. استفيدوا لغسل ملابسكم.

هرع كل منهم إلى حقيبةته. كان كلّ هيبّي يحمل في حقيبةته منشفة يد صغيرة، وفرشاة أسنان، والواح صابون، بالنظر إلى أنّ الأمر كان ينتهي بهم دوماً إلى التخييم، بدلاً من النزول في الفنادق.

— من الطريف أن يفكر الناس أننا لا نستحمّ. قد نكون أنظف حتّى من أغلبية الأسر برجالها ونسائها، أولئك الذين يلصقون بنا هذه التهم.

التهم؟ وما همنا من ذلك؟ إن مجرد الإقرار بالانتقاد يَكسبه طابع القوة. رشق قائل ذلك التعليق الجميع بنظرات غضبي. فهم لم يولوا يوماً أقوال الآخرين أدنى انتباه. كان ذلك صحيحاً جزئياً، إذ راق لهم أن يشدوا الانتباه إلى ملابسهم وأزهارهم وشهوانيتهم الاستفزازية والمُعنة، وملابس الفتيات المجرّفة التي أسفرت عن نهود بلا حمالات، وسوى ذلك. والتنانير الطويلة أيضاً، فهذه كانت أكثر إغواء وأكثر أناقة. هذا على الأقلّ ما أكده من عيّنوا أنفسهم مختصّي الأزياء في المجموعة، الذين لم يسمع بهم أحد. في أيّ حال، لم يكن الإغواء في نظر النساء وسيلة لجذب الرجال، بل لإظهار أنّهن فخورات بأجسادهنّ، والحرص أن يلاحظ الجميع ذلك.

ومن لم يحملوا معهم مناشف، تناولوا بلوزات قصيرة الأكمام، بلوزات باكمام، وبلوزات قطنية، أو ملابس داخلية، أي، باختصار، قطع قماش احتياطية تمكّنهم من تجفيف أجسادهم. وسرعان ما هبطوا إلى النهر

غُراة وهم يجرون إليه، ما عدا الفتاتين اليانعتن طبعاً، اللتين أبقت كل منهما على الكيلوت وحمالة الصدر.

هبت ريح قويّة إلى حدّ ما. وشرح السائق قائلاً إنّ الموقع الذي هم فيه جاف ومرتفع جداً، وإنّ كلّ شيء يجفّ بسرعة في هذه البقعة، بفضل تيار الهواء.

— لهذا اخترتُ هذا المكان.

من الطريق، لم يكن بوسع أحد أن يرى ما يحدث في الأسفل، فقد حجبت الجبال الشمس، لكن كان المكان جميلاً هكنا. فعلى مدار أولئك المسافرين انتصبت الصخور، وارتفعت أشجار الصنوبر عند الضفاف، وصقلت الحجارة قرون من التعرية. لذلك ارتموا دفعة واحدة في الماء البارد من دون تفكير، وراحوا يصرخون ويترشقون بالماء، وحلت لحظة من المشاركة بين أفراد المجموعات المختلفة وكأنهم يقولون، «لهذا السبب نحيا حجاجاً، لأننا ننتمي إلى عالم يكره الركود».

أسرّ باولو لنفسه: إن صمتنا كلنا لساعة، سوف نتمكن من سماع الله. وإن صرخنا ابتهاجاً، سيسمعنا الله أيضاً، وسيحلّ بيننا ليباركنا.

ترك السائق ومساعدته المجموعة. لا بُدّ أنهما تعودا رؤية الأجساد العارية لشباب يتجزأون على تعرية أنفسهم ملايين المرات. وذهبا للاستحمام. ورجعا ليتفقدّا من ثمّ ضغط العجلات والزيت.

كانت المرّة الأولى التي يرى فيها باولو كارلا عارية وانبغى له أن يلجم نفسه عن الغيرة. كان نهداها متوسطي الحجم، كنهدي الفتاة التي شهدت جلسة التصوير في ساحة «دام». لكن كانت كارلا أجمل، أجمل كثيراً.

غير أن الملكة الحقّة بينهنّ جميعاً كانت ميرث، بفخذيها المشوّقين، ومقاييسها المتناسقة، لكانّها إلهة نزلت إلى وادٍ وسط جبال الألب النمساويّة. ابتسمت لباولو، عندما لاحظت أنّه كان يرصدها، وردّها لها الابتسامة، عارفاً تمام العرقة أنّها لم تكن سوى لعبة منها لاستنارة غيرة رايان وإقصائه عن الغاوية الهولنديّة. لكنّنا نعلم جميعاً أنّ لعبة بدوافع ضمنيّة قد تتحوّل مع ذلك إلى حقيقة. وللحظة، حلم بها باولو وقرّر أنّه من الآن فصاعداً سيبدّل مجهوداً أكبر مع هذه المرأة التي ترنو منه أكثر فأكثر بمحض إرادتها.

غسل المسافرون ملابسهم. والفتاتان اليانعتان اللزعتان اللتان ادّعتا أنّهما لا تريان العراة العشرين إلى جانبهما، بدتا فجأة وقد وجدتا موضوع حديث مشوّق. غسل باولو قميصه وسرواله الداخلي وعصرهما. فكّر في غسل بنطلونه وارتداء البنطلون الاحتياطي في حقيبته، ثمّ فكّر أن يترك ذلك للحمام الجماعي التالي، فكان بنطلون الجينز مفيداً في كلّ الأحوال، باستثناء أنّه لم يكن يجفّ بسرعة.

لمح ما بدا أنّه معبد كنّسي على إحدى قمم الجبال المحيطة، وكذلك الأخاديد التي ثلّمت بساط الخضار، وقد حفرها الجريان المتواصل للمياه الموسميّة التي كانت تتدفّق كلّ ربيع بعد انصهار الثلوج. والآن، لم تعد سوى خطوط رمليّة.

كان الباقي فوضى مطلقة، فوضى صخر أسود تداخل بسواه من الصخور، بلا انتظام، بلا تنبّه للمظهر. وهذا تحديداً ما جعله بهيّا. لم يسع إلى شيء، ولا حتّى إلى اتّباع ترتيب ما، أو التشكّل بطريقة نحسن من مقاومته لهجمات الطبيعة المتواصلة. أمكن له أن يكون هنا منذ ملايين السنين أو من أسبوعين فقط. كانت شمة لافتات على الطرقات تحذّر

السائقين من خطر انزلاق الصخور. وعنى ذلك أن تلك الجبال لا تزال في طور التشكل، حياة نابضة، وأن الصخور تبحث إحداها عن الأخرى تمامًا كالشجر.

وكانت هذه الفوضى جميلة، كانت ينبوع الحياة، كانت تُشبه تصوّره للكون ما بعد هذا المكان، وتصوره لأغوار روحه. لم ينبثق هذا الجمال من المقارنات أو الصلوات أو الرغبات، بل ببساطة من عيش حياة طويلة على شكل صخر أو شجر صنوبر، شجر كان مُهذَّبًا بأن ينقلع من الجبال، ويسقط، ولا بُدَّ أنه هنا منذ سنين، لأنه عرف أنه مرحَّب به، وقد استساغه الصخر، ونظر كلُّ منهما إلى الآخر بإجلال.

قال أحدهم: - ثمة كنيسة أو معبد فوق.

نعم، كلهم لاحظوا ذلك، واعتقد كلُّ منهم على الأرجح أنه أوّل من اكتشف الأمر، وأدرك الآن خلاف ذلك، وأسرّ لنفسه متسائلًا: أماهول ذلك العبد أم مهجورٌ منذ سنوات؟ ولم كانت جدرانُه مطليةً بالأبيض في محيط صخر أسود؟ وكيف تمكّن أحدهم أساسًا من تسلّق هذا العلو وتشيّده فوق؟ في النهاية، كان هذا العبد هناك، نشازًا في الفوضى المحيطة القائمة.

وقفوا جميعًا هناك، يتأملون شجر الصنوبر والصخر، يحاولون تحديد القمة العليا في تلك الجبال، قبل أن يرتدوا ملابسهم النظيفة ويدركوا، مرّة أخرى، أن للاستحمام القدرة على مداواة مأسّ تآبى أن تفارق أذهاننا. دوى الزمّور من ثمّ. حان وقت استئناف الرحلة، وهو أمر غفلوا عنه تمامًا وسط روعة المكان.

من الواضح أن كارلا كانت مهووسة بموضوعات معينة.

– لكن كيف بلغت هذه المعرفة عن الواقعات الموازية؟ فإن تعرف ظهورًا في كهفٍ أمر، وأن تجتاز آلاف الأميال للعودة إليه أمر آخر. يمكننا أن نختبر التجارب الروحانية أينما كنا، فالثه موجود في كل مكان.

– نعم، الله موجود في كل مكان. هو يرافقني كلما تنزهت في حقول دورادويل، مهد عائلتي منذ قرون، أو كلما ذهبت لرؤية البحر في ليميريك. كانوا جالسين في مطعم محاذ للطريق قرب الحدود اليوغوسلافية، حيث وُلدت وترعرعت إحدى من أغرم بهن باولو غراما عظيمًا. حتى الآن، لم يواجه أحد، ولا حتى باولو، أي مشكلات بشأن التأثيرات. لكن بما أن يوغوسلافيا كانت بلدًا شيوعيًا، فقد انتابه الغم، رغم محاولة السائق طمانة الجميع، ذلك أن يوغوسلافيا، خلافًا لبلغاريا، لم تكن قابضة خلف الستار الحديدي. كانت ميرث تجلس إلى جانب باولو وكارلا إلى جانب رايان، وبدأ على الأربعة أن، كل شيء على ما يرام، رغم الاحتمال الوشيك بتبادل الشركاء. سبق لميرث أن أعلنت أنها لم تكن تنوي المكوث في نيبال إلى أجل غير مسمى، وزعمت كارلا أنها قد لا تعود منها على الأرجح.

تابع رايان:

– عندما كنت أعيش في دورادويل، وهي مدينة عليكما باكتشافها

حتى ولو كان الطر ينهمر فيها معظم الوقت، اعتقدت أنه مقدّر لي أن أصرف ما تبقى من حياتي فيها، مع والديّ اللذين لم يذهبا يوماً لزيارة دبلن حتى، عاصمة بلدهما. أو كجديّ اللذين عاشا في الريف، ولم يذهبا يوماً لرؤية البحر. وخالا أن ليمريك مدينة «كبيرة جداً». على مدى أعوام، فعلت كلّ ما طلباه: المدرسة، العمل في متجر بقول، المدرسة، تمرين كرة الرّكبي، إذ كان ثمة فريق محليّ، رغم جهوده، لم ينجح يوماً في التّاهل للدوري الأوّل، وارتياك الكنيسة الكاثوليكيّة، لأنّها كانت جزءاً من ثقافة بلدي وهويّته، خلافاً لمن عاش في إيرلندا الشماليّة.

تعوّدت كلّ ذلك، وكنت اذهب لرؤية البحر نهاية كلّ أسبوع. كنت أشرب الجعة قبل أن أبلغ السن القانونيّة، لأنني كنت أعرف مالك الحانة، ورحت آلف فكرة أنّ هذا كان مصري. في النهاية، لم يكن من خطب في عيش حياة هادئة ويسيرة، في النظر إلى صفوف المنازل المتشابهة التي صمّمها على الأرجح المهندس المعماري نفسه، لدى خروجي بين حين وحين مع فتاة، واصطحابها إلى الإسطبلات خارج القرية واكتشاف الجنس، جيّداً كان أو رديئاً، كان في النهاية جنساً انتهى برعشات، حتى ولو كنت أخشى أن ألج الفتاة، ويُعاقبني أهلي أو الله على فعلتي.

في قصص الغامرات، يسعى الجميع خلف أحلامهم، يقصدون أراضي مذهلة، يُواجهون الشّقات، لكنّهم يعودون دوماً ظافرين ليُخبروا عن قصص معاركهم، في الأسواق، في المسارح، أو في الأفلام، أي باختصار، أينما كان جمهور يُنصت. نقرأ هذه الكتب ونفكر: أنا أيضاً، سيكون لي هذا المصير. ساخلص إلى امتلاك العالم، سأعطني، سأرجع إلى ديارِي ظافراً، وسيحسدني الجميع ويحترموني على نجاحي. سوف تبتسم النساء لدى

مروري، ويحني لي الرجال رؤوسهم، يتوسلونني أن أروي لهم للمرة الألف ما جرى لي في هذه الحالة أو تلك، وكيف تمكنت من اغتنام تلك الفرصة الوحيدة التي أدّرت عليّ ملايين الدولارات. لكن كلّ هذا، لا يحدث إلّا في كتب المغامرات.

أتى الرجل الهندي (أو العربي) الذي يتناوب على القيادة مع السائق الأساسي، وجلس إلى طاولتهم. تابع رايان حكايته:

– وأسوة بغالبية الفتيان في وطني، خدمت في الجيش. كم لك من العمر يا باولو؟

– ثلاث وعشرون سنة. لكنني لم أؤدّ الخدمة. حصلت على تأجيل منها، إذ تدبّر والدي وضعي في ما يسمّونه «الفئة الثالثة، أي احتياطي الرداء»، والآن يُمكنني صرف هذا الوقت مسافراً. أعتقد أنّ البرازيل لم تنخرط في حرب منذ مئتي عام.

قال الرجل الهندي: – أنا خدمت. منذ أن نلنا الاستقلال، وبلادي في حرب مستمرة، حرب غير معلنة، مع البلد المجاور. وكلّ هذا بسبب الإنجليز.

قال رايان مؤثّراً: – الإنجليز هم دوماً السبب. فهم لا يزالون يحتلّون القسم الشمالي من بلادي. والسنة الفائتة فقط، قرابة عودتي من الجَنّة التي اسمها نيبال، تصاعدت التوترات. إيرلندا، الآن، على أهبة الحرب، بعد التصادمات بين الكاثوليك والبروتستانت، والإنجليز يرسلون عساكرهم إليها.

قاصطه كارلا: – اكمل قصتك الأخرى. ما الذي أفضى بك إلى نيبال؟

– «تأثيرات سيئة»، قالتها ميرث ضاحكة. وضحك رايان أيضًا.

– لديك كل الحق. كثير من كانوا من جبلي، وراح رفاقي في المدرسة بهاجرون إلى أميركا، حيث الجالية الإيرلندية هائلة، وحيث لكل إيرلندي صديق أو عم أو أفراد عائلة آخرون.

– لا تقل إن هذا أيضًا بسبب الإنجليز!

تدخلت ميرث، فقد حان دورها للانخراط في الحديث: – هذا أيضًا بسبب الإنجليز. حاولوا أن يميّتوا شعبنا جوعًا مرّتين. في المرّة الثانية، في القرن التاسع عشر، أنبتوا فطرًا في محاصيل البطاطا، غنائنا الأساسي، وراح عدد السكان يتضاءل. يُقدَّر أنَّ ثُمْن السكان ماتوا من الجوع. من الجوع! واضطر مليوننا إيرلندي إلى الهجرة بحثًا عن الطعام. بفضل الله، رَحِمَتْ بنا أميركا أحسن ترحيب، مرّة أخرى.

هذه الفتاة التي بدت مثل «ديفا، آتية من كوكب آخر، راحت الأنظار تلتفت إليها في نقاشها أمر المجاعتين الكبيرتين اللتين لم يسمع بهما باولو من قبل. آلاف الناس الذين تعرّضوا للهلاك، الشعب الذي ترك بلا عون، لخوض كفاحات من أجل الاستقلال، وسواها.

قالت: أنا مُجازة في التاريخ. بيد أن كارلا حرفت المحادثة إلى ما يهتمها، إلى نيبال والواقعات الموازية، لكن ميرث لم تكلّ إلى أن لقنتهم كل ما كانت إيرلندا قد قاسته، وبمئات ملايين الناس الذين قضوا جوعًا، وكيف أُعْدِم كبار ثوريي البلاد بإطلاق النار عليهم، بعد محاولتهم الانتفاض مرّتين، وأخيرًا بالطريقة التي تمكّن بها أميركي (نعم أميركي أصيل!) من تنظيم معاهدة سلام لوضع حدّ لحرب بدت لامتناهية .

– لكن لن يتكرّر ذلك أبدًا. بالطلق. هاللقاومة أقوى الآن. ولدينا

الجيش الجمهوري الإيرلندي. وسوف ننقل حربنا إليهم، بواسطة القنابل، والاعتيالات، وكلّ ما هو ممكن. وعاجلاً أم آجلاً، ما إن يجدوا ذريعة مناسبة، حتى يكون عليهم رفع أقدامهم القذرة عن جزيرتنا.

التفتت إلى الهندي وقالت: - كما فعلوا عندكم.

أخذ الرجل الهندي، واسمه راهول، يروي ما حدث في بلاده، غير أنّ كارلا تدخلت بنبرة أقوى وأكثر سلطوية:

- هلاً تركنا رايان يُنهي قصّته؟

- إن ميرث على حق، ثمة تأثيرات سيّئة أودت بي إلى نهبال في المرّة الأولى. عندما كنت أؤدي الخدمة العسكرية في الجيش، كنت أتردّد على حانة في ليميريك قريبة من الثكنة. كان في الحانة كلّ شيء، السهام المريشة، والبليارد، والكباش. أراد كلّ مرتاد أن يظهر رجولته للآخر، وأراد الجميع أن يظهرُوا جاهزيّتهم لدفع كلّ التحديات أمامهم. كان ثمة رجل يرتاد الحانة بانتظام، آسيوي لم يكن ينطق بكلمة، كان يحتسي كأسين أو ثلاثاً من الجعة الداكنة المسماة غينّس، فخرنا الوطني، ويرحل قبل أن يرنّ المالك الجرس مُعلنًا أنّ الساعة دنت من الحادية عشرة، وأنّ الحانة توشك أن تغفل.

- كلّ هذا بسبب الإنجليز.

في الواقع، كان الإنجليز هم من وضعوا القانون الذي يقضي بالإقفال عند الحادية عشرة في بداية الحرب، تفادياً لإقلاع الربابنة السُكاري عن الهجوم على ألمانيا، وتفادياً لتأخّر الجنود غير المنضبطين بالاستيقاظ وإحباطهم بالتالي للمعنويات.

ذات يوم، عندما ضاق بي سماع الجميع يتحدثون عن استعدادهم

للرحيل إلى أميركا حالما تسنح لهم الفرصة، استأذنت الشرقي في الجلوس إلى طاولته. بُرّج أن نصف ساعة قد مرّت من دون أن نتبادل أيّ كلمة. اعتقدت أنّه لم يكن يتكلّم الإنجليزيّة، ولم أشأ إخرجه. لكن، قبل أن أهتمّ بالمغادرة يومها، نطق بجملته لم تبح ذهني: «قد تكون هنا، لكنّ روحك في مكان آخر، في بلادي. اذهب بحثاً عن روحك».

أومات موافقاً، ورفعت له كاسي تحية له، لكنني تجنّبت الدخول في التفاصيل. كان تعليمي الكاثوليكي الصارم يُحجم خيالي عن تصوّر أيّ مشهد، باستثناء جسد وروح متّحدين سيّلاقيان المسيح بعد الممات. قلتُ لنفسي إنّ أهل الشرق لهووسون بفكرة الروح تلك.

قال الهندي: نعم، نحن كذلك.

وإذ أدرك زلّته التي أهانت الرجل، حاول رايان تصويبها بالفكاهة. — نحن الكاثوليك، لأسوأ حتّى، لأننا نؤمن بأنّ جسد المسيح موجود في القربان. لا تسىء فهمي.

جاء راهول بحركة من يده، وكأنّه يقول، «لا تقلق». وتمكّن رايان أخيراً من إنهاء قصّته، بل جزء منها فقط، إذ إنّ طاقات سلبية كانت ستعاكسهم قريباً.

— لذلك، كنت، في أيّ حال، عازماً على العودة إلى دياريّ لأدير العمل الأسري، وتحديداً مزرعة والذي للألبان والأجبان، في حين كان باقي رفاقي يعبرون الأطلسي ويلقون ترحيباً من تمثال الحرية. مع ذلك، وفي تلك الليلة، ظلّت كلمات الرجل تدور في ذهني وتدور. ففي الواقع، كنتُ أحاول إقناع نفسي بأنّ حياتي على ما يرام، أنّني ساجد فتاة ذات يوم وأنزّج بها وارزق بأطفال، بعيداً عن التلوّث والشتائم حيث عشت، مع أنّي

لم أعرف من المدن سوى ليمريك ودورادويل. لم يراودني الفضول الكافي يوماً لأتوقف في طريقي، وأتنزه في إحدى البلدات الصغيرة، أو بالأحرى الكفور التي امتدت فيما بين المدينتين. حينذاك، خلت أن السفر عبر الكتب والأفلام كان كافياً وأكثر أماناً وأقل تكلفة. واقتنعت أن لا أحد على الأرض قاطبة متع ناظره بحقول أجمل من تلك التي أحاطت بي. مع ذلك، عدت إلى الحانة في اليوم التالي، جلستُ إلى طاولة الرجل المنعزل، ورغم علمي بأن من المجازفة طرح أسئلة يرخج جداً أن يجيب عنها، سألته عن مقصده أمس ذلك اليوم، وأين يقع بلده؟

نيبال.

— يعرف كل من بلغ التعليم الثانوي أن ثمة بلداً اسمه نيبال، ولا بد أن يكون قد تعلم اسم عاصمته لكنّه، نسيها. والأمر الوحيد الذي يذكره أنها بلاد بعيدة جداً، يحتمل أنها تقع في أميركا الجنوبيّة، أستراليا، إفريقيا، آسيا، لكن ليس في أوروبا بكل تأكيد، وإلا لكان صادف شخصاً ما جاء منها، أو شاهدها في فلم، أو قرأ كتاباً عنها.

سألته عما قصده أمس ذلك اليوم. رجاني أن أذكره بما قاله لي، فقد عجز عن تذكره بنفسه. بعد أن ذكرته، ظلّ يُحدّق لحظة مطوّلة إلى كأس الغينس، بصمت، ثم كسر صمته فجأة وقال: «إذا كنت قد قلتها، فالأجدر بك إذن أن تذهب إلى نيبال. فسألته:

— وكيف السبيل إليها؟

أجابني: «كما جئتُ منها، بالباص». وغادر. في اليوم التالي، عندما سألته الجلوس إلى طاولته لمعرفة المزيد عن قصّة روعي التي كانت في انتظاري بعيداً جداً. أفهمني أنّه يفضل البقاء وحيداً، كحالهِ كل مساء.

وقلتُ لنفسي، «بما أنها بلاد يُمكن بلوغها بالباص، فمن يدري، قد يُفضي بي الأمر إلى زيارتها، متى وجدت من يرافقني في سفري إليها».

وحدث آنذاك أن التقيتُ ميرث، في ليميريك، تجلس في المكان نفسه الذي كنت أتخذُه في العادة لتأمل البحر. فكّرت أنها لن تهتمّ بفتى من الريف لم يكن مقدراً له ارتداد «ترينيتي كوليدج في دبلين»، حيث كانت تُحصل تعليمها، بل «أوكانل دايري، في دورادويل. لكننا، عقدنا الصلة سريعاً. وفي أحد أحاديثنا، أخبرتها عن الرجل الاستثنائي المتحدّر من نيبال، وعمّا قاله لي. لكنني كنتُ ساعود إلى دباري قريباً. وكلّ من ميرث، والحانة، وأصدقائي الجندين، وسواهم، لن يكونوا سوى مرحلة من حياتي. لكن سحرتني رقة ميرث وذكاؤها و.... جمالها. وهذا الأمر لا بُدّ من قوله. وإن ظنّنت أنني جدير برفقتها، فسوف يعزّز ذلك من طمأننتي وثقتي بنفسي في المستقبل.

وفي إحدى عطل نهاية الأسبوع التي سبقت أسبوعي الأخير في الخدمة العسكرية، اصطحبتني إلى دبلين. ارتني المكان الذي عاش فيه مؤلّف «دراكولا»، وكذلك ترينيتي كوليدج، حيث كانت تدرس، فوجدتها أكبر ممّا أمكن لخيالي أن يتصوّر. في إحدى الحانات القريبة من الجامعة، شربنا حتّى رنّ المالك الجرس معلناً وقت الإقفال. جلسْتُ أنظر إلى الجدران التي ملأتها صور لكتاب دمغوا تاريخ أرضنا، جيمس جويس، أوسكار وايلد، جوناثان سويت، وويليام باتلر ييتس، صامونيل بيكيت، جورج برنارد شو. في نهاية حديثنا، ناولتني ورقة تُبيّن كيفية بلوغ كاتماندو. كان ثمة باص ينطلق كلّ خمسة عشر يوماً من محطة أنفاق نوتربردج وويتستون.

خلت أنها أرادت التخلص مني، أن تُرسل بي بعيداً، بعيداً جداً. أخذت الورقة ولا نية لديّ البتّة في الذهاب إلى لندن.

في أثناء روايته القصة، ادّعى رايان تجاهل ما بلغ سمعه من أصوات هدير محرّكات الدراجات نارية تركن. وصلت جملة من الدراجين. وحيث جلست المجموعة، استحال على أفرادها أن يحدّدوا عدد الدراجين، غير أنّ تلك الجعجة بدت عدائية وخارج المألوف. قال مدير المطعم إنّ موعد الإقفال وشيك، غير أنّ الجميع الذين يشغلون الطاولات الأخرى لم يأتوا بحركة، وتابع رايان:

— ثمّ فاجأني ميرث بقولها: «عدا عن الوقت الذي يستغرقه السفر، والذي لن أحده لك الآن لنلا أنبسط عزيمتك، أريدك أن ترجع بعد قضاء أسبوعين بالضبط هناك. ساكون هنا في انتظارك. إذا لم تعد في اليوم المحدّد، لن تراني بعد الآن.

ضحكت ميرث. هي لم تستخدم تلك الكلمات تحديداً، فقد كانت أقرب إلى: «اذهب بحثاً عن روحك، فانا سبق أن وجدت روحي». وما لم تقله ذلك اليوم، ولن تعترف به حاضراً كان: «أنت روحي. ساصلّي كلّ ليلة لتعود سالماً، لنلتقي من جديد، لرغب في البقاء بقربي إلى الأبد، لأنك تستحقني وأنا استحقّك». أكانت ستنتظرني حقاً؟ أنا، رب العمل المستقبلي، لأوكانل دايري ميلك؟ ماذا ترى في رجل قليل الثقافة، وقليل الخبرة؟ ولم كان من المهمّ جداً لها أن أعمل بنصيحة غريب التقيته في حانة؟ مع هذا، كانت تعرف ما تفعله. فما إن وطأت ذاك الباص، بعد أن كنت قد قرأت كلّ ما أمكنني إيجاده عن نيبال، وكذبت على أهلي قائلاً إنّ الجيش

مدد خدمتي عقاباً لي على سوء سلوكي، وإنه سيبعث بي إلى قاعدة نائية في هيمالايا، حتى تحولت إلى شخص آخر. غادرت أحرق وعُدت رجلاً. وأنت ميرث للآقاتي، نمنا في بيتها، ولم نفرق مذك.

قالت ميرث، التي أدرك جميع من تحلقوا حول الطاولة أنها صادقة: - هذه هي المشكلة بالضبط! من الطبيعي أنني لا أريد أحرق إلى جانبي، لكنني لم أتوقع أن يرمي الكرة في ملعب، ويطلب إلي أن أرافقه بالعودة إلى هناك.

ضحكت أكثر.

- والأسوأ أنني قبلت!

لم يكن ياولو يشعر بالارتياح لجلوسه إلى جانبها، وتلامس فخذيها ومداعبتها لده بين حين وآخر. أما كارلا، فقد تبدلت النظرة في عينيها. من الواضح أنه لم يكن الرجل الذي تبحث عنه.

- والآن، هلاً تكلمنا عن الواقع الموازية؟

لكن في هذه الأثناء، اقتحم المطعم خمسة أشخاص بلباس أسود، حليقي الشعر، مزنرين بسلاسل، وعلى أجسامهم وشوم، تمثل سيوف نينجا ونجومها. اقتربوا من طاولة المجموعة، وطوقوها من دون التفوه بكلمة.

قال مدير المطعم: - حسابكم.

احتج رايان قائلاً: - لكننا لم ننته بعد من تناول الطعام، ولم نطلب الفاتورة حتى.

telegram @ktabpdf

- أنا من طلبها، قالها أحد الدراجين الذي دخلوا من فورهم.

هم الهندي بالنهوض، غير أن أحدهم دفعه من جديد على كرسية.

— قبل أن ترحلوا، يريد أدولف أن تقطعوا وعدًا بأنكم لن تطأوا هذا المكان ثانية. نحن نمقت الاستغلاليين. ويحب شعبنا النظام والقانون. النظام والقانون. والغرباء ليسوا موضع ترحيب هنا. عودوا من حيث أنتم، بمخدراتكم وحبكم الحر.

غرباء؟ مخدرات؟ حب حر؟

— سوف نرحل عندما نُنهي وجبتنا.

اغتاظ باولو لتعليق كارلا: ما الداعي لاستفزازهم أكثر؟ طوقهم أشخاص عرّف أنهم يمقتون كلّ ما مثّلوه، أشخاص بسلاسل منسدلة من بنطلوناتهم، وأكف دراجيهم التي كانت مساميرها المتنوعة المختلفة كلّ الاختلاف عن مسامير الزينة التي اشتراها في أمستردام. كانت مساميرهم مُسنّنة ومصمّمة للتهويل، والجرح، بل للإيذاء البليغ، متى قرّروا استخدام قبضاتهم للضرب.

استدار رايان لمواجهة من بدا أنّه الزعيم، الذي كان بداهة أكبر سنًا من الآخرين، وتعلو التجاعيد وجهه، وكان يراقب المشهد بصمت.

— نحن ننتمي إلى قبائل مختلفة، لكنّ كفاحنا واحد. سوف نُنهي وجبتنا ونرحل. لسنا أعداءكم.

من الواضح أنّ الزعيم كان يُعاني مشكلة في الحبال الصوتيّة إذ إنّهُ قَرَب من عنقه مكبّر صوت صغيرًا قبل أن يُجيب.

قال بصوت حديدي: — نحن لا ننتمي إلى أيّ قبيلة. اخرجوا من هنا في الحال.

ساد صمت أزلي، في حين حدّجت النسوة عيون الغرباء بنظرات مباشرة، ووازن الرجال خياراتهم، وانتظر الدراجون بصمت، باستثناء واحد منهم، التفت إلى مالك المطعم، وصرخ:

— عَقَمَ هذه الكراسي بعد رحيلهم. لا بُدَّ من أنهم قد جلبوا معهم الطاعون، والأمراض المنتقلة جنسياً، ومن بدري ما جلبوه أيضاً!

بدا الزبائن الآخرون أنهم لا يراعون ما كان يجري. لعلَّ واحداً منهم اتصل بهذه المجموعة، واحداً مَن اعتبر مجرد وجود أشخاص أحرار في العالم إهانةً شخصيةً.

— «اخرجوا من هنا أيها الجبناء.. قالها دراج آخر وصل من فوره، كان يرتدي ستره جلدية سوداء عليها تطريز له شكل جمجمة. تابع قائلاً: — سيروا حالاً، وعلى بعد أقل من كيلومترين، سوف تجدون بلدًا شيعيًا يُرخب بكم بلا شك. لا تاتوا إلى هنا وتؤثروا سلباً في شقيقاتنا وأسرنا. هنا، نحن مسيحيون، وحكومتنا لا تتساهل مع المشكلات، نحن هنا نحترم الآخرين. وضَبُوا أمتعتكم سريعاً، واخرجوا من هنا!

كان رايان يغلي. والهندي غير مبالي، فلعله شَهِدَ أمراً مماثلاً، أو أن تعاليم كريشنا تقضي بالآ ندير ظهورنا للقتال متى كُنَّا في ميدان المعركة. رشقت كارلا بنظرها أصحاب الرؤوس الحليقة، وتحديداً من قالت له إنهم لم يفرغوا بعد من تناول طعامهم. لا بُدَّ من أنها الآن متعطشة للدم، إذ اكتشفت أن الرحلة أقل تشويقاً ممَّا تصوَّرت.

كانت ميرث أول من تحرَّك من مكانه: تناولت حقيبتها، احتسبت ما عليها تسديده، ووضعت المال على الطاولة بروية. توخَّعت من ثمَّ إلى الباب. عرقل أحد الدراجين مرورها، ها هو استفزاز آخر لم يُردَّ أيَّ من أفراد المجموعة أن يتحوَّل إلى شجار، لكنَّها دفعته، بلا لباقة، بلا خوف، وتابعت طريقها.

وقف الآخرون، سدَّد كلُّ منهم حصَّته من الحساب، وغادروا، ما أثبت

نظرياً أنهم كانوا جبناءً فعلاً، قادرين على المضي في رحلة طويلة حتى نيبال، لكنهم يهربون من أبسط تهديد حقيقي. كان رايان الوحيد الذي بدا مستعداً لمواجهة الدراجين، غير أن راهول أمسكه بذراعه وحجّره، في حين أخذ أحد الرؤوس الحليقة يفتح سكين الجيب الذي بحوزته، ويُخلقه.

وقف الفرنسيان، الأب وابنته، أيضاً، سدّدا ما عليهما من الفاتورة، وغادرا عقب الآخرين.

قال الزعيم بصوته الحديدي عبر مكبر الصوت: يُمكنكما البقاء، سيدي. مكتبة الرمحي أحمد

— في الواقع، لا، لا يُمكنني. أنا معهم. من العار ما حدث للتو، هنا، في هذا البلد الحز بمناظره الطبيعية الخلّابة. سيكون الانطباع الأخير، الذي سيلازمنا عن النمسا، ذاك النهر الذي يشق الصخر وجبال الألب وجمال فيينا وروعة دير ملك. أما زمركم أيّها الزعران....

جذبت ابنته من ذراعه، لكنّه تابع الكلام،

— ... الذين لا يُمثلون هذا البلد، فسوف ننساكم سريعاً. لم نأب من فرنسا من أجل هذا.

اقترب درّاج من ورائه ولكمه على ظهره. وقف السائق الإنجليزي بينهما، وقد ارتسمت الحدة على عينيه. حدج الزعيم ببصره من دون أن ينطق بكلمة، كانت الكلمات غير مُجدية، فحضوره في هذه اللحظة بدا أنّه يروّع الجميع. راحت ابنة الفرنسي تصرخ. همّ من بلغوا عتبة الباب بالرجوع، غير أن راهول أوقفهم. ذلك أن المعركة خاسرة سلفاً.

عاد أدراجه إلى داخل المطعم، أخذ الأب وابنته من ذراعيهما، ودفع باقي المجموعة إلى الخارج. توجّهوا جميعاً إلى الباص. كان السائق آخر من غادر مُحملًا، بلا مهابة، في زعيم زمرة السفّاحين.

– فلنرحل من هنا، سنرجع أدراجنا بضعة كيلومترات، وننام في بلدة أخرى.

– تعني أن نهرب منهم؟ ألهذا السبب سافرنا كل هذه المسافة، لكي نهرب عند أوّل شجار؟

كان هذا كلام الرجل الأكبر سنّاً في المجموعة. وبدأت الفتاتان اليانعتان الآن مرتاعتين.

قال السائق، وهو ينطلق: – بالضبط. فلنهرب. في المرات القليلة التي قدت فيها هنا الرحلة، هربت من أمور كثيرة، ولا أرى في ذلك مذلة. هذا أفضل من أن نصحو في الغد على عجالات مثقوبة، ونعجز عن مواصلة الرحلة، لأنني لا أملك سوى عجلتين احتياطيتين.

بلغوا البلدة، وتوقفوا في شارع بدا هادئاً. كان الجميع متوترين ومخضوضين بعد ما جرى في المطعم؛ لكنهم الآن، شكّلوا مجموعة قادرة على صد أي اعتداء. ومع ذلك، قرّروا النوم في الباص.

حاولوا جاهدين أن يناموا، لكن بعد ساعتين، برقت أنوار ساطعة أنارت داخل الباص.

«POLIZEI».

فتح واحد من عناصر الشرطة الباب وردّد بضع كلمات. وإذا كانت كارلا تجيد الألمانية، فقد شرحت للجميع أنّ عليهم التّرجل كما هم في ثيابهم فقط، من دون جلب أي شيء. في تلك الساعة من الليل، كان البرد قارساً، غير أنّ عناصر الشرطة، رجالاً ونساءً، منعوهم من أخذ أي شيء. كانوا يرتجفون من البرد والخوف، لكن بدا أنّ أحداً لا يُبالي بهم.

صعد عناصر الشرطة إلى الباص، وفتحوا كلّ الحقائب وحقائب الظهر وأفرغوا محتوياتها على الأرض. وجدوا غليون ماء يُستخدم عموماً لتدخين الحشيشة.

صادروه.

طالبوا بكلّ الأوراق الثبوتية للمجموعة، وعابنوها ورقة ورقة في ضوء المصباح، تحقّقوا من اختتام الدخول، وقلبوا كلّ صفحة بحثاً عن

أَيَّ تزوير، كانوا يُسلطون الضوء على الصورة، على الجواز، ويرفعونه من ثم إلى وجه الشخص المعني. عندما وصلوا إلى الفتاتين، الراشدتين، على ما يُزعم، توجه أحد العناصر إلى سيطرة الشرطة، وأذاع أمرًا ما عبر اللاسلكي. انتظر قليلاً، أو ما برأسه ثم رجع إلى الفتاتين.

وتولت كارلا الترجمة.

– علينا أخذكما إلى مكتب خدمات القاصرين. سوف يأتي أهلكما لاصطحابكما. قريباً، في غضون يومين أو أسبوع، هذا رهن قدرتهم على قطع تذاكر السفر جواً أو براً بالباص، أو على استئجار سيارة.

كانت الفتاتان واقعتين تحت أثر الصدمة. شرعت إحدهما بالبكاء، غير أن الشرطة تابعت بنبرة متواترة، – لا أدري ما الذي تحاولان فعله، وليس يعنيني. لكن رحلتكما تنتهي هنا. أنتعجب كيف تمكنتما من اجتياز كثير من الحدود من دون أن يدرك أحد أنكما فازتان.

التفتت إلى السائق.

– يمكننا مصادرة باصك بسبب ركنه غير المشروع. لكن السبب الوحيد الذي يمنعني من ذلك هو أنني أريدكم أن تغادروا في أقرب وقت ممكن وأبعد ما يكون. ألم تر أن الفتاتين قاصرتان؟

– رأيت ما بدا في جوازيهما، وهو أمر مختلف عما تلمحين إليه سيدتي.

كانت الشرطة ستكمل كلامها لتوضح كيف أن الفتاتين زورتا الوثائق، وكيف يبدو واضحاً للعيان أن كلا منهما قاصرة، وأنهما فرتا، لأن إحدهما زعمت بأن الحشيشة في نيبال أفضل مما هي في اسكتلندا. هذا على الأقل ما كان مدوناً في الملف، وما أذيع عبر اللاسلكي. كان أهلكما يائسين. لكنها قررت فضّ الحديث عند ذاك الحدّ، ففي النهاية، هي لا تُدين بالتبرير إلا لرؤسائها.

صادرت الشرطة جواز سفر كل من الفارتين، وطلب إليهما ان تتبعانهن من دون الأخذ باحتجاجاتهما. غير أن الشرطية المسؤولة لم تولهما أي اهتمام. هما لا تتكلمان الألمانية. وبالقابل، رفض أفراد الشرطة الآخرون الذين لا بُدَّ من أنهم يعرفون الإنجليزية، الكلام بلغة غير لغتهم.

أشارت إليهما الشرطية بالصعود إلى الباص. وطلبت إليهما أن تأخذا متاعهما من بين فوضى الأمتعة، الأمر الذي استغرق بعض الوقت، فيما نجمد الآخرون في الخارج. أخيراً، خرجتا، واقتيدتا إلى سيارة شرطة.

قال ملازم أبقي عينيه على المجموعة: - هلموا، ارحلوا الآن.

سأل السائق: - بما أنكم لم تجدوا شيئاً، فلم علينا الرحيل؟ هل من مكان يجوز فيه الركن من دون خطر مصادرة باصنا؟

- ثمة موقف على مقربة، قبيل مدخل المدينة. يُمكنكم النوم هناك، لكن يُفضّل أن ترحلوا مع بزوغ الفجر. ذلك أن رؤية مناظركم تزعجنا. اصطفّ المسافرون ليستعيد كل منهم جواز سفره، وتوجهوا من ثم إلى الباص. غير أن السائق وسنّده راهول لم يحرك ساكناً.

- ما جريمتنا؟ لماذا لا يحقّ لنا المكوث هنا ليلاً؟

- لست مضطراً إلى الرد عليك. فإذا كنت تفضّل أن أصحابكم جميعاً إلى المركز، حيث سيكون علينا التواصل مع بلاد كل منكم وأنتم تنتظرون في زنزانة لا تدفئة فيها، فلا مانع لدينا البتة. وأنت، سيدي، قد تُتهم بخطف قاصرتين.

انطلقت إحدى سيارات الشرطة التي نقلت الفتاتين، ولم يعرف أي من الركاب الآخرين عنهما شيئاً بعد ذلك.

حدّق الملازم إلى السائق، وحدّق السائق إلى الملازم، وحدّق راهول إليهما
كليهما. استسلم السائق أخيرًا، وثب في الباص وأداره منطلقًا.

لَوْح لهم الملازم مودّعًا بابتسامة ساخرة. لا يستحق هؤلاء الناس حتّى أن
يكونوا أحرارًا، يطوفون العالم من طرف إلى آخر، ناثرين فيه بذور الثورة.
ما جرى في فرنسا في أيار من العام ١٩٦٨ كان كافيًا، ووجب قمع انتشار
المعارضة بأيّ ثمن.

بالطبع لم يكن للهيبيين وأشباههم أي دخل بأيار ١٩٦٨، غير أنّ الناس
تمكّنوا من خلط الأمور، ومن محاولة إنهاؤها مهما يكن.

لم يؤدّ السائق بأي شكل من الأشكال أن يذهب معهم: كانت
لديه أسرة، وبيت، وأولاد، وطعام، وأصدقاء في سلك الشرطة. كما لو أنّ
وجودهم على أبواب بلد شيوعي لم يكن بحده كافياً، كان أحدهم قد
كتب في الصحيفة أن السوفيت قد غيروا التكتيك لديهم، وشرعوا الآن في
تكريس الناس لإفساد الأعراف والتقاليد، وتآليبهم ضدّ حكومات بلادهم.
أما هو، فكان هذا القول في رأيه جنونياً نوعاً ما وغير منطقي، لكن فضل
عدم المجازفة.

تحدثوا جميعاً في شأن الجنون الذي اختبروه من فورهم، باستثناء باولو الذي بدا أنه فقد القدرة على الكلام، وتبدّل لونه. سألته كارلا إن كان بخير، ذلك أن من المستحيل أن تسافر مع شخص أبدى خبئه عند أول ظهور للشرطة. أجابها أنه على خير ما يرام، وأنه أسرف قليلاً في الشرب، وبدأ يشعر بالسقم. عندما توقف الباص في الموقف الذي أشار إليه الشرطي، كان باولو أول من ترخّل. تقياً إلى جانب الطريق، بعيداً عن الأنظار، من دون أن يلاحظ أحد. فوحده يعلم بما مرّ به، بماضيه في «بونتا غروسا»، بالأهوال التي كانت تستحوذ عليه عند عبور كلّ حدود. والأسوأ، أهوال معرفته أنّ مصيره وجسمه وروحه سترتبط دوماً بكلمة «شرطة». لن يشعر يوماً بالأمان. كان بريئاً عندما ألقي به في السجن وعُذّب. لم يرتكب جرماً في حياته كلّها إلا جرم تعاطي المخدرات من وقت إلى آخر. لكنّه لم يحملها يوماً، حتّى في أمستردام، التي لم يكن لذلك فيها أي عواقب بالمطلق.

في النهاية، كان سجنه وتعذيبه أمراً ماضياً من منظور حسي، لكنهما بقيا حاضرين في واقع موازٍ ما، في إحدى الحيوانات الكثيرة التي عاشها بالتزامن.

وإذ لم يُنشد سوى الصمت والعزلة، فقد جلس بعيداً عن الجميع. دنا منه

راهول وهو يحمل كوبًا من أحد أنواع الشاي الأبيض البارد. شربه باولو وكان له طعم اللبن الزبادي الفاسد.

— سوف تتحسن حالك بعد قليل. لا تستلق ولا تحاول النوم الآن. ولا تقلق بشأن تبرير ما فعلت. بعض الأجسام أكثر حساسية من سواها. جلسا هناك بعض الوقت بلا حراك. بدأت المادة تعطي مفعولها بعد ربع ساعة. نهض باولو لينضم إلى المجموعة التي أوقد أفرادها نارا، وراحوا يرقصون حولها على صوت مذياع الباص. رقصوا ليطردوا شياطينهم، رقصوا ليظهروا أنهم أقوى الآن، شاءوا أم أبوا.

قال راهول: — ابق قليلاً بعد. ينبغي لنا أن نصلي معاً.

ردّ باولو: — لا بدّ أنه كان تسمماً بالغذاء. لكنّه عرف، من التعابير التي ارتسمت على وجه راهول، أنّه لم يصدّقه البتّة. جلس باولو من جديد، وجلس الآخر قبالة.

— فلنقل إنك محارب في جبهة قتال، وإنّ الرب المنور حلّ ليُشاهد المعركة. لنقل إنك تُدعى أرجونا وإنّه يطلب إليك ألا تتراجع، أن تمضي قدماً، وأن تحقّق قدرك، لأنّ من غير الممكن لأحد أن يُقتل ولا أن يموت، ولأنّ الوقت أزلي. وقد سبق لك، أنت البشري، أن مررت بوضع مماثل في أحد أسفارك السابقة عبر دولاب الزمن، وأنك ترى الوضع يتكرّر. حتّى ولو كان مختلفاً، فإنّ عواطفك تبقى نفسها. ذكّرني باسمك.

— باولو.

— إذن يا باولو أنت لست أرجونا، القائد الجبار الذي خشي أن يجرح أعداءه، لأنّه كان رجلاً صالحاً، ولم يرق لكريشنا ما تنهى إليه، لأنّ أرجونا كان ينسب إلى نفسه قدرة غير مقدّرة له. أنت، أنت باولو، جنّت

من بلد بعيد، وتمرّ، كما تمرّ جميعاً، بلحظات شجاعة ولحظات حُبٍ.
وفي لحظات الحُب، يملكك الخوف.

غير أنّ الخوف، خلافاً لما تظنّه الأغلبية، مُتجذّر في الماضي. يقول
بعض العلّامين الروحيين من بلادي: في كلّ خطوة تخطوها إلى أمام،
سينتابك الخوف إزاء ما ستجده.. لكن كيف لي أن أخاف إزاء ما سأجده،
ما لم أختبر الألم يوماً، والفراق، والعذاب الداخلي أو الخارجي؟

اتذكر حبّك الأوّل؟ دخل من باب يفيض نوراً وتركته يحتلّ كلّ
شيء، يُنير حياتك، يملأ أحلامك، إلى أن حلّ يومٌ، كما هي دوماً حال الحب
الأوّل، رحل فيه. لا بدّ أنّك كنت في السابعة أو الثامنة من عمرك، أحببت
فتاةً صغيرة جميلة بمثل سنّك. وجدت لنفسها حبيباً أكبر منك، وبقيت
وحدك، تتعذب، تُقسم بأنك لن تحبّ يوماً فتاةً أخرى في حياتك، لأنّ الحب
يعني الفقد.

مع ذلك، أحببت من جديد، لأن من المستحيل تخيل حياة مجردة من
هذا الشعور. وواصلت الحب والفقد، إلى أن التقيت إحداهنّ...

لم يسع باولو سوى التفكير في أنّهم سيدخلون غداً البلد الذي تاتي منه
إحدى النساء اللاتي فتحنّ لهنّ قلبه، التي أغرم بها والتي، مرّة أخرى، فقدتها.
هي التي علّمتها الكثير من الأمور، بما فيه ادّعاء الشجاعة في أوقات اليأس.
الحقّ أنّ دولاب الحظّ يدور في دائرة، يسلب أفراحاً ويُعطي أتراراً، يسلب
أتراراً ويُعطي أفراحاً آخر.

أبقت كارلا عيناً على الزّجلين المتسامرين، وعيناً على ميرث لنلا تقترب
منهما. كان الحديث مطوّلاً. لم لم ينضمّ باولو إليهم بعد ويرقص قليلاً

حول النار، لكي يطرد الذبذبة السيئة التي خيمت في المطعم ولازمتهم حتى
البلدة حيث ركنوا الباص؟
قررت أن ترقص قليلاً بعد، فيما أبرقت الشرارات المتطايرة من النار
سواء ليل بلا نجوم.

كان الاهتمام بالموسيقا من اختصاص السائق الذي كان هو أيضاً يتعافى
من أحداث الليلة، رغم أنها لم تكن المرة الأولى التي يختبر فيها أمراً مماثلاً.
كلما صدحت الموسيقا وارتفع إيقاعها على إيقاع الرقص، كان أفضل.
خطر له احتمال عودة الشرطة لزجرهم، لكنه قرّر أن يسترخي. لم يكن
يريد أن يعيش بخوف بسبب أشخاص اعتبروا أنفسهم أصحاب السلطة،
وبالتالي تسلطوا على غيرهم، وحاولوا أن يفسدوا عليه يوماً من حياته.
يوماً واحد قد يبدو تافهاً، لكن يوماً واحداً كان أغلى ما لديه على هذه
الأرض. يوم واحد فقط، توصلت والدته أن يُنعم عليها به وهي على فراش
الموت. يوم واحد كان أثمن من ممالك الأرض جمعاء.

هنا ثلاث سنوات، أقدم مايكل، وهو السائق، على أمرٍ لا يمكن تصوّره. بعد أن حاز شهادة في الطب، قدّم إليه والداه سيارة فولسفاكن مستعملة. وبدل أن يخال بها أمام الفتيات أو أن يزهو بها أمام أصدقائه في أدنبره، انطلق بعد أسبوع في سفرة إلى جنوب إفريقيا. كان قد ادّخر من المال ما يكفيه لسفر سنتين أو ثلاث، وذلك بالعمل طبيباً مقيماً في عيادات خاصة. حلّم باستكشاف العالم، إذ كان قد استوفى معرفته لجسم الإنسان ورأى هشاشته.

بعد أيام لا تحصى، عبّر خلالها سلسلة من المستعمرات القديمة، فرنسية وإنجليزية، يعتني بالمرضى ويؤاسي المنكوبين، تعود فكرة الموت الوشيك، وقطع عهداً على نفسه ألا يدع يوماً الفقراء بلا عناية، ولا المتروكين بلا عزاء. واستخلص أن للإحسان مفعولاً مُنقِذاً وحمائياً؛ لم يُعانِ الضيق مرّة، ولم يشعر بالجوع مرّة. ولم تكن سيّارته الفولسفاكن المصنوعة منذ اثنتي عشرة سنة، مُعدّة لهذا النوع من الأسفار، لكنّها صمدت، باستثناء ثقب أصاب عجلتها. تلك البلدان التي كانت في حالة حرب دائمة. ومن دون أن يدري، راح الخير الذي قدّمه مايكل، يسبقه أينما حلّ. كان يُستقبل على أنّه المُنقذ في كلّ بلدة توقّف بها.

وبمحض المصادفة، وقع على مركز للصليب الأحمر في قرية جميلة قرب بركة في الكونغو. ولما كان صيته قد ذاع فيها، فقد زوّده باللقاحات

ضد الحمى الصفراء، والضمادات، والأدوات الجراحية، وطلبوا إليه بحزم ألا ينخرط في النزاع، وأن يقصر شأنه على معالجة الجرحى من الطرفين. هنا هدفنا، شرح له أحد الشبان في المركز، «نشفي فقط ولا نتدخل».

والسفرة التي خطط مايكل لإتمامها في شهرين، امتدت سنة تقريباً. كان يجتاز أميلاً، ونادراً ما كان وحيداً. وغالباً ما نقل معه نسوة عجزن عن مواصلة السير بعد أيام كثيرة على الطريق أمضيتهن هرباً من العنف والحروب القبلية الدائرة في كل مكان. وبينما كان يعبر نقاط تفتيش لا تُحصى، كان يشعر وكأن قوة غامضة تُعينه.. وبمجرد النظر إلى جوازه كانوا يدعونه يمر، لأنه ربما شفى أخاً، ابناً، صديقاً صديق.

أثر به ذلك كثيراً. ونذر نذراً لله وتضرع إليه أن يسمح له بالعيش كل يوم خادماً، ويوماً، يوماً واحداً، على صورة المسيح، الذي كرس له نفسه بتمامها. ففكر في أن يصبح كاهناً بعد بلوغه الطرف الآخر من القارة الإفريقية.

عندما وصل إلى كايب تاون، قرّر أن يستريح قبل أن يبحث عن دير ليدخله مُبتدئاً. كان معبوده القديس إغناطيوس دي لويولا، الذي تبع مسيراً يشبه مسيره، وسافر إلى جزء من العالم قبل أن يؤسس الرهبنة اليسوعية بعد ذهابه إلى باريس بهدف تحصيل العلم.

وقع مايكل على فندق متواضع ورخيص. وعقد العزم على الاسترخاء أسبوعاً لكي يخرج من جسمه كل الأدرينالين، ويعمه السلام من جديد. حاول ألا يفكر في ما رآه. فلا طائل من العودة إلى الماضي، لأن الماضي لا يخدم سوى في تكبيل أقدامنا بأغلال وهمية، والقضاء على كل أثر بالأمل في الإنسانية.

لذا، حوّل انتباهه إلى المستقبل، فكّر في كيفية بيع سيارته، وكان يتأمل منظر البحر من نافذته من الصباح حتّى المساء. راقب تدرّجات لون الشمس والمياه تتبدّل بحسب الساعة، وكذلك الرجال البيض البشرة الذين يتنزّهون بقبعاتهم الاستكشافية عند الشاطئ، يدخنون الغليون، إلى جانبهم نساؤهم اللواتي تأنقن وكأنّهن في البلاط الملكي بلندن. لم يكن من شخص أسود واحد على الجادة المحاذية للشاطئ، بل البيض فقط. أحزنه ذلك إلى أبعد حدّ، كان العزل العرقي رسمياً في البلاد. لكن في الوقت الحالي لم يكن في وسعه سوى الصلاة.

صلى من الصباح إلى المساء ملتصقاً بالوحي، مهيناً نفسه، للمرة العاشرة، لممارسة التمارين الروحية التي اتّبعتها القديس إغناطيوس. أراد أن يكون مُستعداً عندما تحين اللحظة.

صباح اليوم الثالث، وبينما كان يتناول الفطور، دنا من طاولته رجلان يرتديان قميصين فاتحين.

قال أحدهما: — أنت إذن الرجل الذي يكرّم اسم الإمبراطورية البريطانية!

الإمبراطورية البريطانية؟ هي لم تعد موجودة، فقد حلّ محلّها الكومنويلث. غير أنّ كلمات الرجل أخذته على حين غرة.

أجاب من دون أن يراعي استيعابهما: — جُلّ ما قمت به هو تكريم كل يوم بيومه.

وفي الواقع، لم يفهما شيئاً، إذ اتخذ الحديث المنحى الأشدّ خطورة الذي أمكن أن يتصوّرهُ.

— أنت محبوب ومحترم أينما حللت. الحكومة البريطانية في حاجة إلى أمثالك.

لو لم يُضف الرجل عبارة «الحكومة البريطانية»، لخال مايكل أنه كان يُعرض عليه العمل في المناجم أو المزارع أو معامل تحويل المعادن، بصفة رئيس عمال أو طبيب. غير أن «الحكومة البريطانية» عنت أمراً آخر. كان مايكل رجلاً صالحاً، لكنّه لم يكن ساذجاً.

— لا، شكرًا. لديّ مخططات أخرى.

— مثل ماذا؟

— أن أصبح كاهنًا. أن أخدم الله.

— ألا تعتقد أنك ستخدم الله بخدمة بلادك؟

فهم مايكل أنه لم يعد بمقدوره المكوث أكثر في المكان الذي عانى طويلاً لبلوغه. كان مُكرهًا على العودة إلى اسكتلندا على متن الرحلة الجوية التالية. لحسن الحظ، كان يملك المال.

نهض من دون أن يُفسح للرجل مجال مواصلة الحديث. عرف ما كان يدعونه، إليه بكل لطف، أن يُمسي جاسوسًا.

ربطته علاقة جيّدة بالجيش القبلية، والتقى الكثير من الناس، وكان أمرًا محسومًا، يستحيل أن يخون من وثقوا به.

جمع أغراضه، أعلم المدير أنّه يودّ بيع سيارته، وترك له عنوان صديق يُرسل إليه ثمنها. توجه إلى المطار، وبعد إحدى عشرة ساعة، ترجّل من الطائرة التي حطّت في لندن. وبينما كان ينتظر القطار المتوجّه إلى المدينة، قرأ لوحة الإعلانات المبوبة، لفته إعلان محدّد كان غارقًا وسط إعلانات تطلب عاملات تنظيف وزملاء سكن ونُدلاً وفتيات يرمن العمل في نوادٍ ليلية. «مطلوب: سائقون مستعدّون للذهاب إلى آسيا». وقبل الذهاب إلى المدينة، انتزع الإعلان عن الحائط وتوجّه مباشرة إلى العنوان المذكور

فيه. كان مكتبًا صغيرًا جدًا كُتب على لافتته، "Budget Bus" (الباص التوفيرى).

أجابه شاب طويل الشعر، وهو يفتح النافذة لطرد رائحة الحشيشة التي عبق بها المكان: — لقد شُغِلت الوظيفة. لكنني سمعتُ أنهم في أمستردام يبحثون عن أشخاص جديرين. ألدك خبرة؟
— لا بأس بها.

— اذهب إذن قل لهم إنك من قبل ثيو، هم يعرفونني.
مَدَّ إليه بورقة عليها اسم أكثر حيوية من ذاك الذي حمله الباص الحالي، كُتب عليها "Magic Bus"،

زوروا بلاذًا لم تتصوّروا يومًا أن تطأها أقدامكم. التكلفة: سبعون دولارًا للشخص الواحد، مقابل السفر فقط. اجلبوا الباقي معكم، باستثناء الخدّرات، وإلا سنُنحر أعناقكم قبل أن تتمكنوا من بلوغ سورية.

أظهرت الورقة صورة باص بالوان فافعة، أمامها صفّ من الأشخاص يؤدّون علامة السلام، إشارة النصر التي عُرف بها تشرشل والهيبيّون. ذهب إلى أمستردام، ووظفوه في الحال. من البديهي أن الطلب فاق العرض.

كانت هذه رحلته الثالثة، ولم يكلّ قط من اجتياز أخوار آسيا. بدّل الشريط الموسيقى، ووضع مكانه شريطًا بقائمة أغانٍ ولفّها بنفسه. كانت

الأغنية الأولى لداليدا، وهي مغنية مصرية تعيش في فرنسا، ولاقت نجاحًا في أوروبا كلها. تحسن مزاج الركاب، فقد زال الكابوس.

لاحظ راهول أن صديقه البرازيلي قد تعافى تمامًا.

– رأيت كيف واجهت زمرة السفّاحين ذوي الملابس السود بقليل من الخوف. كنت على استعداد للقتال، لكن كان لذلك أن يورطنا في مشكلة. نحن حُجّاج، ولسنا سادة الأرض. نحن رهن ضيافة الآخرين. أوما باولو برأسه موافقًا.

– مع ذلك، عندما جاءت الشرطة، تسمرت. أنت فاز؟ هل قتلت أحدا؟
– أبدًا، لكن لو أمكن لي ذلك منذ بضع سنوات، لفعلتها بالتأكيد. المشكلة أنني لم أر قط وجوه ضحاياي المحتملين.

من دون الدخول في التفاصيل، شرع باولو يخبر راهول قصة «بونتا غروسا، لنلا يظن أنه يكذب. لم يبدِ الرجل الهندي أي اهتمام خاص.
– أه، خوفك إذن شائع أكثر كثيرًا مما تظن: الخوف من الشرطة. الجميع يخافون الشرطة، حتّى أولئك الذين صرفوا حياتهم في الامتثال للقانون.

ساعدت الملاحظة باولو على الاسترخاء. لح كارلا تقترب.

– لم الانعزال؟ الآن بعد أن رحلت الفتاتان قرّرتما أن تحلّا محلّهما؟

– نستعدّ للصلاة، هذا كلّ ما في الأمر.

– أيمكنني مشاركتكما؟

– رقصك أيضًا شكل من أشكال تسبيح الله. ارجعي إلى الآخرين وواصلِي ما كنت تفعلينه.

غير أَنَّ كارلا، ثاني أجمل النساء على متن الباص، لم تكن مستعدة للاستسلام. أرادت أن تصلّي على غرار البرازيليين. أما الهنود، فسبق أن رأتهم في أمستردام، يصلّون متّخذين وضعيات جسدية لاعتيادية، رأت البقعة المائلة بين عينيّ كلّ منهم، وتلك الهالة، وكأنّهم يصوّبون أنظارهم إلى اللانهاية.

اقترح باولو أن يمسك الواحد بيد الآخر. ولحظة كانت على وشك تلاوة الآية الأولى من صلاة، قاطعها راهول.

— لنُدع هذه الصلاة اللفظية لوقت لاحق. الأفضل اليوم أن نصلي بالجسد: فلنرقص.

رجع إلى النار، تبعه باولو وكارلا. رأى الجميع في الرقص والموسيقى سبيلاً للتحرّر من أجسادهم. في القول لأنفسهم: «هذه الليلة، نحن هنا معاً، سعداء، رغم جهود قوى الشرّ التي حاولت تفريقنا. نحن هنا معاً، وسنظلّ معاً على طول الدرب أمامنا، رغم سعي قوى الظلمات إلى عرقلة رحلتنا. اليوم، نجتمع هنا معاً. ويوماً ما، عاجلاً أم آجلاً، علينا أن نتبادل تحيات الوداع، حتّى ولو لم يتعرّف واحدنا إلى الآخر جيّداً، حتّى ولو تبادلنا من الكلام بعضه وليس كلّ ما امكن أن نتبادلّه. نحن هنا معاً لدافع غامض لا ندركه. إنّها المرّة الأولى التي رقصت فيها المجموعة حول نار، كما رقص الأقدمون في زمن ما، عندما كانوا أقرب إلى الكون، وشاهدوا السحب والعواصف، والنار والرياح تتحرّك بانسجام في السماء المرصعة بالنجوم، وقرّروا أن يرقصوا احتفاءً بالحياة.

الرقص يحوّل كلّ شيء، ويستدعي كلّ شيء، ولا يُدين أحداً. الأحرار يرقصون، حتّى وإن وجدوا أنفسهم في زنزانة أو على كرسي مدولب، فليس الرقص تكراراً لحركات معينة، بل هو تحدّث مع كيان،

أكبر وأقدر من كل شيء وكل أمرىء. الرقص هو النطق بلغة نتخطى
الأنانية والخوف.

وتلك الليلة في أيلول من العام ١٩٧٠، بعد أن طردوا من المطعم وتعرضوا
لذلة من الشرطة، رقصوا وشكروا الله على منحهم حياة أسرة جداً، متحدية
جداً وممتلئة جداً بالغرائب.

اجتازوا بيسر كل الجمهوريات التي تألف منها البلد المسمى
يوغوسلافيا (حيث ركب معهم مسافران إضافيان، أحدهما رسام والآخر
موسيقي). وبينما كانوا يسرون في بلغراد، العاصمة، تذكر باولو بحنان،
وإن بلا حنين، حبيبته السابقة التي غادر البرازيل للمرة الأولى برفقتها،
التي علمته قيادة السيارة وتكلم الإنجليزية وممارسة الحب. ارتحل في
مخيلته، وتصورها مع شقيقتها، تركضان في هذه الشوارع بحثاً عن ملجأ
من القصف خلال الحرب العالمية الثانية.

— ما إن تنطلق الصفارات، حتى نزل إلى القبو. كانت أمي تجلسنا
كائنا على حضنها، تطلب إلينا أن نفتح فمينا وتغطينا بجسمها.

— أن تفتحاً فميكما؟ لماذا؟

— لئلا تنفجر طبلة الأذن جزاء الصوت المدوي، ونفقد السمع بقيّة
حياتنا.

في بلغاريا، وبفضل اتفاق متبادل بين السلطات والسائق، كانت تتبعهم
باستمرار سيارة تقل أربعة أشخاص من النوع الخطير. وبعد الفرع العارم
الجماعي الذي عرفه الجميع في البلدة الحدودية في النمسا، أخذت الرحلة
تنوشح بالرتابة. كان المخطط أن يتوقفوا أسبوعياً في اسطنبول، لكن

الطريق أمامهم كانت لا تزال طويلة جداً. وبالأرقام الدقيقة، كانوا على مسافة مئة وتسعين كيلومتراً منها، وهو رقم لا أهمية له مقارنة بالكيلومترات الثلاثة آلاف التي سبق اجتازوها.

بعد ساعتين، لاحت أمامهم مئذنتا مسجدين كبيرين.

استنبول! لقد وصلوها!

سبق لباولو أن خطط بالتفصيل لكيفية صرف وقته في هذه المدينة. كان قد شاهد عرض الدراويش وتنانيرهم تدور حولهم. وإذا أدهشه هذا الرقص، قرّر أن يتعلمه، إلى أن أدرك أن الأمر لا يعدو كونه مجرد رقص. كان وسيلة لحادثة الله. أطلقوا على أنفسهم اسم المتصوّفين، وكان كل ما يقرأه عنهم، يزيده حماسة. فكّر في السفر ذات يوم إلى تركيا، للتدرب على أيدي الدراويش أو المتصوّفين. لكن لظالما تصوّر ذلك مشروعاً للمستقبل البعيد.

وإذا به فيها! اقتربت الأبراج، وازدحمت الطريق بمزيد من السيارات، وازدحم السير. وازداد الصبر وازداد الانتظار. لكنّه سيكون بينهم قبل طلوع النهار.

أعلن مايكل: - ترقّبوا بلوغنا وسط المدينة في غضون ساعة. علينا الكوث لأسبوع، لا للسياحة. فأنتم تعلمون أننا، قبل مغادرتنا أمستردام....

أمستردام! وكانَ قروناً قد مضت على ذلك!

- تلقينا تحذيراً أننا في بداية الشهر، وجراء محاولة اغتيال ملك الأردن، سنجتاز من دربنا جزءاً أشبه بحقل الغام. حاولت تتبّع الأحداث، ويبدو أنّ الوضع أهداً قليلاً. لكن قررنا، قبل مغادرة أمستردام، ألا نجازف.

لذلك سوف نسير وفق خطتنا لفترة قصيرة أيضًا. ضقت وراهل ذرعًا بتكرار الأمر نفسه كل الوقت. نحن نحتاج إلى تناول الطعام والشراب، والاستمتاع قليلاً. هنا كل شيء رخيص، بل رخيص جدًا، والأتراك أشخاص مذهلون، والبلد، رغم كل ما سترونه في الشوارع، ليس مسلمًا بل إنه علماني. اقترح مع ذلك على جميلاتنا أن يتحاشين من اللباس ما يستفز، وعلى أحبائنا الشبان ألا يثيروا أي شجار بذريعة أن أحدهم سخر من شعورهم الطويلة.

كانت الرسالة واضحة.

— وأمر آخر، عندما اتصلت من بلغراد لأعلمهم أن كل شيء بخير، أعلموني بأن ثمة من اتصل لإجراء مقابلة معنا، كي يعرف معنى أن يكون المرء هيبياً. قالوا في الوكالة إنها فرصة كي ترُج لخدماتها، ولم أكن في مزاج يسمح لي بالمجادلة. لذلك، كان الصحفي يعلم أين سنتوقف لنملاً خزان الوقود وبطوننا، وكان في انتظاري هناك. أمطرني بأسئلة لم أعرف تمامًا سبيلًا للإجابة عنها، واكتفيت بالقول إنكم كالرياح أحرار في الجسد والروح. أراد هذا الصحفي، الذي يعمل لمصلحة وكالة فرنسية كبيرة، أن يعرف إن كان بمقدوره أن يرسل شخصًا من مكتب الوكالة في اسطنبول ليلتقي واحدًا منكم مباشرة، فقلت إنني لا أعرف، وإننا سننزل في أرخص فندق نعثر عليه، حيث كل غرفة تتسع لأربعة...

قاطعه الفرنسي: — سادفح أكثر. سأحجز غرفة لي ولابنتي فقط.

قال رايان: — ونحن أيضًا سنحجز غرفة لاثنين.

رمى باولو كارلا بنظرة استفهام، وأخيرًا قالت: — «غرفة لاثنين لنا أيضًا. راق للمهمة الثانية في المجموعة أن نظهر أن البرازيلي النحيل رهن إشارتها.

حتى ذلك الوقت، كانا قد أنفقا من المال أقل مما توقعنا، لأنهما، في الدرجة الأولى تناولوا الشطائر، وناما في الباص. قبل أيام، كان باولو قد أحصى ثروته: بقي في حوزته ٨٢١ دولارًا بعد أيام لامتناهية من السفر. لانت كارلا قليلًا بسبب رتابة الأيام الأخيرة، وحدث بينهما مزيد من التلامس الجسدي، فقد نام أحدهما على كتف الآخر، وكان يشبكان أيديهما بين حين وحين. كان لديهم شعور بالاهتمام مريح جدًا، مع أنهما لم يتبادلا سوى قبلة، ولم يخوضا أي شكل آخر من أشكال الحميمية.

— في أي حال، توقعوا وجود صحفي في انتظاركم. إذا لم تشاءوا الكلام، فليستم مجبرين على قول شيء. وأنا أنقل إليكم ما قيل لي.

أخذت الزحمة تتحرك.

تابع مايكل بعد أن تهامس مع راهول: — ونسيْتُ ذكر أمر مهم. يسهل إيجاد المخدرات في الشوارع هنا: من الحشيشة إلى الهيرويين، سهولة إيجادها في أمستردام، أو باريس أو مدريد أو شتوتغارت. مع استثناء وحيد، هو أنكم إذا أوقفتم، فلن يستطيع أحد، لا أحد حقًا، إخراجكم من السجن في الوقت المناسب لمواصلة الرحلة. وأعذر من أنذر. آمل أن يكون كلامي واضحًا جدًا.

نعم أنذروا. لكن لم يكن مايكل على يقين بأنهم سيمثلون، خصوصًا وأنهم صرفوا ثلاثة أسابيع لم يلمسوا فيها أي نوع من المخدرات. وإذا كان يُبقي عينًا على كل من ركبانه من دون علمهم، فقد لاحظ، في خلال الأسابيع الثلاثة التي صرفوها معًا، أن لا أحد منهم كان يُبالي بما يستهلكه كل يوم في أمستردام، أو سواها من المدن الأوروبية.

ومرّة أخرى، لم يكن على يقين من أمر آخر؛ لم كان الجميع يُصرون على القول إنّ المخدرات تحتّ على الإدمان؟ بصفته طبيباً، شخصاً جرب خلال إقامته في إفريقيا عدداً من النباتات المهلوسة على نفسه ليرى إن كان بإمكانه استخدامها لمداواة مرضاه، كان على علم بأنّ مُشتقات الأفيون وحدها تولّد إدماناً.

آه، والكوكايين أيضاً، الذي ندر أن بلغ أوروبا، لأنّ الولايات المتحدة كانت تستهلك عملياً كلّ ما تنتجه الأنديز.

مع ذلك، فإنّ الحكومات قد أنفقت في كل مكان ثروة على الحملات الإعلانية لمكافحة المخدرات، في حين أنّ التبغ والكحول كانا يُباعان بحريّة في كلّ مكان. لعلّ ذلك هو السبب الذي دعا الجميع إلى القول إنّ المخدرات تحتّ على الإدمان: الأجندات السياسيّة، ميزانيات الإعلانات، وأمور من هذا القبيل.

كان على علم بأنّ الإيرلنديّة التي طلبت غرفة لشخصين لها ولبرازيلي، قد غمّست صفحة من كتابها في محلول LSD، لأنّها أخبرت آخرين بذلك. في الباص، كان الجميع على علم بكلّ شيء، وكانّ البريد الخفي، قد انتقل إليه. كلّما وجدت الوقت ملائماً، تمرّق قطعة من طرف الصفحة، وتعلّكها وتبتلعها، بانتظار حدوث الهلوسات الناجمة عنها.

لكنّها لم تكن مشكلة. فحمض الليسرجيك، الذي اكتشفه ألبرت هوفمان في سويسرا وأشاعه في العالم أجمع تيموثي ليري وهو أستاذ في جامعة هارفرد، والذي جرى حظره كمادة غير مشروعة، كان يتعدّر كشفه.

استيقظ باولو وذراع كارلا فوق صدره. كانت لا تزال تغط في نوم عميق. بقي مستلقياً يفكر في كيفية تعديل وضعيته من دون أن يوقظها.

كانت المجموعة قد وصلت إلى الفندق في وقت مبكر نوعاً ما. تناولوا جميعاً العشاء في المطعم نفسه. كان السائق على حق، كل شيء في تركيا رخيص جداً. وعندما صعد كل إلى غرفته، وجد باولو وكارلا أن غرفتهما بسرير لثنائي. من دون التفوه بكلمة، استحمّا، غسلا ملابسهما وعلقاها لتجف. ولشعورهما بالإرهاق، تهالكا على السرير. لم يفكرا سوى في النوم للمرة الأولى منذ أسابيع في سرير فعلي، غير أن جسديهما العاريين، اللذين تلامسا للمرة الأولى، كانا عازمين على أمر آخر. وسرعان ما وجدا أنفسهما يتبادلان القبّل.

ضُغِب على باولو بلوغ الانتصاب، ولم تساعد كارلا، اكتفت بالتوضيح أنها مستعدة للمضاجعة فقط متى كان هو كذلك أيضاً. كانت المرة الأولى التي تخطّت فيها الحميمية بينهما القبل وشبك الأيدي، لكن هل كان مُجبراً على إمتاع امرأة جميلة لمجرد وجودها إلى جانبه؟ هل سيحسن أنها أقلّ جمالاً وأقلّ اشتهاً إن لم يفعل؟

أما كارلا، ففكرت، فليتعذّب قليلاً مُعتقداً أنني سأستاء إذا قرّر أن ينام بدل مضاجعتي. إن وجدت أن الأمور لم تتطوّر، فسوف أقوم بما يلزم، لكن الآن، فلأنتظر.

انتصب أخيراً، ولجها، وارتعش وقذف أسرع ممّا تصوّر أيّ منهما، رغم محاولته جاهداً أن يحجم عن ذلك. في النهاية، كان قد انقضى وقت طويل قبل أن تشغل سريره امرأة.

كارلا، التي لم تبلغ أيّ رعدة، وعرف باولو ذلك، ربّتت رأسه بعطف، كما تُربّت رأس ولدها. مالت إلى الجانب الآخر من السرير وأدركت لحظتها مدى إحساسها بالإرهاق. نامت من دون أن تفكر في ما كان يُساعدُها في العادة لتغفو، وهو أيضاً.

عندما استيقظ، فكر في ليل أمس، وقرّر أن ينسحب قبل أن يُجبر على التحنّث فيه. وعلى مهل، أبعد عنه ذراع كارلا، ارتدى البنطلون النظيف الاحتياطي الذي كان في حقيبة ظهره، انتعل حذاءه، ولبس سترته، وبينما كان يهم بفتح الباب، سمع صوتاً يقول:

— إلى أين؟ ألن تلقي عليّ تحية الصباح؟

— صباح الخير. لا بُدّ من أن اسطنبول مدينة مشوّقة جدّاً، أنا متأكد أنها ستعجبك.

— لمَ لم توقظني؟

لأنني أعتقد أنّ النوم وسيلة لحادثة الله عبر أحلامنا. هذا ما تعلّمته في بداية دراستي القوى الخفية.

— لأنني حسبتك تحلمين حلماً جميلاً، أو حسبتك مرهقة. لست أدري. كلمات. مزيد من الكلمات. كلمات لم تُفلح سوى في تعقيد الأمور.

— انذكر ماذا حدث ليل أمس؟

مارسنا الحب. ومن دون أن نسعى إليه، لأننا كنا عاريين في السرير
نفسه.

– نعم. وأردت الاعتذار. أعرف أن ما حدث لم يكن في حسابك.

– لم يكن في حسابي أي أمر. أذهب أنت لملاقاة رايان؟

عرف أن سؤالها كما فصلت يفترض أن يكون «أنت ذاهب لملاقاة
رايان وميرث؟

– لا.

– اتعرف إلى أين ستذهب؟

– أعرف ما أريد البحث عنه، لكنني لا أعرف مكانه. عليّ أن أتعلم في
صالة الاستقبال، أمل أن يتمكنوا من إخباري.

أمل أن تكون قد انتهت من استجوابها له، ألا تجبره على إيضاح ما
كان يبحث عنه، عن مكان يجد فيه الدراويش، لكنها سألته.
تابع قائلاً: – سأحضر مراسم دينية لها علاقة بالرقص.

– هل تقضي يومك الأول في مدينة على هذا القدر من الروعة، وفي
بلد على هذا القدر من الخصوصية، في فعل الأمر نفسه الذي فعلته في
امستردام؟ أما كفاك هاري كريشنا؟ أما كفتك ليلة حول النار؟

بلى كانت كافية. لكن لأنها أثارت حنقه، ورغبة منه في استفزازها،
أخبرها عن الدراويش الدورابن الأتراك الذين كان قد رآهم في البرازيل.
إنهم رجال يعتمرون قبعات صغيرة، ويرتدون تنانير بيضاء لا غبار عليها،
يبدأون بالدوران على مهل، كما لو أنهم الأرض أو كوكب آخر. وبعد
وقت، تُفضي بهم هذه الحركة إلى الدخول في حالة من الانخفاف. هم

ينتمون إلى طائفة خاصة، معترف بها ومستنكرة في آن، في الإسلام مصدر وحيهم الأول. ينتمي الدراويش إلى طائفة المتصوفة التي أسسها شاعر من القرن الثالث عشر وُلد في بلاد فارس ومات في تركيا.

يُقرّ التصوّف بحقيقة واحدة لا ثاني لها: لا شيء قابل للانقسام، الخفي واللاخفي واحد، وكلّ امرئ مجرد خدعة بصرية من لحم وعظام. لهذا لم يهتم كثيرًا للنقاش الذي دار حول الوقائع الموازية عندما كانوا في الباص.

نحن كلّ شيء وكلّ واحد في آن، آن غير موجود في أيّ حال. ننسى ذلك لأنّ الصحف، والراديو، والتلفاز، تمطرنا يوميًا بوابل من المعلومات. لكن إن اعترفنا بـ «وحدة الوجود»، فلن نحتاج إلى سواها. سنفهم اللحظة وحيزة معنى الحياة، لكن هذه اللحظة الوحيزة ستمدنا بالقوة للبقاء حتى نعرف ما يُسمّى الموت، الذي هو في الواقع معبر لنا إلى الزمن الحَلَقِي.

— أفهمت؟

— تمامًا. من جهتي، سوف أذهب إلى البازار. أتصوّر أن من المحتّم وجود بازار في اسطنبول، حيث يعمل أشخاص ليل نهار ليُظهروا للسيّاح القلائل الذين يبلغون هذا المكان، التعبير الأصفى عمّا في قلوبهم: الفن. لا أنوي شراء شيء بكلّ تأكيد، ولا علاقة للمال بالأمر، بل لضيق الحيز في حقيبتي. لكنني سأبذل جهدًا، هذا حقيقياً، لكي يفهموني، ويفهموا إعجابي واحترامي لعملهم. لأنني أرى، رغم درس الفلسفة الذي لقّنتني إياه الآن، أن اللغة الوحيدة التي تهّم اسمها لغة الجمال.

توجّهت إلى النافذة، وراح ينظر إلى قدها العاري الذي بدأ ضوء الشمس يغمره. ومهما حاولت أن تكون مُزعجة، فقد كنّ لها احترامًا عميقًا. غادر

وهو يسأل نفسه إن كان من الأفضل الذهاب إلى بازار. سوف يكون أمراً شافهاً ولوج عالم التصوفين المُخلق، مهما قرأ عنهم من قبل.

وظلت كارلا عند النافذة تفكر: لمَ لم يدعها إلى مرافقته؟ ففي النهاية، أمامها ستة أيام هنا، ولن يقفل البازار أبوابه، ولا بُدَّ من أنَّ مقاربة تقليد، كالتصوف، سيكون تجربة لا تُنتسى.

كانا، مرّة أخرى، يرتحلان في اتجاهين متعاكسين، رغم محاولتهما جاهدتين التلاقي.

وجدت كارلا معظم أفراد المجموعة في الأسفل، دعاها كل إلى جولة معينة، إلى المسجد الأزرق، وإلى آيا صوفيا، وإلى المتاحف الأثرية. تطمح اسطنبول بالعالم السياحية الفريدة، ففيها مثلاً حوض ماء أرضي ضخم يقوم فيه اثنا عشر صفاً من الأعمدة (مجموعها ثلاثمئة وستة وثلاثون، قال أحدهم مُحدّداً)، كانت في الماضي خزان مياه لحاجات الأباطرة البيزنطيين. غير أنها اعتذرت قائلة إن لديها مخططات أخرى، ولم يسألها أحد أي شيء، تماماً كما لم يسألوها عن مشاطرتها الغرفة مع البرازيلي ليلاً. بعد أن تناول الجميع الفطور، ذهبت كل مجموعة إلى وجهتها.

كان الوجهة التي ستقصدها كارلا غير مُدرجة نظرياً في أي من الأدلة السياحية. سارت إلى ضفة البوسفور ووقفت تُحدّق إلى الجسر الأحمر الذي يربط بين أوروبا وآسيا. جسر! جسر يربط بين قارتين على قدر كبير من الاختلاف والبعد! دَخَنْت لفافتين أو ثلاثاً، أرخت قليلاً عن كتفها رباطي البلوزة البسيطة التي ارتدتها. واستفادت للحظة من الشمس، إلى أن قاربها ثلاثة رجال أو أربعة وحاولوا محادثتها. اضطرت أن ترفع بلوزتها من جديد إلى كتفها وتغيّر مكانها.

مذ لَف الضجر الرحلة، لجأت كارلا إلى الاستبطان، محاولة الرد على تساؤلها المفضل: لمَ أريد الذهاب إلى نيبال؟ قلما آمنت بهذه الأمور، وتربيتي اللوثرية لأقوى من أي بخور أو مانترا أو وضعيات جلوس أو تأمل أو كتب

مقدّسة أو طوائف باطنية. هي لم تحتج إلى الذهاب إلى نيبال كي تعثر على الإجابات، فقد سبق لها معرفتها. أضنتها حاجتها إلى أن تظهر على الدوام قوتها، وشجاعتها، وعدائيتها المستعرة، وروح التنافس الجامح لديها. كلّ ما فعلته في حياتها كان يرمي إلى التقدّم على الآخرين، ولم تفلح يوماً في التقدّم على نفسها. ومع أنّها كانت يانعة، فقد تعودت ما كانت عليه.

أرادت لكل شيء أن يتغير، غير أنّها كانت عاجزة عن تغيير ذاتها. أحببت أن تقول للبرازيلي أكثر مما قالت له، أن تجعله يعتقد بأنّها أضحت تشغل حيزاً أكبر من حياته بمرور كلّ يوم. خالجتها لذّة سقيمة لمعرفة أنّها شعر بالذنب لإخفاقه في التجربة الجنسية المريحة ليلة البارحة، وأنّها لم تفعل شيئاً لتطمئنه، وإن ببضع كلمات لطيفة. لم تقل: لا تقلق حبيبي (حبيبي!)، هكذا هي المرة الأولى دوماً، نحن نتعارف شيئاً فشيئاً. غير أنّ الظروف منعتها من التقرب إليه أكثر، وإلى غيره كذلك، إمّا لأنّها تفتقر إلى الصبر في تعاملها مع الآخرين، وإمّا لأنّ شركاءها لم يتعاونوا معها كثيراً، لم يحاولوا تقبلها كما هي. كانوا يبقون بينهم وبينها مسافة، عاجزين عن بذل أقلّ جهد لكسر حائط الجليد الذي تحتمي خلفه دوماً.

شعرت أنّها لا تزال قادرة أن تحبّ، من دون أن تتوقّع في المقابل لا تغييراً ولا امتناناً.

أحببت مرّات عدّة في حياتها. وفي كلّ مرّة، كانت طاقة الحبّ تبدّل الكون من حولها. ومتى تظهر هذه الطاقة، لطالما تفعل فعلها. غير أنّ الأمور كانت مختلفة في حالتها، فهي لم تحتمل أن تُحبّ مطوّلاً.

كان بها توقُّ أن تكون إناءً يضع الحب الكبير، أزهاره وثماره فيه، حيث المياه المنعشة ستبقى عليها نضرة كما لو أنها قُطفت للتو، لتقدِّم إلى الذي يتحلَّى بالشجاعة، نعم، الشجاعة، هي الكلمة الصحيحة، لينعم بها. لكن لم يأت أحدٌ من هذا القبيل، أو بالأحرى، كل الذين أتوا، رحلوا مذعورين. فهي لم تكن إناءً، بل عاصفة ممثلة بالبرق، بالريح، بالرعد، قوَّة طبيعيَّة يستحيل ترويضها، يصح أكثر توجيهها لكي تحرك الطواحين، وتثير المدن، أو تثبت الذعر.

تمنَّت لو أمكن لهم أن يروا ما فيها من جمال، لكن لم يرَ أي منهم سوى الإعصار، ولم يحاولوا حتَّى الاحتماء منه. فضلوا الهروب إلى مكان آمن.

انحرف فكرها من جديد إلى أسرتها. مع أن والديها كانا يمارسان إيمانهما اللوثري، لم يحاولا مع ذلك يوماً أن يفرضا عليها معتقداتهما. وككلِّ الأولاد في محيطها، بالطبع، تلقت في صغرها، مرة أو اثنتين، صفةً منهما، وجدتها طبيعيَّة، ولم تحفر فيها أثراً.

تفوّقت في دراستها، أبدعت في الرياضة، وكانت الأجلل بين زميلاتها في الصفِّ (وكانت تعرف ذلك)، ولم يصعب عليها قط أن تجد لها حبيباً. ورغم كلِّ شيء أثرت الوحدة.

الوحدة متعتها الكبرى. منشأ حلمها في السفر إلى نيبال لإيجاد كهف، والبقاء فيه وحدها إلى أن يشيب شعرها، وتسقط أسنانها، ويكفَّ القرويون المحليون عن جلب الطعام لها، ولتأمل غروب الشمس الأخير لها على الثلج، لا أكثر.

وحدها.

حسدتها زميلاتھا في الصف على يسر تعاطيھا مع الفتیان. وأعجب زملاؤها في الجامعة باستقلاليتها ومعرفتها ما تريده بالضبط. وذُهل زملاؤها في العمل لإبداعھا. في النهاية، كانت المرأة الكاملة، ملكة الجبل، لبوة الأدغال، مخلصه الأرواح التائهة. ما إن أتمت الثامنة عشرة من العمر، حتى انهالت عليها طلبات الزواج من شتى الرجال، الذين كانوا أغنياء في الغالب، دعموا طلباتهم بسلسلة من الامتيازات الضمونة، مثل المجوهرات (كان خاتمان مرضعان بالماس، من الخواتم الكثيرة التي تلفتها، كافيين لتسديد تكاليف تذكرتها إلى نيبال ولندھا بمال وفير يمكنھا من الإنفاق لوقت طويل).

وكلما تلقت هدية ثمينة، تحذر طالب يدها من أنها لن تعيدها إليه إذا افترقا. كان الرجال يضحكون، فقد أمضوا حياتهم يواجهون تحديات رجال أقوى منها، ولم يأخذوها على محمل الجد. كان يُفرضي بهم الأمر إلى الوقوع في الحفرة التي حفرتها حولها. ويُدركون لحظتها أنهم لم يدنوا في الحقيقة من هذه الفتاة المذهلة، بل وقفوا على جسر سلبي متزعزع لم يكن يحتمل ثقل التكرار اليومي. ويمضي أسبوع، شهر، وتحل لحظة الانفصال التي لا تحتاج إلى تبرير ولا يكون لدى أي منهم الشجاعة لاسترداد الهدايا.

ظل الأمر كذلك إلى أن فاجأها أحد طالبیھا بعبارة لن تنساها يوماً، وكانا، في اليوم الثالث من علاقتهما، وكانا يتناولان الفطور على السرير في أحد فنادق باريس الفخمة التي قصداها لحضور إطلاق كتاب (لا يمكن رفض سفرة إلى باريس، فهذا كان أحد مبادئها)، قال لها:

— أنت مكتئبة.

ضحكت. ذلك أنهما لم يكادا يتعارفان. فقد تناولا العشاء ليلة أمس في مطعم ممتاز، شربا أفضل النبيذ وأجود الشمبانيا، أو كان هذا ما لديه ليقوله لها؟

— لا تضحكي. أنت تعانين من الاكتئاب، أو القلق، أو كليهما. لكن من المؤكد أنك مع الوقت، ستتخذين دربا لا عودة لك منها. كلما أبكرت في تقبل ذلك، كان أفضل.

شعرت برغبة إخباره كم كانت محظية في حياتها؛ لديها أسرة رائعة، ومهنة تحبها، تحظى بإعجاب الآخرين، لكن لم يكن هذا ما نطقت به.

— ما الذي يدعوك إلى قول كهذا؟

كانت نبرتها محملة بالسخرية. أجاب الرجل، الذي عاهدت نفسها أن تنسى اسمه ذاك العصر تماما، بأنه يفضل عدم الخوض في التفاصيل، وأنه طبيب نفسي، لكنه لم يكن معها بهذه الصفة.

أصرت. لعله في أعماقه أراد خوض الموضوع. في تلك اللحظة، خالت أنه كان يحلم أن يقضي باقي عمره معها.

— بأي حق تقول إنني مكتئبة، ولم يمضِ على معرفتك لي سوى وقت وجيز؟

— لأن هذا الوقت الوجيز شكل ثماني وأربعين ساعة بقربك. سنحت لي فرصة مراقبتك خلال جلسة إطلاق الكتاب يوم الثلاثاء، وأمس على العشاء. هل حدث أن وقعت في الحب يوما؟ أحببت كثيرا من الأشخاص.

كانت كذبة.

— وما معنى أن تُحبِّي؟

ارتفعت لهذا السؤال إلى درجة أنها فكّرت بكلّ ما أمكن التفكير به للإجابة عنه. وإذا درأت خوفها، أجابت بصوت موزون:

— هو أن تُجيز كلّ شيء، أن تكفّ عن التفكير كلّ الوقت في شروق الشمس أو الغابات المسحورة، ألاّ تسبح عكس التيار، وأن تدع الفرح يغمرك. هذا في نظري معنى أن نُحبّ.

— تابعي.

— هو أن تصون حريتك بصورة لا تدع الشريك يشعر أبدًا بأنه عالق إزاءها. هو شعور هادئ، ساكن. وأستطيع القول إنه متجذّر بشكل ما. هو أن نُحبّ من أجل الحبّ، لا لسبب آخر، كالزواج والأولاد والمال وأمور مماثلة.

— كلام مرهف. لكن ما دمنا معًا، أقترح أن تفكّري في ما قلته لك. لا ينبغي أن نُفسد إقامتنا في هذه المدينة المميّزة في أن أجعلك تشكّين بنفسك، وأن تجعليني أعمل.

حسنًا، أنت على حقّ. لكن ما الذي دعاك إلى إخباري بأنني أعاني من الكآبة أو القلق؟ لم لا تهتمّ ولو قليلًا بما لديّ لأقوله؟

— وما الذي يدعوني إلى الاكتئاب؟

— من الإجابات المحتملة أنك لم تحبيّ يومًا حبًّا حقيقيًّا. لكن في هذه المرحلة، قد تكون إجابة مماثلة غير كافية. أعرف الكثير من المكتئبين الذين قصدوني لأنهم أفرطوا في الحبّ، لأنهم سلّموا أنفسهم كليًا. اعتقد

بصريح العبارة، ولا يجدر بي قول ذلك، أن لكابتك مصدرًا جسديًا. لا بُدَّ من أن جسدك يفتقر إلى مادة ما، ربّما كانت السيروتونين، أو الدوبامين. لكن في حالتك ليس النورادرينالين بكل تأكيد.

الكآبة إذن مشكلة كيميائية؟

— بالطبع لا، هناك ملايين العوامل. لكن ما رأيك أن نرتدي ملابسنا ونذهب في نزهة على ضفاف السين؟

— بالطبع، لكن قبل أن نفعل ذلك، انه فكرتك، أي عوامل؟

— قلت إن بمقدورنا أن نعيش الحب في العزلة. وهو أمر لا لبس فيه، لكنّه يصحّ في حالة أشخاص قرروا أن يكرسوا أنفسهم لله أو لجيرانهم فحسب، وهم القديسون، الرؤيويون، الثوريون. أما أنا، فأقصد الحب البشري الشكل، الذي لا يتجلى سوى في حضرة المحبوب. الحب الذي يجعلنا نتألم بشدة متى أعجزنا التعبير عنه، أو متى لاحظنا عواطفنا. أنا واثق بأنك مكتئبة لأنك لست حاضرة بتمامك، تنتقل عيناك من اتجاه إلى آخر، هما لا تلمعان، لا تعكسان سوى الإعياء. عشية إطلاق الكتاب، لاحظت أنك تقومين بجهد خارق للتواصل مع الآخرين، لا بُدَّ من أنهم جميعًا بدوا باهتين، دونيين، متشابهين.

نهض من السرير.

— حسنًا، هذا كافٍ. سوف أستحمّ. أتودّين أن تفعلي قبلي؟

— استحمّ. أريد توضيب حقيبتني. لا تستعجل، أحتاج إلى بعض الدقائق على انفراد، لأستوعب ما سمعته الآن. في الواقع، أحتاج إلى نصف ساعة أقضيها منفردة مع نفسي.

أطلق ضحكة وكأنه يسأل: «وما الذي قلته لك؟». لكنّه دخل الحمام.

وفي غضون خمس دقائق، كانت كارلا قد وضبت حقيبتها وارتدت ملابسها. فتحت الباب وأغلقتة بلا ضجيج. اجتازت الردهة متخطية مكتب الاستقبال، حيث مرّت بكل أولئك الذين رمقوها بنظرات استغراب. بيد أن الجناح الفاخر لم يكن محجوزاً باسمها، وبالتالي لم يطرح عليها أحد أي سؤال.

توجهت نحو موظف الاستقبال لتسأل عن موعد الرحلة المقبلة التي ستقلع إلى هولندا.

— أي مدينة؟

— لا يهم، إنها بلادي، ولن أتوه.

— سوف تقلع الساعة الثانية والرابع، على متن خطوط KLM. أتودين أن أشتري لك تذكرة، وأضيفها إلى حساب الفندق؟

تردّدت لهنيهة، فكّرت أنها فرصة للانتقام من ذلك الرجل الذي قرأ روحها من دون استئذان، والذي ربّما كان مُخطئاً في كلّ شيء.

لكنّها لم تفعل أحابت قائلة: «لا، شكرًا، لديّ مال بجوزتي». لم تسافر كارلا قط مُعتمدةً على الرجال الذين كانوا يُقررون من وقتٍ إلى آخر مرافقتها.

عادت إلى الحاضر. ونظرت من جديد إلى الجسر الأحمر، تذكّرت كلّ ما كانت قد قرأته حول الكآبة. وتذكّرت أيضًا كلّ ما لم تقرأه، لأنّها أخذت ترتاع حقًا. وقرّرت أنّها، من اللحظة التي ستجتاز فيها الجسر، سوف تُصبح امرأة جديدة. ستُجيز لنفسها الوقوع في حبّ الشخص الخطأ، أي شاب يجيء من الطرف الآخر للعالم. سوف تُجيز لنفسها أن تشناق إليه متى

رحل، أو ستفعل كل ما في وسعها لتبقى إلى جانبه، أو ستأمل وتتذكر وجهه في أي كهف من كهوف نيبال تختاره لتعيش فيه. لكن لم يعد في وسعها مواصلة هذه الحياة، حياة شخص يملك كل شيء ولا يسعه أبدا الاستمتاع بأي شيء.

وجد باولو نفسه أمام باب ليس عليه لا لافتة ولا أي إشارة أخرى، في شارع ضيق تحده منازل بدت مهجورة. بعد جهد جاهد وبعد طرح الأسئلة، تمكن من تحديد موقع مركز للتصوف، حتى ولو نازعه الشك في أن يعثر على دراويش دوارين فيه. ليصل إلى مبتغاه، توجه أولاً إلى البازار الكبير، حيث انتظر أن يصادف كارالا، لكن عبثاً، راح من ثم يقلد الرقصة المقدسة وهو يردد كلمة «درفيش». ضحك عدد من الناس، وخاله آخرون مجنوناً. وبقي الجميع على مسافة منه، لئلا تصيبهم ذراعا الميسوطتان. حافظ على رباطة جأشه، رأى في عدد من المحلات الطربوش نفسه الذي اعتمره الدراويش، رأى تلك القبعات المخروطية الشكل التي نسبت في العموم إلى الأتراك. اشترى طربوشاً اعتمره، وتابع السير ممراً تلو الآخر، مقلداً الرقصة، هذه المرة بالطربوش، وسائل بالإشارات كيف يجد مكاناً يقوم فيه الناس بما يقوم به. هذه المرة، لم يضحك أحد، حيث المازة خطاهم، رمقوه بنظرة جديّة، وقالوا شيئاً ما بالتركيّة. لكنّه أبى الاستسلام. أخيراً، وجد رجلاً مسناً أشيب بدا أنّه يفهم ما يقول. كان لا يزال يكرّر كلمة «درفيش» وأخذ يشعر بالسأم. لا تزال أمامه ستّة أيام، وربّما توجب عليه أن يستفيد من وجوده هنا، ويستكشف البازار، غير أنّ الرجل المُسنّ دنا منه وقال،

— درويش.

هكذا إذن، لقد أساء لفظ الكلمة طوال الوقت!

راح العجوز بدوره يقلّد حركات الدراويش الدوّارين كما لو أنّه يريد أن يجلي شكوك باولو. تحوّلت نبرة الرجل من ثمّ إلى إدانة بدلاً من التفاجؤ.

(*) You muslim? _

أوما باولو برأسه نفياً.

(*) No, only Islam _ قال الرجل عندئذٍ.

انتصب باولو أمامه.

(*) Poet! Rumi! Darwesh! Sufi! _

لا بدّ من أن اسم الرومي، وهو مؤسس الطائفة، وكلمة شاعر قد ليّنا قلب المُسنّ. فعلى الرغم من ادّعائه الانزعاج والممانعة، أمسك بذراع باولو وجزّه خارج البازار، واصطحبه إلى المكان الذي يوجد فيه الآن، وهو مبنى شبه متهذّم. وقف أمامه في حيرة لا يدري ما يفعله سوى الطرق على الباب. طرّقه مرّات عدّة ولم يلقَ جواباً. أدار قبضة الباب، فرأى أنّه غير موصد. أيدخل؟ أيّمكن أن يتّهم بالتعدّي على ملك الغير؟ أولاً يُقال حقّاً إنّ كلاباً شرسة توضع في المباني المهجورة لإبعاد المتسولين؟

واربّ الباب. وقف هناك ينتظر أن يسمع نباح كلاب، غير أنّه سمع صوتاً، صوتاً واحداً، بعيداً، يردّد شيئاً بالإنجليزية لم يتمكّن من فهمه. ولاحظ من فوره إشارة، أيقن منها أنّه في المكان الصحيح، إنها رائحة البخور.

(*) هل أنت مسلم؟

(*) لا، فقط إسلام.

(*) شاعراً رومياً! درويشاً! صوفياً!

أرهف سمعه ليميز ما رده صوت الرجل. كان مستحيلاً. وجب عليه الدخول. وأسوأ ما قد يحدث له هو أن يُطرد. هل لديه ما يخسره؟ كان في غفلة من الزمن قيد أنملة من تحقيق أحد أحلامه: أن يتواصل مع الدراويش الدوارين.

كان عليه أن يُخاطر. دخل، أغلق الباب خلفه. وما إن ألف بصره الظلمة التي خيمت نوعاً ما على المكان، حتى رأى أنه في مستودع قديم فارغ تماماً، بجدران مطلية كلها بالأخضر، وأرضية أتلفتها السنين، نفذ بصيص نور من بعض النوافذ المكسورة، وسمح له بأن يرى في إحدى زوايا المكان الذي بدا أوسع كثيراً مما بدا عليه من مقدمته، رجلاً مُسنًا يجلس على كرسي بلاستيكي، يُحدث نفسه، فتوقف عندما لمح الزائر غير المنتظر.

تفوه ببضع كلمات تركية، وهزّ بأولو رأسه مشيراً إلى أنه لا يُجيد التركية. قلده المُسن مبدئياً امتعاضه لوجود غريب قاطعه في خضم أمر مهم.

سأله بإنجليزية اختلطت بلكنة فرنسية: - ماذا تريد؟

وهل أمامه سوى الحقيقة يجيب بها؟ مقابلة الدراويش الدوارين.

ضحك الآخر.

- حسناً! أنت هنا للسبب نفسه الذي جاء بي عندما غادرت «تارب».

وهي بلدة صغيرة مغمورة في فرنسا بها مسجد واحد، طلباً للمعرفة والحكمة. هذا ما تبتغيه، أليس كذلك؟ افعل ما فعلت عندما التقيت أحدهم. ادرس شاعراً ألف يوم ويوم، احفظ عن ظهر قلب كل ما كتبه، أجب عن أي سؤال من أي يكن عن حكمة قصائده. آنذاك يُمكن أن يبدأ

تدريبك، لأن صوتك يكون قد بدأ يتوالف مع صوت «المُستنير، والأبيات التي خطها منذ ثمانمئة عام.

— الرومي؟

عند ذكر الاسم، انحنى المُسنّ إجلالاً. جلس باولو على الأرض.

— كيف أتعلّم؟ سبق أن قرأت الكثير من أشعاره، لكن من دون أن أفهم

كيف جسدها.

— الإنسان الذي يبحث عن الروحانية لا يفقه الكثير، لأنه يقرأ لكي

يخترن في عقله ما يُعده حكيماً. بع كتبك مقابل الجنون والعُجب، وسوف

تدنو قليلاً ممّا تبحث عنه. تزودنا الكتب بالأراء والدراسات، بالتحاليل

والمقارنات، في حين أن شعلة الجنون المقدسة تقودنا إلى الحقيقة.

— لا أحمل الكثير من الكتب. جنّت كإنسان يبحث عن التجربة.

تجربتي في هذه الحال، هي الرقص.

— ليست رقصاً، بل إنها بحث عن المعرفة. العقل هو ظلّ معرفة الله.

وأيّ قوّة للظلّ أمام وجه الشمس؟ لا قوّة إطلاقاً. اخرج من الظلّ، اذهب إلى

الشمس، ودع شعاعاتها تُلهمك بدلاً من كلام الحكمة.

أشار المُسنّ إلى بقعة نفذ إليها نور الشمس على بعد عشرات الأمتار

من كرسيّه. نهض باولو وجلس فيها.

— رغب بالشمس. دعها تُترع روحك. المعرفة وهم، النشوة الروحية

هي الحقيقة الحقّة. تملؤنا المعرفة بالذنب، وتوخذنا النشوة مع العلي،

الذي هو الكون، قبل وجوده وبعد فئانه. البحث عن المعرفة هو كمحاولة

الاغتسال بالرمّل، وبئر الماء العذب إلى جانبنا.

في هذه اللحظة بالذات، أخذت مكبرات صوت المآذن ترنم كلاماً، فملاً

الصوت المدينة بأكملها، وعرف باولو أنها دعوة إلى الصلاة. كان باولو قد صوّب وجهه إلى الشمس، تمكّن من رؤية شعاع بفضل الغبار الذي يشغله. وأدرك من خلال الجلبة التي حدثت خلفه أنّ المُسنّ خرّ على ركبتيه. أدار وجهه نحو قبلة مكّة وبدأ يُصلي. راح باولو يُفرغ عقله، الأمر الذي كان يسيراً في مكان يخلو من أيّ أثاث، لم يكن فيه حتّى تلك الآيات القرآنية المدوّنة بالخطّ العربي الشبيهة باللوحات. بلغ الفراغ المطلق، بعيداً عن بلاده، عن أصدقائه، عمّا تعلّمه، وما أراد تعلّمه. كان مترقّفاً عن الخير والشر. كان في الهُنا، في الهُنا فقط والآن.

انحنى، رفع رأسه، أبقى عينيه مفتوحتين، ورأى أنّ الشمس تخاطبه، لم تكن تسعى إلى تلقيه أيّ شيء، بل إلى مجرد أن تدع نورها يغمر كلّ ما حوله.

أيها محبوبي، يا نوري، لتكن روحك دائمة السجود. في وقت ما، سوف تغادر هذا المكان لترجع إلى ذؤيبك، لأنّ وقت اعتزال كلّ شيء لم يحن بعد. غير أنّ الهبة الأسمى التي تسقى الحبّ، ستجعل منك أداة كلامي، ذاك الذي قلته وأنتَ فهمته.

إن أسلمت نفسك للصمت العظيم، ستتعلم منه. قد يُنقل كلاماً لأنّ هذا سيكون قدرك. لكن متى حدث ذلك، لا تلتمس أيّ تفاسير، والتمس من الآخرين احترام الغموض.

أتريد الحجّ على درب النور؟ تعلّم إذن السير في الصحراء. تكلم بقلبك لأنّ الكلمات محض مصادفة، وإن احتجت إليها لتتواصل مع الغير، إيّاك والتهب في المعاني والتفاسير. لا يسمع الناس إلّا ما يريدون سماعه. لا تسع أبداً إلى إقناع أحد. اكتفِ باتباع قدرك بلا مهابة، وإن بمهابة، لكن اتبع دربك.

أترغب في بلوغ السموات وتأتي إلي؟ تعلم إذا الطيران بجناحين، جناحي الانضباط والرحمة.

تعج للمعابد والكنائس والمساجد بأشخاص يخافون ممّا سيجدونه في الخارج، ويدعون أنفسهم تَلَقَّنَ كلامًا ميتًا. معبدي هو العالم، لا تخرج منه. الزم العالم، وإن صُعِبَ عليك ذلك، وإن اقتضى أن تكون مهزلة الآخرين.

تكلم مع الآخرين ولا تسعَ إلى إقناعهم. لا تدعهم يُصدِّقون كلامك، أو يُمسّون تلامذتك. فمتى حدث ذلك، لن يصدِّقوا ما تقوله لهم قلوبهم، وهو في الحقيقة الخطاب الوحيد الذي عليهم أن يُنصتوا إليه.

ترافقوا على الدرب، اشربوا واستمتعوا بالحياة، لكن دعوا بينكم مسافات، لنلا يتبع الواحد فيكم الآخر. سقوطنا جزء من الرحلة، وعلينا جميعًا أن نتعلَّم كيف ننهض بمفردنا.

سكنت المآذن. لم يعرف باولو كم انقضى على محادثته مع الشمس. أنار شعاعها الأواحد بقعة بعيدة عنه. استدار وأدرك أن الرجل الذي أتى من بلد قصي ليجد ما أمكن له إيجاده في جبال منطقتة، قد رحل. كان باولو وحيداً هناك.

حان وقت الرحيل، فقد يُسلم نفسه شيئاً فشيئاً لشعلة الجنون المقدسة. ليس مُضطراً أن يوضح لأي يكن إلى أين ذهب، وأمل ألا تكون عيناه قد تبدلتا. تمكن من الشعور ببريقهما. ومن شأن ذلك أن يلفت انتباه الآخرين.

أوقد عود البخور الأخير الذي وجده إلى جانب الكرسي وغادر. أغلق الباب خلفه، لكنّه عرف أن الأبواب دوماً مفتوحة لمن يحاول اجتياز عتبتها. حسبنا أن نُدير المقبض.

بدأ واضحاً أن الصحفية الوفدة من وكالة الأنباء الفرنسية كانت مستاءة من تكليفها إجراء مقابلة مع هيبين، هيبين! في وسط تركيا، وهم في طريقهم إلى آسيا في باص، على غرار الكثير من المهاجرين الذين جاءوا في الاتجاه المعاكس، بحثاً عن الثروات والفرص في أوروبا. لم تكن تحمل أحكاماً مسبقة عن أي من الطرفين، لكن الآن، ومع نشوب نزاعات في الشرق الأوسط، لم يكف التلّكس عن تقيؤ الأنباء. سرت شائعات عن كتائب متقاتلة في يوغوسلافيا، وكانت اليونان على شفير الحرب مع الأتراك. وكان الأكراد يطالبون باستقلالهم، ولم يدر الرئيس ما عليه فعله، وباتت اسطنبول وكراً للجواسيس جَمَعَ بين عملاء الاستخبارات السوفيتية وعملاء الاستخبارات الأميركية، واطاح ملك الأردن بثورة، وتوَعَد الفلسطينيون بالنار، فما الذي كانت تفعله بالضبط في فندق من الدرجة الثالثة هذا؟

كانت تطيع الأوامر. كانت قد تلّقت اتصالاً هاتفياً من سائق الباص السحري، المزعوم، وهو رجل بريطاني ودود مخضرم كان ينتظرها في ردهة الفندق. ومن البدهي ألا يستوعب هو أيضاً مصلحة الصحافة الخارجية في الموضوع، لكنّه كان عازماً على المساعدة ما أمكن. سرّحت نظرها في الردهة. لم يكن فيها أي هيب، باستثناء رجل كان يشبه راسبوتين، وآخر في الخمسين من العمر تقريباً لا اثر للهيبة فيه، كان جالساً إلى جانب شابة.

قال السائق مُشيرًا إلى الخمسيني الذي رافقه إلى هذا الحد من السفر بصحبة ابنته: - هو من سيُجيب عن أسئلتك. فهو يتكلّم لغتك.

من الجيّد أنّ باستطاعتكما التحدث بالفرنسيّة. هكذا ستكون المقابلة أسرع وأسهل. شرعت في تأطير الزمان والمكان (الاسم: جاك/ العمر: أربع وسبعون سنة/ مولود في: أميان، فرنسا/ المهنة: مدير سابق في إحدى الشركات الكبرى لمنتجات التجميل في فرنسا/ الوضع العائلي: مطلق).

- أثق أنكم أعلمتم بأنني هنا بغية إعداد تقرير لوكالة Agence France-Presse عن هذه الثقافة التي بحسب ما قرأته نشأت على أيدي الأميركيين...

امتنعت عن إضافة: «هؤلاء الأثرياء المنغمسين في الملذّات وليس لديهم من أمر آخر يفعلونه».

... والتي انتشرت على امتداد الكرة الأرضيّة قاطبة.

صادق جاك على كلامها بإيماءة من رأسه، في حين أنّها أسرت لنفسها من جديد: «أو بالأحرى انتشرت إلى المناطق التي يقطنها الأثرياء».

سألها، وقد ندم أنه وافق على إجراء المقابلة، بدل استكشاف المدينة والاستمتاع بوقته شأنه شأن باقي أفراد المجموعة: - ما الذي تريد من معرفته بالضبط؟

- إذن، نعلم أنّها حركة لا أحكام مسبقة فيها، تقوم مبادئها على المخدّرات والحفلات الموسيقية الضخمة في الهواء الطلق حيث كلّ شيء مباح، والأسفار، وإغفال من يكافحون في هذه اللحظة من أجل فكرٍ مثالي، مجتمع حرّ وأكثر عدلاً، إغفالاً كاملاً ومطلقاً...

- من أمثال من؟

— من أمثال أولئك الذين يُحاولون تحرير الشعوب المضطهدة، والتّنديد بالظلم، والمشاركة في الكفاح الطبقي الجوهري حيث يبذل الناس دماءهم وحياتهم لكي يصبح الأمل الأوحد للبشريّة، وهو الاشتراكيّة، حقيقة واقعة وليس مجرد يوتوبيا.

صادق جاك على كلامها بإيماءة من رأسه. لا نفع من الردّ على هذا النوع من الاستفزاز، إذ لم يكن يُريد أن يهدر يومه الأوّل الثمين في اسطنبول.

— ونعلم أنّ أتباعها لديهم نظرة عن الجنس أكثر تحرّزًا، بل أكثر فسقًا، حيث لا مشكلة لدى الرجال المتوسّطي العمر أن يُشاهدوا إلى جانب فتيات في سن بناتهم...

كان جاك سيغض الطرف عن هذه اللدغة أيضًا، غير أنّ صوتًا آخر اخترق الحديث.

— الفتاة التي هي في سن ابنته، والتي تقصدينني بها على ما أنتصوّر، هي في الواقع ابنته. لم نتعارف بعد: أدعى ماري، عمري عشرون سنة، ولدت في ليزيو. أنا طالبة علوم سياسية ومُعجبة بكامو وسيمون دو بوفوار. ذوقي الموسيقي: دايف بروبك، غرايتفل ديد، رافي شانكار. وحاليًا، أعدّ أطروحة عن الطريقة التي تحوّلت بها الجنّة الاشتراكيّة التي يفديها الناس بحياتهم، والمسماة أيضًا الاتحاد السوفيتي، إلى قمعيّة بكلّ ما فيها، شأنها شأن الديكتاتوريات المفروضة على العالم الثالث من البلدان الرأسماليّة مثل الولايات المتّحدة الأميركيّة، إنجلترا، بلجيكا، فرنسا. أتودين معرفة أيّ أمر آخر؟

شكرتها الصحفيّة، ازدردت ريقها، سألت نفسها لبرهة إن كانت

هذه الفتاة تكذب، وقررت أنها صادقة، وحاولت من ثم إخفاء دهشتها. واستنتجت أنها وجدت بلا شك لب مقالها، قصة رجل، مدير سابق لشركة فرنسية متعددة الجنسيات، يقرر، في لحظة أزمة وجودية، التخلي عن كل شيء، واصطحاب ابنته في رحلة حول العالم، من دون أن يراعي المخاطر التي يلقي بها على درب هذه الفتاة، أو بالأحرى، هذه الشابة، أو بتعبير أدق المرأة التي سبقت سنّها نضجاً، بالحكم على طريقة حديثها. شعرت بأنها تخسر الرهان، ووجب عليها أن تستعيد اتخاذ المبادرة.

– هل سبق لك أن جرّبت المخدرات؟

– بالطبع: الماريوانا، خلاصة الفطر المهلوس، وكذلك بعض المخدرات الكيميائية التي أعيتني مثل LSD. لكنني لم ألس قط الهيرويين أو الكوكايين أو الأفيون.

رمقت الصحفية بنظرة من طرف عينها والد الفتاة، الذي كان يُصغي إلى ابنته بهدوء.

– وهل أنت من مناصري الحب الحر؟

– ما دامت أقرّص منع الحمل متوافرة، لا أرى من مانع أن يكون الحب حرّاً.

– وهل تقومين بذلك حقّاً؟

– هذا لا يعنيك.

وإذ رأى جاك أنّهما مُقبلتان على مجابهة، بدّل الموضوع.

– ألسنا هنا للحديث عن الهيبيين. لقد جنّت بخلاصة ممتازة عن

فلسفتنا، فما الذي تودّين معرفته فضلاً عن ذلك؟

فلسفتنا؟ رجل يقرب من الخمسين من عمره يتحدث عن «فلسفتنا»؟
- أريد أن أعرف لماذا تقصدون نيبال بالباص. بحسب فهمي للأمور،
وبحسب لباسكما، يبدو أنكما تملكان ما يكفي من المال للسفر جواً.

- لأن الرحلة هي الأهم في نظري، أن أتعرف أشخاصاً لن تسنح لي
الفرصة أبداً تعرّفهم بالسفر في الدرجة الأولى على متن Air France، كما
فعلت غالباً، حيث لا أحد يُوَجِّه الكلام إلى من يجاوره، حتّى ولو تجاورا
لاثنتي عشرة ساعة.

- لكن ثمة....

- نعم، ثمة باصات مريحة أكثر من هذا الباص المدرسي القديم،
المتآكل، بمكابجه الفظيعة ومقاعدته التي لا تنحني. أفترض أنّ هذا ما أردت
قوله. حدث في تجسّدي السابق، أي في مسيرتي المهنية كمدير تسويق، أن
قابلتُ كلَّ من احتجّت إلى مقابلته. والحقّ أقول لك، أن الواحد منهم كان
نسخة طبق الأصل عن الآخر: التناقضات نفسها، المصالح نفسها، التباهي
عينه، إنه وسط مختلف كلياً عن الوسط الذي عرفته ولدًا، حيث كنت
أعمل في الحقول مع والدي قرب أميان.

راحت الصحفية تقلّب صفحات دفترها، من الواضح أنّها خسرت
الرهان. كان من الصعب استفزاز هذين الاثنين.

- علام تبحثن؟

- عن الجملة التي دوّنتها حول الهيبيين.

- لكنك لخصتنا أفضل تلخيص: الجنس والمخدرات والروك أند رول

والسفر.

تمكّن الفرنسي من إغاضتها أكثر ممّا تصوّر.

— ربّما كان هذا رأيكم في الأمر، لكنّ الواقع أبعد كثيراً من ذلك.

— أبعد كثيراً من ذلك؟ أتخفيننا إذن، لأنّني عندما قرّرت أن أمضي في هذه الرحلة، بدعوة من ابنتي، لم أتمكّن إلا من معرفة مدى تعاستي، ولم أملك الوقت لأستعلم عن التفاصيل.

قالت الصحفية إنها راضية، وإنّها حصلت على ما أرادته، وفكرت في نفسها أن بإمكانها أن تختع كلّ ما تريده انطلاقاً من هذه المقابلة، من دون أن يدرك أحد ذلك. غير أنّ جاك بقي على إصراره. سالها إن كانت ترغب في تناول القهوة أو الشاي. (القهوة، سنمّت شاي النعناع المحلّى). «أتريدين قهوة تركيّة أم عاديّة؟» (تركيّة، فأنا في تركيا. من السخافة تصفية السائل، يجب أن يكون البنّ موجوداً كذلك).

— اعتقد أنّي أنا وابنتي نستحقّ أن نعرف المزيد بعد. نحن نجهل مثلاً أصل كلمة «هيبى».

من الواضح أنّه كان يسخر، لكنّها ادّعت عدم ملاحظة ذلك، وقرّرت المتابعة. كانت تستमित من أجل فنجان قهوة.

— لا أحد يعرف. لكن إذا كنّا سنقاربها انطلاقاً من كوننا فرنسيّين نحاول تعريف أصل كلّ شيء، فإنّ فكرة الجنس، والامتناع عن أكل اللحم، والحب الحرّ، والعيش المشترك، لها جذور في بلاد فارس، في طائفة أسسها المدعوّ مَزْدَك الذي لا نعرف عنه الكثير. مع ذلك، ولأنا كنّا مضطرين إلى الكتابة أكثر فأكثر عن الحركة، فقد اكتشف بعض الصحفيين لها منشأً مختلفاً لدى الفلاسفة الإغريق، يُعرف بمذهب الكلبيين.

الكلبيون؟

— الكلبيون. ولا دخل للكلمة بالمعنى الحديث الذي ننسبه إليها. كان ديوجين الأشهر بين أقران المذهب. فبالاستناد إليه، يتوجب علينا جميعاً أن نردّ عنا كلّ ما يفرضه علينا المجتمع، ذلك أننا ننشأ جميعاً على اقتناء أكثر ممّا يلزمنا، وأن نرجع إلى القيم البدائية. بعبارة أخرى، ينبغي لنا العيش وفق قوانين الطبيعة، من زهد في الحياة، وابتهاج بكلّ يوم جديد، وعزوف عن كلّ ما نشأنا عليه من سلطة ورج وطمع، وكلّ ما يدور في هذا الفلك. أما الكلبيون، فقد كان هدفهم الوحيد من الحياة هو التحرّر من الفائض، في إيجاد الفرح كلّ لحظة، كلّ دقيقة، في كلّ نفس. وتقول الأسطورة إنّ ديوجين يعيش في برمبل.

اقترّب السائق. لا بُدّ من أنّ الهيبى شبيهه راسبوتين كان يتكلّم الفرنسيّة، لأنّه جلس على الأرض وراح يُصغي. وصلت القهوة، التي منّت الصحفية بالطاقة لمتابعة عظمتها. فجأة تبدّد جوّ العدائية العام، وأصبحت هي الآن محور الانتباه.

— شاعت هذه الفلسفة إبّان المسيحية، عندما كان الرهبان يقصدون الصحراء بحثاً عن السلام بغية التواصل مع الله. وهي لا تزال مستمرّة حتّى يومنا عبر فلاسفة مثل الأميركي ثورو والهندي غاندي. يقولون جميعاً: بسّطوا، بسّطوا الأمور وستكونون سعداء.

— لكن كيف تحوّلت، فجأة، إلى صيحة، إلى أسلوب لبس، إلى الكلبية، بالمعنى الحالي للكلمة، من دون تصديق اليمين ولا اليسار، مثلاً؟

— لا أعلم لي بهذا الأمر. يقول بعض الناس إنّها بدأت مع حفلات الروك الموسيقية الكبرى مثل «وودستوك». ويقول آخرون إنّها تُعزى إلى موسيقيين معينين مثل جيرى غارسيا، غرايتفل ديد، فرانك زابا، ماذرز أوف إنفنشن،

الذين شرعوا في إقامة حفلات مجانية في سان فرانسيسكو. وهذا سبب وجودي هنا وأسئلتي لكما.

نظرت إلى ساعة يدها، ونهضت.

— عفواً، عليّ الذهاب. لديّ مقابلتان أخريان لليوم.

جمعت أوراقها، وعدلت ملابسها.

قال جاك: — سأرافقك حتى الباب.

كانت العدائية قد تبددت كلياً؛ كانت مجرد محترفة تؤذي عملها جيداً، وليس عدوة جاءت لتنتقد من تُجري معهم مقابلة.

— لا داعي. ولا داعي للاستياء ممّا قالتَه ابنتك.

— سأرافقك في كل الأحوال.

غادرا معاً. سألتها جاك عن موقع سوق البهارات. لم يكن مهتماً برؤية أمور لم يكن ينوي شراءها، لكنه كان تواقاً ليتنشق عطور النباتات والأعشاب التي ربما استحال عليه تنشقها في فرصة ثانية.

أشارت الصحفية إلى الطريق، وانطلقت بخطى حثيثة في الاتجاه العاكس.

فيمّا سار جاك إلى سوق البهارات، راح يفكر، وهو الذي قام عمله لسنوات عدّة على بيع منتجات لم يحتج إليها أحد، مُجبرًا أن يبتكر كلّ ستة أشهر حملة إعلانات جديدة لحثّ المستهلكين على شراء «منتج جديد، أطلق لتوّه. فكر أنّ اسطنبول في حاجة إلى وزارة سياحة أكثر فاعلية. فقد افتتحت جدًّا بازقّتها، بالمناجر الصغيرة التي مرّ أمامها، بالمقاهي التي بدت متجمّدة في الزمن، بالديكور، بملابس الناس، بالشوارع. لم يُطلق الأتراك بغالبيتهم العظمى شواربهم؟

اكتشف الإجابة بمحض المصادفة، عندما توقّف في مقهى، لا بدّ من أنّه عرف أيّامًا أفضل، وكان ديكوره بكلّيته من طراز الفن الجديد الذي لا تجده سوى في بعض الأماكن الغمورة والمنمّقة في باريس. قرّر أن يرتشف قهوته التركيّة الثّانية لليوم، البنّ المزوج بالماء، من دون تصفية، والذي كان يُقدّم في ركوة نحاسيّة لها مقبض في طرفها، وهي إناء لم يسبق له أن رآه إلّا هنا. أمل أن يتبدّد أثر المشروب المحفّر من جسمه بحلول المساء لكي يهنا بليلة أخرى من الراحة. وبما أنّ الحركة في المقهى كانت خفيفة إذ لم يكن سوى زبون آخر غيره، فقد شرع المالك في محادثته، وقد عرف أنّه أجنبي.

سأله المالك عن فرنسا، وإنجلترا، وإسبانيا، وروى له قصّة مقهى السلام، وأراد أن يعرف رأي جاك في اسطنبول (وصلت لتوّي، لكن تبدو لي أنّها

مدينة تستحق أن يعرف الناس عنها)، في المساجد الكبرى، وفي البازار الكبير (لم أزر أيًا من هذا بعد، وصلتُ أمس)، ثم راح يُثني على مزايا القهوة الممتازة التي يقدمها إلى أن قاطعه جاك.

— لاحظتُ أمرًا أثار فضولي، وقد أكون على خطأ. لاحظتُ، على الأقل في هذا الجزء من المدينة، أن الجميع يطلقون شواربهم، بمن فيهم أنت سيدي. أهو تقليد؟ لست مجبرًا على الإجابة، إن لم تكن لك رغبة في ذلك. غير أن مالك المقهى بدا متحمسًا للإجابة.

— أنا مسرور أنك لاحظت ذلك. اعتقد أنها المرة الأولى التي يطرح فيها أجنبي هذا السؤال عليّ. وغالبًا ما يأتي إلى مقهى السياح القلائل الذين يزورون المدينة، بسبب قهوتي الممتازة، وبتوصية من الفنادق الفخمة. ومن دون استئذان، جلس المالك إلى طاولة جاك، وطلب إلى مُساعدته، وهو حتى لا يكاد يجاوز سن البلوغ، أجرد الذقن، أن يحضر له شاي النعناع. القهوة وشاي النعناع. يبدو أنهما المشروبان الوحيدان المستهلكان في هذا البلد.

— أهو تدوين إذا؟

— أتقصدني أنا؟

— لا، أقصد الشارب.

— على الإطلاق! بل إنه يرتبط بواقع أننا رجال ذوو شرف وكرامة. تعلمت هذا من والدي الذي كان لديه شارب يشدّبه بعناية، وكان يقول لي دومًا: ذات يوم سيكون لك مثله تمامًا. وضح لي أن الناس، في جبل جدّ جدّي، عندما راح الإنجليز الملاعين — أعذرني — الفرنسيون أيضًا يدفعوننا

إلى التقهقر، كان علينا أن نقرّر جهة أماننا. وبما أنّ كل كتيبة كانت
وكر جواسيس، فقد قرّرنا أن يكون الشارب نوعاً من شيفرة. فبحسب
شكل تشديبيه، يكون الرجل إما مُناصرًا وإما مناهضًا للإصلاحات التي
سعى الإنجليز، و- اعذرني من جديد - الفرنسيون الملاعين إلى فرضها
علينا. لم يكن بالطبع شيفرة سرية، بل كان بالأحرى إشهار مبادئ.

نحن نُنبت شواربنا منذ نهاية عهد الإمبراطورية العثمانية المجيد،
يوم أكره الناس أن يرسموا دربًا جديدة للبلاد. كان لناصري الإصلاح
شوارب على شكل حرف M، وتركها المناهضون تنزل عند الأطراف على
شكل U مقلوبة.

- ومن كانوا على الحياد؟

- هؤلاء حلقوا لحاهم. لكنّ ذلك كان عازًا على أسرهم، وكانى بهم
نسوة.

- ألا يزال هذا يصحّ حتّى اليوم؟

- كان كمال أتاتورك، أبو الأتراك كلّهم، والقائد الذي نجح أخيرًا
في الإطاحة بعهد اللصوص الذين نصبهم الأوروبيون على العرش، يخلق
شاربه بين حين وآخر. فاربك ذلك الجميع. لكن، متى تجذّرت التقاليد،
يُصبح تغافلها صعبًا. نعود إلى بداية حديثنا، ما ضير أن يُظهر المرء رجولته؟
فالحیوانات تفعل الأمر نفسه بفروها أو ريشها.

أتاتورك، ذلك القائد الباسل الذي خاض الحرب العالمية الأولى، وصدّ
غزوًا، وألغى السلطنة، ووقع على ختام الإمبراطورية العثمانية، وقرّ فصل
الدين عن الدولة (وهو أمر اعتقد كثيرون باستحالته). والأهم من ذلك،
بخصوص أولئك الإنجليز والفرنسيين الملاعين، أنه رَفَضَ التوقيع على

معاهدة صلح مُهينة مع الحلفاء، كما فعلت ألمانيا، معاهدة نثرت سهواً بذار النازية. كان جاك قد رأى عدّة صور لعبود تركيا الحديثة الأعظم، عندما حاولت الشركة التي كان يعمل لديها غزو تلك الإمبراطورية مرة ثانية، بالإغواء والحبلة. لكنّه لم يلاحظ أنّ أتاتورك ظهر أحياناً بلا شارب، لاحظ فقط في الصور التي ظهر فيها بشارب، أن شاربه لم يكن على شكل حرف U مقلوب أو M، بل على التقليد الغربي، حيث يعلو الشعر الشفة في خط مستقيم ويصل إلى زاويتيها.

الله! لقد تعلّم الكثير عن الشوارب ودلالاتها السريّة! سأل كم عليه أن يدفع ثمن القهوة، غير أنّ المالك رفض الحساب، وأجابه أن الدفع في المرّة المقبلة.

وختم حديثه قائلاً، يأتي العديد من الشيوخ العرب إلى هنا ليزرعوا شوارب. نحن الأفضل في العالم في هذا المجال.

تبادل هو وجاك بضع كلمات، ثمّ اعتذر لأنّ زبائنه قد بدأوا يتوافدون لتناول الغداء. قدّم جاك المال إلى الفتى الأجرد ثمن القهوة وغادر، شاكرًا في خَلده ابنته التي جرّته بكل معنى الكلمة إلى ترك وظيفته، ولكن ليس من دون تعويض خدمة ممتاز. تخيل نفسه عائداً من إجازة، يروي لأصدقائه في العمل قصة الشوارب والأتراك. ولو حدث ذلك لوجدوها جميعاً مشوّقة وغريبة لا أكثر.

تابع سيره باتجاه سوق البهارات، وهو يفكّر، لم لم أُجبر يوماً والذي على ترك حقول أميان لبعض الوقت والسفر؟ في البداية، كان عذرهما أنّهما في حاجة إلى ادّخار المال لكي يتمكّن ابنتهما الوحيد من الحصول

على تعليم جيد. لكن، بعد حيازته دبلوماً في التسويق، وهو تخصص لم يستوعبها، زعما أنهما قد يسافران إلى الخارج في عطلةتهما المقبلة، أو التي تليها، أو التي تلي تاليها. لكنهما ككل المزارعين، عرفا تمام المعرفة أن عمل الطبيعة لا ينتهي، وأن الزراعة تتعاقب فيها فترات تقصم الظهر من زرع وحز وحصاد، مع فترات أخرى من الضجر الفائر في انتظار أن تكمل الطبيعة دورتها.

في الحقيقة، لم يزمعا يوماً الخروج من المنطقة الوحيدة التي عرفاها جيداً، كما لو أن باقي العالم كان مكاناً يهددهما بالخطر، فهناك سيتوهان في شوارع غير مالوفة ومدن غريبة عنهما، يقطنها متعجرفون سيلاحظون على الفور لكنتهما الريفية. لا، ففي نظرهما، تشابهت كل مناطق العالم. كان لكل شخص مكانه في العالم، ولا بد من احترام ذلك.

غالباً ما اغتاز في طفولته ومراهقته، لكن لم يكن بيده حيلة إلا أن يعيش حياته كما خطط لها؛ إيجاد عمل جيد (وحصل عليه)، التعرف إلى فتاة والزواج بها (حدث ذلك عندما كان في الرابعة والعشرين)، صنع مسيرة مهنية، الطواف حول العالم (فعل وضاق ذرعاً بالعيش في المطارات والفنادق والمطاعم، في حين كانت زوجته تنتظره في المنزل بفارغ الصبر، تبحث عن معنى لحياتها يتخطى وجود ابنتها فيها فحسب). وذات يوم، كان سيرقى إلى منصب مدير، يتقاعد، يعود إلى الريف، ويقضي أيامه الباقية حيث وُلد.

وباستحضار كل هذه السنوات، خال أن بإمكانه أن يحنق المراحل الوسطية، غير أن روحه وفضوله الهائل دفعاه إلى الأمام، إلى ساعات لا تنتهي من العمل الذي أحبه في البداية، لكن الذي أخذ يكرهه مع ارتقائه السلم.

قُدِّرَ له أن يَترَوَى قليلاً، ويرحل في اللحظة المناسبة. كان يرتقي سلم الرُتَب سريعا. وقد ازداد مرتبه ليصبح ثلاثة أمثال مرتبه الأساسي. ودخلت ابنته، التي تتبَّع نموّها على مراحل بين سفرة وأخرى، مجال العلوم السياسيّة. وانتهى الأمر بزوجته إلى طلاقه لأنها شعرت بأنّ حياتها غير هادفة، وباتت تعيش وحدها بعد أن وجدت ماري حبيباً، وانتقلت لتعيش معه.

كانت أفكاره في التسويق (الذي راج في حينه كلمة ومهنة) مقبولة بمعظمها، حتّى وإن شكّ ببعضها متدرّجون يرغبون في لفت الانتباه. غير أنّه دَرَج على ذلك، وكان يقصّ أجنحة كلّ من حاول إثبات نفسه. وتعاظمت كلّ آخر سنة علاواته التي كانت تُحتسب بناءً على أرباح الشركة. وعندما عاد عازباً من جديد، راح يخرج إلى النوادي الراقصة أكثر، ويقابل حبيبات مثيرات للاهتمام ومهتمّات بأنفسهنّ، كانت شركة منتجات التبرّج التي يعمل لديها معروفة من الجميع، وكانت الحبيبات يُلَمِّحن إلى أنّهن يرغبن في الظهور في الدعايات الترويجيّة لبعض المنتجات، ولم يكن يفرض ولا يَعد. ومَرَّ الوقت، ورحلت الحبيبات المهتمّات بأنفسهنّ، وأرادت الصادقات الزواج، غير أنّه كان قد خطّط لمستقبله: عشر سنوات بعد من العمل، وسوف يدخل سنّ الكهولة بكلّ قوّة، وفي المال والاحتمالات. سيطوف حول العالم، هذه المرة باتجاه آسيا التي لم يكن يعرفها جيّداً. سوف يحاول أن يتعلّم ما تؤدّ ابنته، التي أصبحت صديقه المفضّلة في هذه المرحلة، أن تتعلّم إياه. حلّما بالذهاب إلى نهر الغانج، أو هيمالايا، الأنديز وأوشويا قرب القطب الجنوبي، بعد أن يكون قد تقاعد طبعاً، وتكون هي قد تخرّجت.

telegram @ktabpdf

إلى أن هزّ وجوده حدثان.

وقع الحدث الأول في ٣ أيار ١٩٦٨. كان في مكتبه ينتظر وصول ابنته، ليقلهما المترو ويعودا إلى المنزل. لم تصل حتى بعد مرور أكثر من ساعة. ترك لها خبراً لدى مكتب الاستقبال في المبنى، الذي يعمل فيه والذي يقع قرب سان سولبيس (فقد امتلكت الشركة عذّة مبانٍ، ولم يشغل قسمه مكاتب مقرّها الرئيسي الباذخة)، غادر ونهياً للتوجّه إلى محطة المترو وحده.

فجأة، وعلى حين غرة، رأى باريس تحترق. عمّ دخان أسود الفضاء، وصدحت صافرات الإطفاء من كل صوب، كان الروس أوّل ما خطر له، لقد قصفوا المدينة!

وإذا به يُقنّف نحو الحائط على أيدي مجموعة فتیان يهرعون في الشارع تكّم أنوفهم وأفواههم أقمشة مبلّلة، يصرخون: «هلتسقط الديكتاتورية!». وشعارات أخرى أخرى نسيها. خلفهم الفت قواش الشرطة المدجّجة بالأسلحة قنابل مسيلة للدموع. تعرّث بعض الفتیان وسقطوا أرضاً، وانهاالت الهراوات على من ترك منهم.

أخذ جاك يشعر بوخز في عينيه بسبب الغاز. لم يفهم ما كان يدور، ما معنى كلّ هذا؟ أراد أن يسأل أحدهم، لكن كان الأهم لحظتها أن يجد ماري. أين يُحتمل أن تكون؟ حاول التوجّه نحو السوربون، غير أنّ المعارك بين قواش النظام، وما تبين له أنّها مجموعة لاسلطويين خارجة من فلم

رعب، قد سَلَت الطرقات. اشتعلت إطارات سيارت، وزميت قَوَات الشرطة بالحجارة، وتطايرت خلائط المولوتوف في كل صوب، وتعطلت وسائل النقل، وتصاعد مزيد من الغاز المسيل للدموع، وعلا مزيد من الصراخ وعويل الصافرات، واقتلع مزيد من حجارة الأرصفة، وضرب مزيد من الفتيان - أين ابنتي؟

أين ابنتي؟

كان خطأ، ما لم يكن انتحارًا، التوجه نحو الصراع. كان من الأفضل التوجه نحو المنزل وانتظار أن يصله خبر من ماري، وانتظار انتهاء كل شيء. لا بُدَّ من أنه كان سينتهي ليلتها.

هو لم يشارك يومًا في المظاهرات الطلابية، كانت لديه أهداف أخرى في الحياة، لكن لم تدم أي من المظاهرات التي شهدا أكثر من بضع ساعات. لم يبق أمامه سوى أمله في ورود اتصال من ابنته، هذا كل ما تضرع به إلى الله تلك اللحظة. كان يعيشان في بلد له امتيازات كثيرة، حصل فيه الشباب على كل ما رغبوا فيه، وعرف فيه الراشدون أنهم بالعمل الدؤوب سيحصلون على تقاعد جيد بلا هموم، ويواصلون شرب أفخر النبيذ في العالم وتذوق أفضل المأكولات في العالم، والتنزه في أجمل المدن من دون خشية التعرض للسلب.

ورده اتصال ابنته نحو الثانية فجراً. كان قد أبقى على التلفاز دائراً، وكانت المحطتان القوميتان تعرضان وتحلان، تعرضان وتحلان، ما كان يجري في باريس.

- لا تقلق يا أبي. أنا بخير. عليّ أن أمزر الهاتف لشخص إلى جانبي، لذا ساوضح الأمر لاحقاً.

حاول طرح سؤال لكنها كان قد أقفلت الخط.

ظلّ ساهداً طوال الليل. واستمرت المظاهرات أطول مما توقع. وكان المعلقون على التلفاز متفاجئين مثله. انفجر كل شيء بين لحظة وأخرى، من دون أي إشارات تحذير. حاولوا مع ذلك الحفاظ على هدوئهم وتوضيح أمر المواجهات بين الشرطة والطلاب، مستخدمين لغة علماء الاجتماع والسياسيين والمحللين وبعض أفراد الشرطة، وقلّة من الطلاب، وسوى ذلك. أخيراً، غادر الأدرينالين دمه، ونهالك على الأريكة مرهقاً. عندما فتح عينيه، كان النهار قد طلع، وأن أوان الذهاب إلى العمل، غير أن أحدهم على التلفاز، الذي بقي دائراً طوال الليل، كان يحذر الناس من مغادرة منازلهم، لأنّ «اللاسلطويين» احتلّوا الكليات ومحطات المترو، وسدّوا الشوارع وعرقلوا السير. وأضاف آخر: منتهكين الحقوق الأساسية لكل مواطن.

اتّصل بمقر عمله. لم يجب أحد. حاول الاتصال بالمقر الرئيسي. أعلمه الموظف، الذي أجاب، والذي كان يقطن في الضواحي القريبة، ولم يتمكن من العودة إلى منزله فنام في المقر، أن لا جدوى من التنقل، وأن القلائل الذي استطاعوا المجيء هم ممن يقطنون في الجوار.

اختتم الصوت المجهول بالقول: «سينتهي الأمر اليوم».

طلب جاك التحدّث إلى رئيسه. وعلم أنّه، مثل كثيرين سواه، لم يحضر إلى العمل.

غير أنّ الاضطراب والاشتباكات لم يهدأ كما كان متوقعاً، بل على العكس، ضُعد الوضع عندما رأى الناس معاملة الشرطة للطلاب.

جرى احتلال السوربون، ركن الثقافة الفرنسيّة، وأُعطي الخيار للأساتذة إما بالانضمام إلى المظاهرات وإما بالطرد. وجاء في التلفاز الذي بدأ

يتعاطف مع الطلاب في هذه المرحلة، أن عدّة لجان قد شكّلت وجاءت بشتّى الأهداف التي سيُعمل بها أو سيجري استبعادها.

أقفلت المتاجر في الحي الذي يسكنه، ما عدا واحداً يُديره رجل هندي. اصطفّ طابور من الناس أمام بابه. اتخذ مكاناً له في الصف بكل صبر، مُستمعاً إلى تعليقات هذا وذاك: «لم تقف الحكومة مكتوفة الأيدي؟»، «لم تدفع كلّ هذه الضرائب في حين أنّ الشرطة تتقاعس في ظرف مماثل؟»، «كلّ هذا بسبب الحزب الشيوعي!»، «هذه نتيجة التربية التي أنشأنا عليها أولادنا، يعتقدون أن من حقهم الثورة على كلّ ما علّمناهم إياه...»، وأمور من هذا القبيل.

الأمر الوحيد الذي عجز الجميع عن تفسيره هو سبب ما كان يجري. مرّ اليوم الأوّل.

فالثاني.

وانتهى الأسبوع الأوّل.

والوضع يتفاقم ويزداد تازّماً.

كانت شقة جاك تقع على هضبة صغيرة في مونمارتر، وتبعد عن مكتبه ثلاث محطات مترو. استطاع، من نافذته، أن يسمع الصافرات ويرى دخان الإطارات المشتعلة. كان يترصد الشارع في الأسفل على أمل أن يرى ماري آتية. أتت بعد ثلاثة أيام، استحمّت بسرعة، جمعت بعض الملابس التي كانت في شقة والدها، تناولت ما وقعت عليه يدها، وغادرت من جديد مُرددة: «سأوضح لاحقاً».

وما خاله حدثاً عابراً، غضباً مضبوطاً، انتهى بالانتشار عبر فرنسا كلّها: احتجز الموظفون أرباب عملهم، وأعلن عن إضراب عام. احتلّ العمال

بدورهم معظم المصانع، شأنهم شأن الطلاب الذين احتلوا الكليات قبل أسبوع.

سُلت فرنسا. ولم يعد الإشكال حكرًا على الطلاب الذين بدا أنهم قد حوَّروا عندذاك تركيزهم، وراحوا يلوِّحون برايات كُتب عليها «عاش الحب الحز»، «فلتسقط الرأسمالية»، «حدود مفتوحة للجميع»، أو «البرجوازية لا تعي شيئًا».

الآن، بات الإشكال في الإضراب العام.

كان التلفاز وسيلته الوحيدة للحصول على المعلومات. لدهشته وهوله الكبيرين، بعد مرور عشرين يومًا جهنميًا، ظهر رئيس الجمهورية أخيرًا مخاطبًا مواطنيه ليُعلمهم بأنه سيُنظِّم استفتاء شعبيًا بطرح «تحديثات ثقافية واجتماعية واقتصادية». وإن لم يفلح، فسوف يستقيل. كان هذا الجنرال هو شارل دو غول الذي قاوم النازيين، ووضع حدًا للحرب في الجزائر، والذي كان محط إعجاب الجميع.

لم تكن مقترحات دو غول شيئًا في نظر العمال الذين لم يكثرثوا للحب الحز، أو الحدود المفتوحة، وهذا النوع من الأمور. انصبت مطالبهم على أمر واحد، هو زيادة ملحوظة على الأجر. اجتمع رئيس الوزراء جورج يومبيدو برؤساء النقابات والتروتسكيين واللاسلطويين والاشتراكيين. وحينها فقط بدأت الأزمة تنحسر، عندما تقابل الجميع وجهًا لوجه، وجاءت كل مجموعة بمطالبات مختلفة. فرَّق تسد، كان شعار الحكومة.

قرَّر جاك المشاركة في تظاهرة دعم للجنرال دو غول. استحوذ الذعر على فرنسا برمتها إزاء ما شاهده. فهذه المظاهرة التي حلت عمليًا في كل

مدينة جمعت حشوداً هائلة، وتراجع أولئك الذين أشعلوا الفتيل والذين لم يكف جاك عن مناداتهم بـ«الاسلطويين». وقَّعت عقود عمل جديدة. والطلاب، الذين لم يبقَ لديهم ما يطالبون به، عادوا إلى صفوفهم شيئاً فشيئاً، شاعرين بأن فوزهم كان واهياً.

مع حلول نهاية أيار (أو بداية حزيران، لم يعد يذكر)، رجعت ابنته أخيراً، قائلةً بأنهم حققوا كلَّ ما أرادوه. لم يسألها عما أرادوه وهي لم تستطرد. لكنها بدت متعبة وخائبة ومُحبطة. وبما أنَّ المطاعم عاودت فتح أبوابها شيئاً فشيئاً، خرجا لتناول العشاء في ضوء الشموع، وتفاديا التحدُّث في الموضوع برمَّته. لم يُفصح لها جاك قط أنَّه شارك في مظاهرة مؤيدة للحكومة، والجملة الوحيدة التي أخذها على محمل الجدَّ من كلام ابنته كانت: «سُمت هذا المكان. سوف أسافر وأحيا بعيداً من هنا».

في النهاية، بدلت رأيها بذريعة أنَّ عليها أولاً أن «تُنهي دراستها»، وفهم جاك أنَّ من أرادوا فرنسا مزدهرة ومُنافسة قد انتصروا؛ الثَّوار الحقيقيون لا يقلقون ولو مثقال ذرَّة بشأن التخرُّج وحياسة شهادة.

مذاك، قرأ آفاً من الصفحات التأويلية والتعليلية حول الأحداث، كتبها فلاسفة ورجال سياسة ومحزرون وصحفيون وسواهم. ذكروا أمر إقفال جامعة نانتر في بداية الشهر، لكن لم يكن ذلك سبب الغضب الذي انتابه في المرات القليلة التي خرج فيها من منزله.

ولم يقرأ سطرًا واحدًا يُفضي به إلى الاستنتاج بأن، «هذا ما أطلق الأحداث».

وجاء الحدث الثاني الذي كان حاسماً، وحول مساره في أحد أفخم المطاعم

الباريسية، حيث كان يصطحب زبائنه المميزين، وهم مُشترُونَ محتملون يُمثّلون مدّنتهم وبلادهم. كانت فرنسا قد طوت صفحة أيار ١٩٦٨، مع أنّ السنة ناره قد انتشرت إلى بقاع أخرى في العالم. لم يشأ أحد استحضار تلك الأحداث. وإذا تجرّأ زبون أجنبي على السؤال عنها، كان جاك يبدّل الموضوع بدبلوماسية، موضحاً أنّ الصحف تضخّم الأمور على الدوام..

وكان الحديث ينتهي عندها.

كان جاك على صداقة جيّدة بمالك المطعم الذي كان يناديه باسمه الأول، الأمر الذي كان يؤلّد انطباعاً جيّداً لدى زبائنه. كان هذا جزءاً من المخطّط. ما إن كان يدخل برفقة زبائنه حتّى يقترب النُدل ليرشدوهم إلى «طاولته»، (التي كانت تتغيّر في كلّ مرّة وفق اكتظاظ المطعم، لكنّ مدعوّيه لم يكونوا على علم بذلك). كانت الشمينانيا تُقدّم إلى كلّ منهم على الفور، وكذلك قوائم الطعام، وتدوّن طلباتهم، من دون نسيان النبيذ الباهظ (يسأل النادل: «النوع المعتاد، سيدي، أليس كذلك؟» ويومئ جاك برأسه موافقاً). كانت الأحاديث هي هي دوماً (فأيّ عرض يُشاهدون، الليدو، أو «كاريزي هورس، أو «مولان روج». كان أمراً لا يُصدّق كيف كانت باريس تُختصر في ثلاث وجهات في أذهان الأجانب). لم يكن العمل جزءاً من الحديث خلال وجبة عمل، إلّا في النهاية، بعد أن يُقدّم سيجار كوبي ممتاز إلى كلّ منهم، حيث يُنجز التفاصيل الأخيرة لشخص عدواً أنفسهم بالغي الأهمية، في حين أن قسم المبيعات يكون هو في الحقيقة من يُهنئ لكل شيء، ولا يبقى سوى توافيعهم، التي كان جاك يحصل عليها دوماً.

هذه المرّة، بعد أن دوّنت طلباتهم، التفت إليه النادل وقال:

كان العتاد طبق المحار في قائمة المقبلات. كان يُحدّد دومًا أن تُقدّم حية، الأمر الذي كان يروّع زبائنه، الأجانب بمعظمهم. من حيث البدأ، كان مخطّطه يقضي بطلب الحلازين بعد ذلك، تليها أفخاذ الضفادع. لم يجروُ أحد أن يحذو حذوه، وكان هذا هدفه: كان هذا جزءًا من التسويق.

قُدّمت المقبلات كلّها في الوقت نفسه. وصل المحار، وارْتَقَب الجميع الخطوة التالية. عصر بعض الحامض على صَدْفَةِ المحار الأولى، التي تحرّكت قليلًا، وقد أدهشت ضيوفه ورؤعتهم. ألقى لُبّها في فمه، وتركه ينزلق إلى معدته مستلنًا بالماء المالح الذي ركّذ في الصَدْفَةِ.

بعد ثانيتين، انقطع نفسه. حاول جاهدًا أن يُحافظ على رباطة جأشه، لكن استحال عليه ذلك. سقط أرضًا متأكّدًا أنّه يموت، وعيناه مسعّرتان على الثريات الكريستالية المتدلّية من السقف، والآتية بلا شك من تشيكوسلوفاكيا مباشرة.

أخذ بصره يتبدّل، لم يعد يرى سوى الأسود والأحمر. حاول الجلوس. سبق له أن تناول عشرات المحارات، بل المئات في حياته. لكنّ جسمه لم يعد يُدّعن له. حاول مدّ رنتيه بالهواء، لكن عبثًا. رفض الهواء النفاذ إليهما. عرف جاك لحظة قلق، ومات.

فجأة، راح يطوف على مستوى سقف المطعم ينظر إلى لفيّف الناس الذين تحلّقوا حول جسده. حاول آخرون ترك مساحة لوصول المساعدة، فيما هرع النادل الغربي إلى المطبخ. لم تكن الرؤية واضحة تمامًا، كما لو أنّ غشاءً شفافًا قام بينه وبين المشهد أسفل، أو ستارًا من الماء الجاري. لم

يشعر بأي خوف أو أي شيء. عمّ سلام عميق كلّ ما حوله، وتسارع الزمن الذي كان لا يزال قائماً. بدا الناس أسفل يتحرّكون ببطء أو بالأحرى كما لو أنهم في مخطط فوتوغرافي. عاد النادل من المطبخ واختفت الرسوم، لم يبق سوى الفراغ الكلّي، الأبيض، والسكينة شبه المحسوسة. وخلافاً لما رواه كثيرون ممّن مرّوا بهذه التجربة، لم ير أي نفق أسود، أحسّ أنّ طاقة حبّ طوّفته، حبّ لم يختبره منذ زمن طويل، كما لو أنّه عاد إلى رحم أمه. وليس بوذّة الخروج منه قطّ.

فجأة، شعر بيد تجذبه وتشدّه إلى أسفل. لم يشأ الذهاب، كان أخيراً يستمتع بالأشياء التي حارب من أجلها، والتي انتظرها طوال حياته، السلام، الحب، الموسيقى، الحب، السلام. غير أنّ قوة الذراع التي سحبته إلى الأرض كانت شديدة إلى درجة عجز عن مقاومتها.

كان وجه مالك المطعم أوّل ما رآه عندما فتح عينيه. اختلط على محيّاہ القلق والانسراح. كان نبض قلبه يخفق بسرعة شديدة، أحسّ بالغثيان وكأنه سوف يتقيأ، لكنّه ضبط نفسه. وإذا رأى أحد النذل أنّه كان يتصبّب عرقاً بارداً، أحضر شرف طاولة وغطّاه به.

سأله المالك: - أين وجدت مسحوق الأساس الشاحب هذا وأحمر الشفاه الأزرق الجميل؟

كذلك بدا الارتياح والهول على ضيوفه الذين تربّعوا على الأرض إلى جانبه. حاول النهوض غير أنّ مالك المطعم منعه.

- استرح. ليست المرّة الأولى التي يحدث فيها هذا هنا، وأنصوّر أنّها لن تكون الأخيرة. لهذا السبب نحن مجبرون على التزوّد بحقيبة إسعافات أولية، بضّمادات، ومعقم، وجهاز وقف الرجفان في حال النوبة القلبية، ولحسن

الحظ بالأدرينالين الذي حقنأك به من فورنا. ألدك رقم هاتف شخص قريب؟ لم تعد في خطر البتة، لكننا طلبنا سيارة إسعاف. سوف يطرحون عليك السؤال نفسه. لكن إذا لم يكن لديك أحد، أقترح أن يرافقك واحد من ضيوفك.

— «أكان المحار السبب؟». كانت تلك العبارة أول ما نطق به.

— بالطبع لا، منتجاتنا بأعلى جودة. لكن ما أدرانا ما تتناوله هذه الكائنات؟ من الواضح أن صديقنا المحاري الصغير استغل مرضك، وقرّر أن يُسمّمك بدل أن يقوم بصنع لؤلؤة.

ما كان ذلك إذن؟

في هذه اللحظة وصل المسعفون، وحاولوا أن يمدّدوه على حمالة، اعترض، قائلاً إنه بخير. أراد أن يُصدّق نفسه، وقف وإن بعناء، غير أن المسعفين مدّدوه ثانية، على الحمالة هذه المرة. قرّر ألا يجادلهم أو يتفوّه بأي شيء. عندما سألوهم عن رقم قريب له، زوّدهم برقم ابنته، الأمر الذي كان مطمئنًا، إذ كان دليلًا على صفاء ذهنه.

قاس المسعفون ضغطه، طلبوا إليه أن يتقّفى بعينيه شعاعًا مُضيئًا، وأن يضع إحدى أصابع يده اليمنى على أرنبة أنفه. انصاع لكل أمر، كان يستमित للمغادرة. لم يكن في حاجة إلى الاستشفاء، وإن كان يدفع ما يُعادل ثروة من الضرائب والاشتراكات للاستفادة من خدمة صحيّة ممتازة ومجانية.

— يرجح أن نُبقيك الليلة لمراقبتك.. قالوا ذلك وهم يتوجهون إلى سيارة الإسعاف التي ركنّت عند الباب، حيث استرق النظر أشخاص، تسعدهم على الدوام رؤية من هو أسوأ اعتلالًا منهم. فالاعتلال البشري لا حدود له.

بينما كانت سيارة الإسعاف التي لم تُطلق صافرتها (وهي إشارة جيدة) تنطلق إلى المستشفى، سأل إن كان المحار هو السبب. أكّد المسعف أقوال مالك المطعم. لا. لو كان تسمّمًا بالمحار، لاستغرق وقتًا أطول، ساعات حتّى، ليفعل فعله. مكتبة الرمحي أحمد

— إذن ما كان السبب؟

— إنها حساسية.

طلب إليه أن يتوسّع في التوضيح. قال مالك المطعم لا بُدّ من أنّها مادّة امتصّها المحار، وأكّد المسعف ذلك أيضًا. لم يعرف أحد كيفية حدوث ردّ فعل مماثل ووقته، لكنّهم عرفوا كيف يداوونه. قال المسعف إنّ اسمها، صدمة تأقية. وأوضح مسعف آخر، من دون أن يثير خوفه، أنّ الحساسية قد تحدث بلا إنذار. مثلاً، قد تتناول الرمان منذ صغرك، ولكن ذات يوم، قد تفتلك البرمانّة في غضون دقائق لأسباب لا يسعنا تفسيرها. وقد تقضي سنوات تعتني بجديقتك، والأعشاب لا تزال على حالها، وغبار الطلع لا يزال على حاله. وذات يوم، ينتابك سعال، وتحسّ بوجع في الحلق، ثمّ في الرقبة، نخال أنّك أصبت بالزكام، وأنّ عليك الدخول، لكنك فجأة تعجز عن المشي. فالوجع ليس في الحلق، بل الحالة تضيق في القصبة الهوائية. ويكون الأوان قد فات. ويحدث ذلك من جرّاء أمور نكون قد تحسّسناها طوال حياتنا.

— تكون الحشرات خطيرة أيضًا، لكننا لن نقضي حياتنا ونحن نخشى

النحل، أليس كذلك؟

— لا تخف. الحساسية تُهاجم كلّ الأعمار وهي ليست خطيرة. الخطير هو الصدمة التأقية التي تعرّضت لها. أما الباقي فانف بسيل وطفح جلدي أحمر وحكاك وما يشبه ذلك.

لدى وصولهم إلى المستشفى، كانت ابنته في انتظاره. عرفت أنه تعرّض لصدمة حساسية ربما كانت قاتلة لو لم يُسعف في الوقت المناسب، رغم ندرة ذلك. سبق لماري أن زوّدتهم برقم الضمان الاجتماعي العائد إلى والدها، وأدخل بالتالي غرفة خاصة من دون الاضطرار إلى المكوث في غرفة عادية. بدّل ملابسها. ونسيت ماري، لمغادرتها على عجل، أن تحضر له ملابس النوم، فارتدى اللباس الذي توفّره المستشفى. دخل الطبيب، قاس نبضه الذي رجع إلى طبيعته. كان ضغطه لا يزال مرتفعاً قليلاً، غير أنه عزا ذلك إلى التوتر الذي انتابه منذ ثلاث ساعة. طلب إلى ماري ألا تتأخّر في البقاء، وأن والدها سيكون في المنزل غداً.

سحبت ماري كرسيّاً قرب السرير، وأمسكت بيدي والدها، وفجأة، راح جاك يبكي. في البداية، لم تكن سوى دموع صامتة، لكنّها سرعان ما تحوّلت إلى نحيب أخذ يشتدّ. عرف أنه كان في حاجة أن يطلق العنان لنفسه. كان في أمسّ الحاجة إليه حتى أنه لم يحاول تمالك نفسه. انهالت الدموع، واكتفت ماري بمداعبة يديه بعطف، وقد ارتاعت قليلاً. كانت المرّة الأولى التي ترى فيها والدها يبكي.

لم يدرك كم من الوقت بكى. هدأ تدريجاً، كما لو أن حملاً أسقط عن كاهله، عن صدره، من رأسه، من حياته. فكّرت ماري أن من الأفضل أن تدعه ينام، فبدأت تسحب يدها، لكنّه شدّ عليها.

— لا تذهبي، عليّ أن أخبرك أمراً.

أسندت رأسها إلى حضنه، كما كانت تفعل وهي صغيرة تصغي إلى حكاياته. مرّر أصابعه على شعرها.

— أنت تعرف أنك بخير، وأنتك تستطيع الذهاب إلى العمل غداً، أليس

كذلك؟

نعم، عرف ذلك. وفي الغد سيذهب إلى العمل، ولن يقصد المبنى حيث يقع مكتبه، بل المقر الرئيسي. كان المدير الحالي، الذي ارتقى سلم الشركة إلى جانبه، قد أرسل بطلبه.

— أريد أن أخبرك أمراً. توفيت لبضع لحظات، أو بضع دقائق، أو أبدية، لا يسعني تحديد الزمن، لأن كل شيء جرى ببطء. وفجأة وجدتني مُحاطاً بطاقة حب لم اختبارها يوماً. أحسستُ كما لو كنت... في حضرة...

راح صوته يرتعش، كمن يحبس دمعته، لكنه تابع.

— كما لو كنت في حضرة الله، الذي لم أؤمن به قط كما تعلمين. سجّلتك في مدرسة خاصة لجرّد أنها كانت قريبة من المنزل والتعليم فيها ممتازاً. لكنني كنت ملزماً بحضور المراسم الدينية التي اضجرتني حتى الموت، التي افتخرت بها والدتك والتي جعلت رفاقك وأهاليهم يحسبونني واحداً منهم. في الواقع، لم يكن ذلك سوى تضحية من أجلك.

واصل مداعبة شعر ابنته. لم يخطر له يوماً أن يسألها إن كانت تؤمن بالله، فلم يكن الوقت ملائماً للسؤال. بحسب ما يرى، لم تعد تتبع المبادئ الكاثوليكية الصارمة التي نشأت عليها. راحت ترتدي ملابس غريبة، وتخالط أصدقاء بشعور طويلة، وتستمتع إلى أغنيات ليست لداليدا وإديث بياف.

— لطالما أجدتُ تخطيط كل شيء، وعرفتُ كيفية تنفيذ خططي. وبحسب أجاندتي، فإنني سأتقاعد قريباً وبجوزتي ما يكفي من المال لفعل ما أشاء. لكن تغير كل هذا خلال تلك الدقائق، أو الثواني أو السنوات التي أمسك فيها الله بيدي. ما إن عدت إلى أرض المطعم، ورأيت وجه ماله الذي ادعى الهدوء، فهمتُ أنني لم يعد بمقدوري أن أعيش حياتي كما كانت.

— لكنك تحبّ عملك.

— أحببته إلى درجة أنني كنت الأفضل أداءً. لكن الآن، أريد أن أودع هذا العمل المحمل بالذكريات الحارة. أودّ لو تُسديني خدمة في الغد.

— لك أي شيء. لطالما علّمتني الأمور فعلاً لا قولاً.

— هذا بالضبط ما أريده منك. علّمتك الكثير من الأمور لسنوات، والآن أريدك أن تعلّميني. أودّ أن أجوب العالم برفقتك، أن أرى أموراً لم تسبق لي رؤيتها، أن أولي الليل والصباح مزيداً من الانتباه. استقبلي من عملك ورافقتي. أمل أن يُجاريني حبيبك قليلاً، أن ينتظر عودتك بصبر، وأن يسمح لك بمرافقتي. أحتاج إلى الغوص جسداً وروحاً في أنهر مجهولة، أن اتذوّق مشروبات جديدة، أن أشاهد عن قرب الجبال التي لم أشاهدها سوى على التلفاز، أن أسمح للحب الذي عشته أمس أن يعود، ولو لدقيقة كلّ سنة. أريدك أن تكوني مُرشدتي إلى عالمك. لن أكون حملاً، ومتى شعرت أن عليّ الابتعاد، يكفي أن تقوليها ولأبتعد. ومتى شعرت أن وقت العودة مناسب، سأعود وسنخطو خطوة أخرى مغا. سأقولها مجدداً: أريدك أن تكوني مُرشدتي.

لم تحرك ماري ساكننا. فوالدها لم يرجع إلى عالم الأحياء فحسب، بل اكتشف باباً أو نافذة مفتوحة على عالمه، الذي لم تجرؤ قط على مشاطرته إياه.

كانا كلاهما متعطّشين للانهاية. وكان من السهل أن يرويا هذا العطش، فحسبهما أن تتجلّى اللانهاية لهما. لهذا، لم يحتاجا إلى مكان خاص لذلك، سوى جسديهما وإيمانهما، وقوة بلا شكل تخترق كلّ شيء، وتحمل في الذات ما يسقيه الخيميائيون Anima Mundi.

وصل جاك إلى مقدّمة السوق الذي أمّته النساء أكثر من الرجال، والأولاد أكثر من الراشدين، أمّه قلّة من ذوي الشوارب مقابل الكثير من ذوات الأحجبة. ومن حيث وقف، استطاع أن يشتم عبثاً قوياً، خليط عطور امتزجت لترتقي إلى السموات وتعاود النزول إلى الأرض، حاملة معها، ومع المطر المدرار، بركة وقوس قزح.

وجد باولو أن نبرة كارلا قد لانت عندما التقيا من جديد في الغرفة لتبديل ملابسهما وارتداء ما غسله أمس، استعداداً لوجبة العشاء.

— أين انتهى بك الأمر اليوم؟

كانت المرة الأولى التي تطرح فيها عليه هذا السؤال. بمفهومه، كان هذا سؤالاً من الأسئلة، يمكن لوالدته أن تطرحه على والده، سؤالاً يتبادل طرحه الأزواج الراشدون. لم يرغب في الرد، وهي لم تصر.

قالت، وقد راحت تضحك: أراهن أنك ذهبت إلى البازار للبحث عني!

— توخّعت إليه في البداية، لكنني سرعان ما بدلت رأيي، وعدت إلى حيث كنت.

— لديّ اقتراح لك لن تتمكن من رفضه: ما رأيك أن نتعشى في آسيا؟

لم يستدع الأمر عزافاً ليفهم قولها: أرادت عبور الجسر الذي يصل بين القارتين. لكن، ما دام الباص السحري سيقوم بذلك لاحقاً، فلم العجلة إذن؟

— لأنني يوماً ما ساتمكّن من إخبار الناس بما لن يصدقوه: أنني تناولت القهوة في أوروبا، وأنني بعد ثلث ساعة دخلت مطعماً في آسيا، وأنا جاهزة لتذوّق كلّ ما لدى هذه القارة من ملذات.

كانت فكرة جيّدة. سيتمكّن هو أيضاً من إخبار أصدقائه بالأمر

نفسه. لن يصدق أحد كذلك، سوف يظنون أن المخدرات قد أثرت في عقله، لكن ما الهم؟ كان ثمة مخدر فعلاً، أخذ يُعطي مفعوله ببطء، منذ عصر اليوم، بقاء الرجل الذي وجده في مركز التصوف الفارغ، بجدرانه المطلية بالأخضر.

لا بُدَّ من أن كارلا قد اشترت مستحضرات تجميل من البازار، لأنها خرجت من الحمام وقد علا ظلّ العيون جفنيها، وأطالت المسكرة أهدابها. لم يسبق أن رآها هكذا من قبل. وتوشّحت بابتسامة أيضاً، لم يسبق أن لاحظها عليها من قبل كذلك. فكّر باولو في أن يحلق السكسوكة التي أطالها منذ زمن طويل وأخفت نتوء ذقنه. لكنّه كان يحلق عموماً متى أتيح له، وحين لا يتاح ذلك، ترجع إليه ذكريات رهيبة، من الأيام التي قضاها في السجن. المشكلة أنّه لم يفكر في شراء اشفار حلالة ذوات الاستخدام الواحد، وكان قد رمى بآخرها قبل دخول يوغوسلافيا. ارتدى بلوزة قطنية ذات أكمام اشترها في بوليفيا، وسرّة الجينز التي علّق عليها النجوم، وهبطاً معاً.

لم يكن في الردهة أيّ من أفراد المجموعة، باستثناء السائق الذي كان يلهي نفسه بقراءة الصحيفة. سألّه كيف يستطيعان عبور الجسر إلى آسيا. ابتسم السائق.

— فعلت الأمر نفسه في زيارتي الأولى إلى هنا.

أشار إليهما كيف يركبان الباص (لا تفكرا في عبور الجسر مشياً)، واعتذر لنسيانه اسم المطعم الممتاز الذي تناول فيه الغداء ذات مرّة عند الضفّة الأخرى من البوسفور.

في الواقع، لم يكونا متجهين إلى آسيا، بل إلى القسطنطينية سابقاً.

كان السائق قد تعرّض لهذه الفكاهة من أشخاص آخرين، وهو الآن يكرّرها مع الثنائي الشاب. كانت الأوهام المستحبة مرغوبة على الدوام.

سالت كارلا، وهي تشير إلى الجريدة: «ما أخبار العالم؟». بدا السائق هو أيضًا مندهشًا لرؤيتها مترجحة وباسمة. ثمّة شيء ما تغيّر فيها.

— هدأت الأمور في الأسبوع الفائت. وبخصوص الفلسطينيين الذين، تفيد الصحيفة أنهم يُشكّلون أغلبية ويحضّرون لانقلاب، فسوف يُعرف مصيرهم وإلى وقت طويل باسم «أيلول الأسود». هكذا يُسمّونه. عدا ذلك، فإن طرقات السفر سالكة، مع أنني هاتفت المكتب الذي اقترح أن أنتظر ريثما تصلني التعليمات.

— حسنًا، لسنّا على عجلة. في اسطنبول عالم كامل جدير بالاكشاف.

— الأناضول أيضًا جديرة بالزيارة.

— نعم، لكن لكل شيء حكمه.

وبينما كانا يتوجّهان إلى موقف الباصات، أدرك باولو أن كارلا تمسك بيده، كما لو كانا في وضع لم يكونا عليه؛ لم يكونا حبيبين. تحدثا في أمور عادية. كان القمر بدرًا جميلًا تلك الليلة، والهواء نسانم، والطقس صافيًا بلا مطر؛ كان الطقس مثاليًا لتناول العشاء.

قالت كارلا: — أنا من سيدفع اليوم، أشعر برغبة جامحة في تناول مشروب ما.

ركبا الباص، واجتازا البوسفور بصمت وقور، كما لو أنهما يختبران تجربة دينية. ترجّلا عند المحطة الأولى، ومشيا بمحاذاة الضفة الآسيوية، حيث قامت خمسة مطاعم أو ستة، بطاولات افترشتها أغطية من النايلون.

جلسا في المطعم الأول الذي بلغاه، وتأملا المنظر الذي أطل عليهما؛ لم تكن المعالم الأثرية في اسطنبول مُنارة، بعكس العالم في أوروبا، غير أن القمر تكفل بإلقاء أجمل ما رأياه من أنوار على المدينة.

دنا منهما نادل لأخذ طلبهما. فاوكلاه أن يختار عنهما أفضل الأطباق وأكثرها تقليدية. من الواضح أن النادل لم يتعود هذا النمط من الطلبات. — لكن أحتاج إلى معرفة ما تريده. هنا، يعرف الجميع مبدئيا ما يريدونه.

يريد الأفضل، ألا تفي هذه الإجابة؟

بالطبع. لم يُصرّ النادل وبذل أن يصرّ، تقبّل واقع أن هذا الثنائي الأجنبي يضع فيه ثقته. ألقى ذلك بمسؤولية كبيرة عليه، ومده في آن بفرح عظيم.

— وماذا تودان أن تشربا؟

— أفضل أنواع النبيذ المحلي. لا نريد أي شيء من أوروبا، فنحن في آسيا! كانا فعلاً يتناولان العشاء في آسيا، معاً، وللمرة الأولى في حياتهما! — للأسف لا نقدم الكحول هنا. إنها الأنظمة الدينية الصارمة.

— لكن تركيا بلد علماني، أليس كذلك؟

— «بالطبع. لكن مالك المطعم متدين». وإن أرادا شرب الكحول، فهناك مطعم آخر، على بعد أمتار. يستطيعان أن يحتسبا النبيذ على بعد أمتار، لكن كانا ليضيعا فرصة تأمل المنظر المذهل لاسطنبول تحت ضوء القمر. وسالت كارلا نفسها إن كانت ستمكّن من قول كل ما تريد قوله من دون أن تشرب. أما باولو، فلم يخامرهُ ولو ذرة شك، أنه سيتخلّى طوعاً عن النبيذ.

أحضر النادل شمعة حمراء في قنديل حديدي، وأضاءها في وسط الطاولة. راقبا كل ذلك بصمت. تشبعا من الجمال المحيط بهما، وسكرا به. - كنا نتكلم عن يومنا. قلت إنك توجهت أولاً إلى البازار لتبحث عني، لكنك بذلت رأيك. حسناً فعلت، لم أكن هناك. سنذهب معاً في الغد.

كانت كارلا تتصرف عكس عاداتها، بدت رقيقة بوضوح، وهي صفة لم تتصف بها إجمالاً. لعلها التقت أحداً ما وأرادت أن تخبر عن تجربتها. - أبداً أنت. غادرت قائلاً إنك تبحث عن مكان فيه مراسم دينية. أوجلبته؟

- لم أجد ما كنت أبحث عنه بالضبط، لكنني وجدت شيئاً آخر.

قال الرجل الذي لا اسم له عندما رأى الشاب بثيابه الزاهية الألوان يعبر الباب: - أفترض أنك اختبرت تجربة قوية لكون هذا المكان مشبعًا بطافة الدراويش الدوارين. مع ذلك، لا بُدَّ من أن أشدّد على أن الله حاضر في كل مكان من الأرض، في أصغر الأشياء، الحشرات، ذرة رمل، كل شيء. - أريد تعلّم التصوّف. أحتاج إلى معلّم.

- ابحث عن الحقّ إذن. ابحث عن مرافقته في كلّ آن، حتّى حين يؤلّك، حتّى وإن طال صمته، أو لم يقل لك ما تريد سماعه. هذا هو التصوّف. والباقي شعائر مقدّسة تُجدي فقط في تعظيم النشوة الروحيّة. لكن، لتشارك فيها، عليك أن تعتنق الإسلام، وهو أمر لا أنصحك بفعله صراحةً، فليس من الضروري أن تعتنق دينًا لمجرد اتّباع شعائره.

لكنني أحتاج إلى من يرشدني على الدرب المؤدّي إلى الحقّ.

- التصوّف لا يقوم على ذلك. وُضعت آلاف الكتب حول الدرب المؤدّي إلى الحقّ، ولا يشرح أيّ منها ماهيّته بالضبط. باسم الحقّ، ارتكب البشر من الجرائم أفظعها. خرّق رجالٌ ونسوةٌ أحياء، ودُمّرت حضارات بأكملها. نُبذ من ارتكبوا خطايا الجسد، وهُمّش من اتّبعوا دربًا مختلفة. حتّى أن واحدهم صُلِبَ باسم الحقّ. لكن قبل مماته، ترك لنا التعريف الأكبر للحقّ: ليس الحقّ ما يزودنا باليقين، ولا الحقّ ما يعطينا الفكر البليغ، ولا الحقّ ما يجعلنا أفضل من غيرنا، وما يجعلنا أسرى أحكامنا المُسبقة. الحقّ يحزرنّا. قال يسوع: «وَسَتَعْرِفُونُ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ سَيَحْزِرُكُمْ».

صمت الرجل لبرهه.

— ليس التصوف سوى تحديث للذات، تحويل للذهن، قدرة على فهم
أن الكلمات تعجز عن وصف «المطلق»، «الأزل».

قُدِّمَ الطعام. أدركت كارلا تمامًا ما عناء باولو، وجلَّ ما كانت ستقوله له عندما يحين دورها، سيكون مُستندًا إلى كلامه.

سألت: هلَّا أكلنا بصمت؟ مرَّة أخرى، وجد باولو سلوكها غير اعتيادي. في العادة، كانت تردَّد تلك الكلمات بنبرة بتعجَّب.

نعم، أكلًا بصمت، مُحدِّقين إلى السماء والبدر ومياه البوسفور التي لعت من شعاعاته، بوجهين أنارتها شعلة الشمعة، بقلبين فاضا بذلك الإحساس الذي يتفجَّر متى التقى غريبان ودخلا معًا فجأةً بعدًا آخر. كلُّما سمحنا لأنفسنا أن نتلقَّى العالم، تلقينا أكثر، أكان حبًّا أو كراهية. لكن في هذه اللحظة، لم يكن من حبٍّ ولا كراهية. لم يكن باولو يبحث عن أيِّ تجلِّيات، ولم يُجلِّ أيَّ تقليد، وغاب عنه كلُّ ما جاء في النصوص المقدَّسة، والمنطق، والفلسفة وكلِّ شيء.

كان قد دخل حالة من الفراغ التام. وهذا الفراغ، بتناقضه المتأصل فيه، عمَّ كلَّ شيء.

لم يسألا عما قُدِّم إليهما. كان ما قُدِّم كميات صغيرة متعدِّدة في أطباق كثيرة. لم يتشجعا على شرب الماء، فطلبوا الصودا، كانت أقلَّ تشهيًّا، لكن أضمن.

تجراً باولو على النطق بالسؤال الذي تحرّق إلى طرحه، السؤال الذي بمقدوره أن يفسد السهرة، لكنّه لم يتمكّن من تمالك نفسه أكثر.

– أنت مختلفة كلياً الليلة. هل التقيت رجلاً وأغرمت به؟ لست مضطرة إلى الإجابة إن كنت لا تريدين ذلك.

– التقيت رجلاً وأغرمت به، لكنّه لا يعرف ذلك.

– أهذا ما حدث اليوم؟ أهذا ما أردت أن تخبريني به؟

– نعم، عندما تنتهي أنت من إخباري بقصّتك، أم أنّها انتهت؟

– لا، لكن عليّ أن أبلغ النهاية، لأنني لم أختبرها بعد.

– أودّ الاستماع إلى الباقي.

لم تحمل إجابتها عن سؤاله أي غضب، وحاول التركيز في طعامه. إذ لا يروق للرجال أن يسمعوا أموراً مماثلة، خصوصاً من المرأة التي يتناولون العشاء معها. كان لا يزال يريدّها أن تكون حاضرة معه بكلّيتها، أن تركز في اللحظة، في عشاّتهما على ضوء الشمعة، والقمر الذي ألقى بنوره على النهر والمدينة.

أخذ يتذوّق القليل من كلّ طبق، معجّبات محشوّّة باللحم تشبه الراهيولي، لفافات من ورق العنب المحشوّ بالأرز، اللبن الزبادي، الخبز غير المخمر الساخن، الفاصوليا، أسياخ اللحم، أنواع من البيتزا لها شكل الزوارق محشوّّة بالزيتون والتوابل. سيدوم هذا العشاء دهوراً مع ذلك، ولدهشتها الكبيرة، مُسحت كلّ الأطباق كما لو بسحر ساحر، كانت لذيذة إلى درجة أنّهما لم يريدّا تركها تبرد وتفقد نكهتها.

رجع النادل، رفع الأطباق البلاستيكية، وسأل إن كان في وسعه تقديم الطبق الرئيسي.

— يستحيل! لقد أتخمننا!

— لكنه قيد التحضير، لم يعد في وسعنا التوقف الآن.

— سوف نسدد ثمنه بكل سرور، لكن أرجوك، لا تحضر أي شيء بعد،
وإلا سنعجز عن المشي لاحقاً.

ضحك النادل، وضحكا. هبت رياح غريبة، جلبت معها أمورا غير
متوقعة، وملاّت كل ما أحاط بهما بنكهات وألوان غير مألوفة.

لم يكن الطعام السبب، ولا القمر، ولا البوسفور، ولا الجسر، بل اليوم
الذي اختبراه كلاهما.

سالت كارلا، وهي تشعل لفافتي سجائر مدّت بإحداهما إليه، — هل
ستخبرني بالباقي؟ أستميت لأخبرك عن يومي ولقائي بذاتي.

يبدو أنّها التقت توأم روحها. في الحقيقة، لم يعد باولو مهتماً البتّة
بسماع قصته هو، لكنّها طلبت إليه أن يسردها لها، وسوف يسردها حتّى
النهاية.

استحضر باولو وجوده في القاعة الخضراء بأعمدتها ذات الطلاء المتقشر، والنوافذ المتكسرة التي لا بُدَّ من أنها كانت يوماً عملاً فنياً حقاً. كانت الشمس قد غابت وغرقت القاعة في الظلمة. وكان الوقت قد حان للعودة إلى الفندق، غير أن باولو أصرَّ على استجواب الرجل الذي ليس له اسم.

— لكن، لا بُدَّ من أنك، سيدي، حظيت بمعلم.

— كان لي ثلاثة، لم يكن أيُّ منهم على صلة بالإسلام، ولم يعرفوا أشعار الرومي. في خلال تعلّمي، سألت قلبي الرب: «هل أنا على الدرب القويم؟»، أجاب: «نعم». أردت معرفة المزيد: «ومن أنتم؟». أجاب: «أنت».

— من كان معلمك الثلاثة؟

ابتسم الرجل، أشعل النرجيلة الزرقاء المائلة إلى جانبه. أخذ منها بضعة أنفاس، عرضها على باولو الذي فعل مثله، وجلس على الأرض.

— كان الأول لصاً. ذات مرّة تهت في الصحراء وبلغت منزلي في وقت متأخر جداً من الليل. كنتُ قد تركت مفتاحي لدى جاري، لكن لم أَرِدْ إيقافه في تلك الساعة. أخيراً، وجدتُ رجلاً، طلبتُ إليه أن يساعدي، وفتح القفل بمرمّة عين. أعجبت جداً بما فعل، ورجوته أن يُعلّمني فنّه. اعترف لي أنه صرف حياته يسرق الناس. لكنني كنت ممتناً له إلى درجة أنني

دعوته إلى البيت عندي ليلتها. مكث شهراً في بيتي. كل ليلة، كان يخرج قائلاً: «سأذهب إلى العمل، وأصل تأملك، وأحرص أن تصلي». وحين يعود، كنت أسأله على الدوام إن كان قد جنى شيئاً، وكان يجيبني الإجابة نفسها: «ليس الليلة. لكن إن شاء الله، سأحاول في الغد». كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يائساً من الإخفاق. صرفت جزءاً كبيراً من حياتي للتواصل مع الله ولم أفلح، كنت أتأمل وأتأمل ولم يحدث شيء. فكنت أتذكر كلمات اللص: «ليس الليلة. لكن إن شاء الله، سأحاول في الغد». عرفت منه قوتي لأستمر.

ومن كان الشخص الثاني؟

— كان كلباً. كنت متجهاً إلى النهر لأشرب، وإذا بالكلب يظهر. كان عطشاناً هو أيضاً، لكن، عندما دنا من النهر، رأى كلباً آخر، لم يكن سوى طيفه. ارتاع وتراجع ونبح، وفعل كل ما في وسعه ليتحرر من الكلب الآخر. لم يحدث شيء طبعاً. أخيراً، اشتد عطشه إلى درجة أنه قرّر مواجهة الوضع، وارتقى في النهر، عندها، اختفى الطيف.

صمت الرجل الذي ليس له اسم برهة ثم تابع.

— أخيراً، كان معلمي الثالث ولداً. كان يتجه إلى المسجد القريب من القرية التي سكنها حاملاً في يده شمعة مضاءة. سألته: «أنت من أضاء الشمعة؟». أجاب «نعم». لكن بما أنني كنت أخشى أن يلعب الأولاد بالنار، سألته مجدداً: «يا صبي، في لحظة من اللحظات لم تكن هذه الشمعة مضاءة. فهل تخبرني من أين جاءت الشمعة الملتهبة الآن؟». ضحك الصبي، أطفأ الشمعة، وسألني من ثم: «وأنت، سيدي، هل تخبرني أين اختفت الشمعة؟». عندها فهمت كم كنت غيباً. فمن ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ أين

تختفي؟ فهمت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه الشعلة المقدسة في لحظات معينة، لكنه يجهل من أين جاءت. مذاك، رحت أنتبه لكل ما يحيط بي، للشُخب والشجر والأنهر والغابات، والرجال والنساء. كل شيء من الأشياء زودني بالمعرفة التي احتجت إليها لحظة حاجتي إليها. كان لي آلاف المعلمين طوال حياتي. رحت أؤمن أن الشعلة ستُنير دربي متى كنت في أمس الحاجة إليها. كنت تلميذ الحياة ولا أزال. واستطعت أن أتعلّم من أبسط الأمور وأقلها توقُّعًا، مثل القصص التي يُخبرها الأهل لأولادهم. لهذا، عرفت أن حكمة التصوُّف بمعظمها لا ترد في النصوص المقدسة، بل في القصص والصلوات والرقص والتأمل.

من جديد، تناهت إلى باولو أصواتٌ علت من مكبرات صوت المساجد. دعا المؤذّنون المؤمنين إلى الصلاة الأخيرة لليوم. ركع الرجل الذي ليس له اسم باتجاه القبلة ليصلي. عندما انتهى، سأل باولو إن كان بإمكانه العودة في اليوم التالي.

قال الرجل، - بكل تأكيد. لكنك لن تتعلّم أكثر ممّا يريد قلبك أن يعلمك. ليس لديّ ما أقدمه إليك سوى القصص، ومكانًا تأتي إليه متى لزمك السكون، ما دمنا لا نوذّي إحدى رقصاتنا الدينية.

التفت باولو إلى كارلا.

— جاء دورك الآن.

نعم، عرفت ذلك. سَدَدِ الفاتورة، ومشيا نحو حافة المضيق. أمكنهما سماع السيارات تطلق أبواقها على الجسر، لكنّها لم تُفسد القمر والمياه ومنظر اسطنبول.

— اليوم، جلست عند الضفة المقابلة، وصرفت ساعات أنظر إلى النهر يجري. استذكرت أسلوب عيشي حتّى لحظتها، والرجال الذين قابلتهم، وسلوكي الذي بدا أنّه لم يتغيّر قط. كنت متعبة من نفسي. وسألتها: لمّ أنا هكذا؟ أكنت الوحيدة العاجزة عن الحب، أم أنّ ثمة أشخاصاً آخرين؟ تعرّفت في حياتي إلى الكثير من الرجال الذين كانوا على استعداد لفعل أيّ شيء من أجلي، ولم أقع في غرام أيّ منهم. حسبت أحياناً أنّي التقيت أخيراً فارس أحلامي، لكن لم يُعمر هذا الإحساس طويلاً، وكنت أضيق ذرعاً به سريعاً، مهما رعاني واهتمّ بي وأحبّني. لم أكن أبّرر لهم شيئاً، كان حسبي قول الحقيقة. كانوا يلجأون إلى فعل كلّ شيء لاستعادتي، لكن عبثاً. كان مجرد لمسهم ذراعي ينفرنني. عرفت أشخاصاً هددوني بالانتحار، لكنني أحمد الله على أنهم لم يجسّدوا قولهم فعلاً. لم أشعر يوماً بالغيرة. وفي وقت من الأوقات، عندما اجتزّت عتبة العشرين، خلّت أنّي عليلة. لم أكن يوماً مخلصة. لطالما وجدت عشاقاً آخرين، حتّى عندما

أكون مع شخص كان يفعل كل شيء من اجلي. عرفت طبيباً نفسياً، أو محلاً نفسياً، لا ادري تماماً، وذهبنا معاً إلى باريس. كانت المرة الأولى التي لاحظ فيها أحدهم شيئاً. جاءني بعباراته الجاهزة قائلاً إنني احتاج إلى عناية طبيب، وإن جسمي يفتقر إلى مادة ما. وبدل أن اطلب المساعدة الطبية، رجعت إلى أمستردام.

لا بُدَّ أنك قد لاحظت وتصورت أنني أستطيع بسهولة إغواء الرجال. لكن متى حدث الأمر، أفقد الاهتمام. هذا ما دفعني كي اذهب إلى نيبال؛ فكرت في عدم العودة منها، أن أشيخ فيها مُحاولَةً اكتشاف حبي لله... واعترف أنني أخال حتى الآن أنني أحب لله، لكنني لستُ على يقين تام من ذلك. في الحقيقة، لم أجد يوماً إجابة عن سؤالي، لم أَسأ استشارة الأطباء، أردت ببساطة أن أختفي عن وجه الأرض وأكسّر حياتي للتأمل، لا أكثر. لأن حياة بلا حب لا تستحق أن تُعاش. فما الحياة بلا حب؟ هي شجرة لا تثمر. هي النوم بلا أحلام. وهي أحياناً سهاد. هي العيش يوماً تلو اليوم في انتظار أن تنفذ الشمس إلى غرفة موصدة تماماً، مطلية بالأسود، غرفة تعرف مكان مفاتها، لكنك لا ترغب في أن تفتح الباب وتخرج.

أخذ صوتها يتكسر، كما لو أنها كانت ستبكي. دنا باولو منها، وحاول أن يعانقها لكنّها أبعدته.

— لم أنتهِ بعد. لطالما أجدتُ التلاعب بالآخرين. ومدّني ذلك بثقة كبيرة بنفسي، بفوقيّتي، حيث ردّدت لنفسني بلا وعي قائلة: «لن أسلم نفسي بكنيتي إلا للذي سيتمكّن من ترويضني». وحتى الآن، لم يأت أحد.

التفتت إليه. تطايرت من عينيها شرارات بدل الدموع التي كانت تتوقع أن تملأهما.

– لم أنت هنا في أرض الأحلام هذه؟. لأنني أردت لك ذلك. لأنني كنت في حاجة إلى من يرافقني، وخلصت أنك الرفيق المثالي، حتى بعد أن كشفت شوائبك، ادعيت أنك رجل حرّ عندما تبعث الهاري كريشنا في الشوارع، عندما ذهبت إلى بيت الشمس الشارقة ذاك لتظهر مدى شجاعتك، في حين أن ما قمت به كان سخافة في الواقع، عندما لبّيت دعوتي لرؤية طاحونة: طاحونة! كما لو أنك كنت ذاهباً إلى المريخ.

– أنت من أصرّ.

هي لم تصرّ، طرحت عليه اقتراحاً فقط، لكن على ما يبدو أنّ اقتراحاتها قد اتخذت شكل أوامر عموماً. تابعت من دون أن تتكبّد عناء التفسير.

– يومها، عندما رجعنا إلى المدينة من الطاحونة وفعلنا ما أردته آنذا وهو شراء تذكرة الباص إلى نيبال، أدركت أنني أغرم بك. لم يكن ثمة سبب ما، إذ لم يتغير شيء بين ليلة وضحاها. ولم يكن السبب محرماً أقدمت عليه أو شيئاً قلته، لا شيء إطلاقاً. لكنني كنت أغرم بك بشدة. وعرفت، شأنني في كلّ المرات السابقة، أنّ هذا الشعور لن يدوم. أنت لا تناسبني البتّة. بقيت أنتظر أن يتبدّد الشعور، ولم يتبدّد. وعندما رحنا نحادث رايان وميرث، شعرت بالغيرة للمرة الأولى. سبق أن عرفت الحسد، والغضب، وعدم الأمان النفسي، لكن الغيرة؟ لم تكن الغيرة جزءاً من عالمي. خلت أن عليكم جميعاً أن تولوني انتباهاً أكثر، أنا المستقلة، الجميلة، الذكية، القويّة الإرادة. قرّرت أن ذلك لم يكن شعوراً بالغيرة من ميرث، بل بالأحرى شعور بالحسد، لأنني لم أكن محور الانتباه.

أمسكت كارلا بيده.

— وهذا الصباح، حين جلستُ أنظر إلى النهر، وتذكّرتُ الليلة التي رقصنا فيها معًا حول النار، اكتشفتُ أنّ ما شعرتُ به، لم يكن افتتانًا، ولا ما يشبهه، بل كان حبًّا. حتّى بعد لحظة الحميمية التي عبرت بيننا مساء أمس، وأظهرت فيه مدى احتمال أن تكون عاشقًا رديئًا، لم أكف عن حبّك. أعرف أنّني أحبّك وأعرف أنّك تحبّني، وأن بمقدورنا أن نقضي ما تبقى من حياتنا معًا، على الطريق، في نيبال، في ريو، أو على جزيرة مهجورة. أحبّك وأحتاج إليك في حياتي.

لا تسألني لماذا أقول لك هذا الآن. لم يسبق لي أن قلته لأحد، وانت تعرف أنّني صادقة. أحبّك ولا أسعى إلى تبرير مشاعري.

أدارت وجهها نحوه أمله أن يقبلها. وبغرابة، فعَل، غير أنّ قبلته كانت غريبة، وقال إن من الأفضل العودة إلى أوروبا، إلى الفندق. كان نهارهما عامراً بالأحداث، والعواطف، والافتتان المطلق.

اعتري الخوف كارلا.

وفاقها باولو خوفًا. في الحقيقة، كان يعيش مغامرة حلوة معها تخللتها لحظات شغف، لحظات رَغَب فيها أن تُلَازمه إلى الأبد، لكنّ هذا كلّهُ كان قد انتهى.

لا، هو لم يحبّها.

ففي الصباح، تحلق الجميع حول مائدة الفطور لتبادل التجارب والتوصيات. جلست كارلا وحدها. وعندما سألوها أين باولو، قالت إنه أراد أن يستغل كل ثانية لكي يتبحر في أمر الدراويش الدوارين المشهورين، وإنه كان يذهب كل يوم للقاء شخص ربما علمه أكثر.

قال لي: «يُمكن لعالم اسطنبول الأثرية ومساجدها وخزانات مياهها وعجائبها، أن تنتظر. فهي لن ترح مكانها. لكنني في صدد تعلم أمر قد يتبدد بين لحظة وأخرى».

فهم الآخرون جيداً. ففي النهاية، وبحسب ما استشفوه، لم تتعد علاقتهما إطار غرفة تشاركها فيها.

وليلة رجوعهما من آسيا، بعيد العشاء، مارسا حباً مذهلاً إلى درجة أنها وجدت نفسها تتصبب عرقاً، وإشباعاً، واستعداداً لفعل أي شيء من أجل هذا الرجل. غير أن كلامه أخذ يقل ويقل.

لم تتجزأ على طرح السؤال البديهي عليه: أتعبني؟ فهي لم تكن على يقين من ذلك. والآن أرادت أن تتناسى حاجاتها هي، وأن تدعه يلتقي ذلك الفرنسي الذي كان يتحدث عنه ويتعلم منه ما أمكن عن التصوف، في النهاية، كانت فرصة فريدة. وعندما دعاها شبيه راسبوتين إلى مرافقته

لرؤية متحف قصر توبكابي، رفضت. اقترح عليها رايان وميرث مرافقتهم
إلى البازار الكبير، قائلين إن كل شيء قد أخذ منهما كل ماخذ إلى درجة
أنستهما الأساس: كيف يعيش أهل هذه المدينة؟ ماذا يأكلون؟ ماذا
يشترون؟ قبلت، وتواعدوا على اللقاء في اليوم التالي.

تدخل السائق ليقول لها أن اذهبوا اليوم وإلا لن يحدث ذلك أبداً. فقد
جرى احتواء النزاع في الأردن، وسوف ينطلقون في الغد. رجا كارلا أن تبلغ
بأولو، كما لو أنها كانت حبيبته، أو عشيقته، بل زوجته.

رنت: «بكل تأكيد.. في حين أنها من قبل كانت لترد بما يشبه رد
قايين على هابيل، «أحارس أنا لأخي».

وعلى اثر كلام السائق، عبر الآخرون عن امتعاضهم. أتعقل؟ أليس
مفترضاً أن يقضوا أسبوعاً في اسطنبول؟ لم يمض سوى أيام ثلاثة، واليوم
الأول لا يحتسب، إذ كانوا مرهقين وعاجزين عن فعل أي شيء.

لا. كانت وجهتنا، ولا تزال، الذهاب إلى نيبال. توقفنا هنا لأننا لم
نملك خياراً آخر. والآن، علينا الإسراع في المغادرة، لأن الصحف والشركة
التي تعمل لديها، تفيدان بأن ثمة خطراً في أن يستأنف النزاع. كما أن
هناك اشخاصاً، في كاتماندو ينتظرون العودة.

كانت الكلمة الفصل له. اضاف قائلاً إن من لا يكون على استعداد
للمغادرة عند الحادية عشرة صباح الغد، سيكون عليه انتظار وصول
الباص التالي، بعد خمسة عشر يوماً.

قررت كارلا مرافقة رايان وميرث إلى البازار الكبير. وانضم إليهما
جاك وماري. ومع أن أحداً لم يتجراً على السؤال، لاحظ الجميع أن كارلا
لم تعد على حالها، بدت أخف، أكثر بريقاً. لا بد من أن هذه الفتاة،

الواقعة أبداً بنفسها وقراراتها، لا بُدَّ أنَّها مغرمة بذلك البرازيلي النحيل ذي السكسوكة.

أما كارلا، ففكرت: «لا بُدَّ من أنَّ الآخرين قد لاحظوا أنني تغيّرت. هم يجهلون السبب، لكنهم لاحظوا..»

كم هي رائعة القدرة على الحب. فهمت الآن لمَ كان الحب مهماً إلى هذه الدرجة لكثير من الناس، بل لجميعهم في الواقع. تذكرت بحسرة في قلبها مدى الألم الذي لا بُدَّ أنَّها تسببت به. لكن لم يكن باليد حيلة، فهذا هو الحب.

فالحب هو ما يُتيح لنا أن نفهم مهمتنا على الأرض، والغاية من وجودنا. ومن يحفظ ذلك سوف يظله الخير والحماية، سوف يجد السلام في اللحظات الصعاب، سيُعطي كلَّ شيء من دون أن يطلب مقابلاً، إلّا وجود حبيبه إلى جانبه، حامل النور، كأس الخصوبة، الشعلة التي تُنير الدرب.

هذا ما وجب أن تكون عليه الحال. إذ ذاك سوف يغدو العالم ألطف دوماً، ويستحيل الشرّ خيراً، والكذب حقيقة، والعنف سلاماً.

فالحب برقته يهزم الغاشم، ويروي ظمأ من يبحث عن ماء الوجدان الحي، ويترك باباً مشرعاً لكي ينفذ منه النور والمطر المبارك.

فالحب يجعل الوقت يمرّ أبطأ أو أسرع، لكنّه لا يمرّ كما مر من قبل متّبعا للإيقاع الرتيب نفسه، رتابة لا تحتمل.

كانت تغيّرات باطنها بطيئة، لأنّ التغيّر الحقيقي يستغرق وقتاً. لكن شيئاً ما كان يتغيّر.

قبل أن يخرجوا، دنت ماري من كارلا.

— أخبرت الإيرلنديين شيئاً ما عن مخدر LSD، الذي أحضرته، اليس كذلك؟

بالفعل. كان من المستحيل ضبطه، لأنها كانت قد بلّلت صفحة من كتاب «سيد الخواتم» في محلول من هذا الحمض. تركتها تجفّ في الهواء في هولندا ولم تعد سوى مقطع من أحد فصول كتاب تولكين.

— أودّ، أودّ فعلاً، أن أجربَ بعضاً منه اليوم. هذه المدينة فتنتني، أحتاج إلى رؤيتها بعين جديدة. أَيْحتمل أن يساعدني المخدر على ذلك؟
نعم، يستطيع ذلك. لكن إذا لم يسبق للشخص أن تعاطاه، فقد يشهد السموات، وقد يشهد الجحيم.

— خطّتي بسيطة: سوف نذهب إلى البازار، سوف أتوه. هناك، وأخذ الحمض بعيداً عن الآخرين، من دون إزعاج أحد.

لم يكن لهذه الفتاة أدنى فكرة عما تقوله: أن تختبر رحلة هلوسة وحدها، من دون إزعاج أحد.

في البداية، ندمت كارلا حتّى الصميم على البوح لآخرين بأنها أحضرت «صفحة» من الحمض. تستطيع أن تقول للفتاة إنّها أساءت فهم الأمر، وإنّما كانت تقصد شخصيات الكتاب. لكنّ الفتاة لم تاتِ مطلقاً على ذكر أيّ كتاب. تستطيع أن تقول إنّها لم تشأ أن تستحضر كارما سلبية لتعريف أحدهم بأيّ مخدر كان، وخصوصاً ماري. وكان ندمها أكبر لأنّ حياتها قد تغيّرت إلى الأبد، فمتى أحببت شخصاً، ألا تُحبّ الجميع؟

نظرت إلى الفتاة، التي تصغرها بقليل، التي امتلكت فضول المحاربات الحقيقيات، الأمازونيّات، وهي مستعدّة لمواجهة المجهول، الخطر، المُختلف، على غرار ما واجهته هي بذاتها. كان ذلك مُخيّفاً وجيداً في آن. كان من

الخيف والجهد في أن أن تكتشف أنك حي، أن تعرف أنك في النهاية ستلقى ما يسمونه الموت، ومع ذلك تظل قادرًا على عيش كل لحظة، من دون أن تقلق بشأنه.

لنصعد إلى غرفتي. لكن قبل ذلك، أريدك أن تقطعي لي وعدًا.

— لك ما تريدين.

— عليك ألا تبتردي عني ولو لثانية واحدة. LSD على أنواع، وهذا أشدها قوة. قد تكون تجربتك مذهلة أو مريعة.

ضحكت ماري. لم تملك كارلا أي فكرة من كانت ماري، وما اختبرته في حياتها.

أصرت كارلا: — عديني.

— أعدك.

وبما أن باقي أفراد المجموعة كانوا على استعداد للخروج، كانت ذريعة، مشكلات نسائية، ذريعة مثالية في تلك اللحظة. قالنا إنهما سترجعان بعد عشر دقائق.

فتحت كارلا الباب، وشعرت بالفخر للتباهي بغرفتها، رأت ماري الملابس التي تجف، والنافذة المفتوحة للتهوية، والسريّر ذي الوسادتين، والشراشف التي بدت وكأن إحصارًا قد عصّف بها، وهو في الواقع إحصار حقًا، أخذ معه عدة أمور وخلف أمورًا أخرى.

توجهت نحو حقيبة ظهرها، أخرجت منها الكتاب، وفتحته على الصفحة ١٥٥. وبوساطة مقص صغير لم يفارقها يومًا، قصّت من الورقة نحو سنتيمتر ونصف تقريبًا.

مدّت بالقصاصة إلى ماري، وطلبت إليها أن تمضغها جيدًا.

— اهذا كل شيء؟

— صراحةً، كنت قد فكرتُ في أن أعطيك النصف فقط. لكنني خلتُ
إنك قد لا تشعرين بمفعوله، لذا أعطيك الجرعة التي كنت أتناولها
بنفسي.

لقد كذبت. كانت تعطيتها نصف جرعة، وبحسب رد فعل ماري
ودرجة تحملها، سوف تمنحها التجربة نفسها لجرعة كاملة، لكن في
غضون وقت أطول.

— تذكرني ما قلته: هذا ما كنت أتناوله. لم أقرب المخدر من فمي
منذ أكثر من سنة، ولا أدري إن كنتُ سأتناوله مجددًا بعد الآن. ثمة
طرائق أكثر فاعلية لبلوغ النتيجة نفسها، وإن كنت لا أملك الصبر
لتجربتها.

— مثل ماذا؟. كانت ماري قد وضعت قصاصة الورقة في فمها،
وكان الأوان قد فات لتبدل رأيها.

— التأمل. اليوغا. الشغف العارم ذلك النوع من الأمور. كل ما يجعلنا
نرى العالم كما لو أننا نراه للمرة الأولى.

— كم من الوقت يستغرق الأمر لأشعر بتأثيراته؟

— لا أعرف. هذا وقف على كل شخص.

أغلقت كارلا الكتاب وردته إلى حقيبتها. نزلتا، وانطلق الجميع معًا
إلى البازار الكبير.

كانت ميرث قد أخذت من الفندق منشورًا عن البازار الكبير الذي أنشأه عام ١٤٥٥ سلطان تمكّن من استعادة القسطنطينية من البابا. وفي زمن حكمت فيه الإمبراطورية العثمانية العالم، كان البازار المكان الذي يشتري منه الناس بضائعهم، وكبر أكثر فأكثر إلى درجة اقتضت توسيع منشآت السقف مرارًا.

غير أنّ ما قرأوه لم يكن كافيًا كي يهيئهم لما كان في انتظارهم. جال آلاف الناس في الأروقة المكتظة، بين النوافير والمطاعم، وأماكن الصلاة، والمقاهي والسجاد. باختصار، كان هناك كلّ ما أمكن أن تجده في أفضل مركز تسوّق في فرنسا؛ مجوهرات ذهبية مصقولة بأبهى شكل، ملابس من كلّ شكل ولون، أحذية، سجّاد من مختلف الأصناف، حرفيون يعملون غير أبهين بمن حولهم.

سألهم أحد التجّار إن كانت الأثريات تهمهم. كان واضحاً بما لا يقبل الشك أنهم سيّاح، لجّد الطريقة التي كانوا ينظرون فيها إلى كلّ الاتّجاهات.

سأل جاك التاجر: — ما عدد المتاجر هنا؟

— ثلاثة آلاف. مسجّبان. نوافير عدّة. وعدد هائل من الأماكن التي يمكنك أن تتذوّق فيها أفضل ما في المطبخ التركي. لكن لديّ بعض التماثيل الدينية التي لن تجدها في أيّ مكان آخر.

شكره جاك قائلاً إنه سيعود قريباً. وإذا عرف البائع أن جاك يكذب،
كثف جهوده للحظات، لكن سرعان ما أدرك أن لا جدوى من الإصرار،
وتمنى لهم نهاراً سعيداً.

سألت ميرث: - «أتعرفون أن مارك توين قد جاء إلى هنا؟». كانت
تتصيب عرقاً وروّعها ما رآته. ماذا لو شبّ حريق؟ من أين سيخرجون؟
في أي اتجاه يقع الباب الصغير الذي دخلوا منه؟ وكيف يمكن الحفاظ على
تماسك المجموعة إذا أراد كل الذهاب في اتجاه مختلف؟
- وماذا قال مارك توين فيه؟

- قال: «إن ثمة استحالة في وصف ما رآه، لكنها كانت تجربة أشدّ
وأهمّ من زيارة المدينة. تحدّث عن طيف الألوان وتنوّع التدرّجات البصريّة،
والسجّاد، والناس المتحدّثين، عن الفوضى الواضحة التي بدت مع ذلك أنها
تتبع انتظاماً عجز عن تفسيره». وكتب: «إذا أردت أن أشتري حذاءً، لا
أحتاج إلى التنقل من متجر إلى آخر على طول الشارع والمقارنة بين الأشكال
والأسعار، بل إنني ببساطة أجد جناح صانعي الأحذية، المصطفيين الواحد
خلف الآخر من دون تنافس بينهم. أو إبداء انزعاج، فالأمر برمته يتوقّف
على من منهم البائع الأفضل».

وامتنعت عن القول إن البازار سبق أن تعرّض لأربع حرائق وهزّة
أرضيّة. ويبقى لغزاً عدّ ضحايا هذه الكوارث، لأن منشور الفندق اكتفى
بتلك المعلومة، وعثّم على أي ذكر لعدد الجثث.

لاحظت كارلا أن ماري قد سمرت عينيها في السقف، في العوارض
والقُبب القوّسة، وراحت تبتسم ولا يسعها النطق سوى بعبارة واحدة: «يا
للتحفة! يا للتحفة!».

كانوا يتقدمون كيلومتراً واحداً في الساعة. ومتى توقف أحدهم،
توقف الجميع. لكن الآن، احتاجت كارلا إلى بعض الخصوصية.

— إذا تابعنا على هذا النحو، فلن نبلغ حتى التقاطع المؤدي إلى الجناح
التالي. لم لا نفرق ونلتقي في الفندق؟ للأسف، وللأسف فعلاً، سنرحل في
الغد، علينا إذن أن نستفيد أقصى ما يمكن من هذا اليوم الأخير.

رغب الجميع باقتراحها بحماسة. اقترب جاك من ماري لاصطحابها،
لكن كارلا منعتة.

— لا يمكنني البقاء هنا وحدي. دعنا نكتشف معاً عالم العجائب هذا.

رأى جاك أن ماري لم تخصه ولو بنظرة، ردّت فقط «يا للتحفة!». وهي تحدّق إلى السقف. هل عرض أحدهم عليها الحشيشة عندما دخلوا
البازار؟ هل قبلت؟ في أي حال، كانت راشدة بما يخولها الاعتناء بنفسها.

تركها مع كارلا، هذه الفتاة النائرة دوماً، المستعدة دوماً أن تثبت أنها
أذكى كثيراً وأرفع ثقافة من الآخرين جميعهم. بدا له مع ذلك، خلال
هذين اليومين الأخيرين في اسطنبول، أنها أضحت أكثر وداً، أخيراً، وإن
قليلاً.

تابع طريقه، واختفى وسط الحشد. ما إن فعل، حتى أخذت كارلا
ماري من ذراعها.

— فلنخرج من هنا في الحال.

— لكن كل شيء جميل جداً. انظري إلى الألوان، يا للتحفة!

لكن كارلا لم تكن تسألها، بل كانت تامرّها وأخذت تجرّها بلطف
نحو المخرج.

— يا للتحفة! كانت ماري تنتشي أكثر فأكثر بما رآته، وغابت تمامًا، فيما حاولت كارلا أن تسأل عدّة أشخاص عن اتجاه المخرج الأقرب، لكنها حصلت على إجابات عدّة مختلفة. أخذ تتوتّر، كان الخروج رحلة هלוسة بحدّ ذاته على قدر مخدّر LSD، ولم تكن واثقة بما ستكون حال ماري إذا امتزج التأثيران.

رجعت إليها العدائيّة والاستبداد. أخذت تمضي من اتجاه إلى آخر، ولم تتمكّن من العثور على الباب الذي دخلوا منه. لم يكن مهمًّا الخروج من الباب نفسه، لكن الآن أصبحت كلّ ثانية ثمينة. أخذ الجوّ يتناقل، والناس يتصبّبون عرقًا، ولم يتنبّه أحد إلّا لما كان يشتره، أو يبيعه أو يساوم فيه.

أخيرًا خطرت لها فكرة. بدل مواصلة البحث في كلّ الاتجاهات، عليها الثبات على اتجاه واحد، والسير في خطّ مستقيم. عاجلاً أم آجلاً، سينتهي بها الأمر إلى إيجاد السور الذي يفصل بين العالم الخارجي وهيكّل الاستهلاك الأكبر الذي وقعت عليه في حياتها. رسمت في ذهنها خطًّا مستقيمًا متضّرعة إلى الله (الله؟) أن يكون السبيل الأقصر. بينما كانتا تسيران في سبيلهما المختار، أوقفها آلاف المرات أشخاص رُوجوا لبضائعهم. شقّت طريقها دافعة إياهم من دون أن تقول «عذراً»، ومن دون أن تراعي أنّهم قد يدفعونها أيضاً.

صادفت بين الحشد مراهقًا بشارب نبت حديثاً. لا بُدّ من أنّه دخل البازار من فوره. بدا أنّه يبحث عن شيء. قرّرت استخدام كلّ سحرها،

وإغوائها، وقدرتها على الإقناع، ورجته أن يصطحبهما إلى المخرج، متذرة بأن أختها أصيبت بنوبة هذيان.

لقى الفتى بنظرة على الأخت المزعومة ورأى أنها فعلاً في مكان آخر، بعيد جداً. حاول بدء حديث، شارحاً أن لديه عم على مقربة يستطيع مساعدتهما، لكنها توسلته، مدعية أنها تعرف الأعراض، وأن أختها في حاجة إلى الهواء تحديداً لا أكثر.

ورغماً عنه، ومتأسفاً لأنه لن يرى هاتين الفاتنتين بعد الآن، رافقهما إلى أحد المخارج الذي كان على بعد أقل من عشرين متراً من حيث كانتا.

ولحظة وطات ماري خارج البازار، أقسمت على التخلي بجديّة عن كلّ أحلامها الثورية. لن تؤكد بعد اليوم أنها شيوعية، وأنها تكافح من أجل تحرير العمال المضطهدين من أرباب العمل.

صحيح أنها راحت ترتدي ملابسها على الطريقة الهيبيّة، لأن من الجيد أحياناً اتباع الموضة، صحيح أنها فهمت أن القلق بدأ يساور أباهما بهذا الصدد، وسعى بكلّ شراسة إلى البحث عن المعنى المحتمل لكلّ ذلك، صحيح أنهما كان في طريقهما إلى نيبال، لكن ليس بهدف التأمل في كهوف أو زيارة معابد، كان هدفهما التواصل مع الماويين الذين كانوا يحضرون لانتفاضة واسعة النطاق ضدّ ما كان في نظرهم نظاماً ملوكياً طاغياً وباليّاً يرأسه ملك لا يعبا بمعاناة شعبه.

في الجامعة، تمكّنت من التواصل مع ماوي، منفياً بإرادته جاء إلى فرنسا بهدف شدّ الانتباه لعشرات المقاومين الذين كانوا يذبّحون في بلاده. الآن، فقد كلّ هذا أهميته. مشّت إلى جانب رفيقتها الهولندية في شارع سخيّف، لا جاذب فيه البتّة، وبدأ كلّ شيء أعظم شأنًا، أبعد من

الجدران المتفشرة والناس الذين مشوا مطاطاي الرأس، ولا يكادون يرفعون
أنظارهم.

— اعتقدين أن الناس يلاحظون شيئاً؟

— لا إطلاقاً، ما عدا ابتسامتك المشرقة على وجهك. ما وجد هذا
الحمض كمخدر لجذب الانتباه.

في هذه الأثناء، لاحظت ماري أمراً. كانت رفيقتها متوترة، لم تكن
في حاجة إلى سماع ذلك، بل وصلها من «الذبذبة» التي انبعثت منها. كلمة
لطالما كرهت هذه الكلمة، لأنها لم تكن تؤمن بهذا النوع من الأمور، لكن
الآن، كان لها أن تدرك أنها موجودة.

— لم نخرجنا من المعبد الذي كنا فيه؟

رمتها كارلا بنظرة غريبة.

— أعلم جيداً أننا لم نكون في معبد. إنها مجرد استعارة. أعرف اسمي،
واسمك، ووجهتنا الأخيرة، والمدينة التي نحن فيها، اسطنبول، لكن يبدو
كل شيء مختلفاً، كما لو أن...

استغرقها إيجاد الكلمات ثواني.

— ... كما لو أننا عبرنا باباً، وتركنا خلفنا العالم المعروف برمته، بما
فيه همومنا، وخيباتنا، وشكوكنا. تبدو الحياة أبسط وأغنى في آن، أكثر
فرحاً. أنا حرة.

أخذت كارلا تسترخي قليلاً.

— أستطيع رؤية ألوان لم أرها قط في حياتي، تبدو السماء نابضة
بالحياة، والغيوم ترسم إشارات لا أفهمها بعد، لكنني على ثقة بأنها تخطأ
لي رسائل، لترشدني من الآن فصاعداً. أنا في سلام مع نفسي، ولم أعد

أرى العالم من الخارج: أنا العالم. أملك حكمة كل أولئك الذين سبقوني، وتركوا بصماتهم في جيناتي. أنا أحلامي.

مرّنا أمام مقهى يشبه مئات المقاهي الأخرى التي كانت في المنطقة. وبما أنّ ماري ظلت تتمتع بها للتحفة، فقد طلبت كارلا إليها أن تصمت لأنهما كانتا على وشك الدخول إلى مكان محظور عليهما نسبياً، مقهى وحدهم الرجال يرتادونه.

— هم يعرفون أنّنا سائحتان، وآمل ألا يفعلوا شيئاً، كطردنا. لكن أرجوك أحسني التصرف.

وهذا بالضبط ما حدث. دخلتا واختارتا طاولة في إحدى الزوايا. ألقى الرجال عليهما بنظرات اندهاش، استغرقهم الأمر بضع دقائق ليدركوا أنّ الفتاتين تجهلان العادات المحلية، ثم استأنفوا أحاديثهم. طلبت كارلا شاي النعناع المحلى جداً. ذاع أنّ السكر يخفف من شدة الهلوسات.

كانت ماري تختبر هلوسات جامحة. تحدّثت عن الهالات الساطعة حول الناس، وزعمت أنّها كانت قادرة على التلاعب بالزمن، وأنّها تكلمت من توّها مع شبح مسيحي كان قد توفي في القتال هنا بالذات، حيث يقع المقهى. كان هذا الرجل المسيحي قد وجد السلام المطلق في الجنّ، وسرّ لإمكانه التواصل من جديد مع أحد ساكني الأرض. كان على وشك التماسها أن تحمل رسالة إلى والدته. لكن عندما أدرك أنّ قروناً عدّة مرّت على موته، إذ أخبرته ماري بذلك، عدل عن الأمر، شكرها، وتبدّد من ثمّ على الفور.

احتست الشاي كما لو أنّها تحتسيه للمرّة الأولى في حياتها. أخذت تعبّر كم كان لذيذاً بتنهدات وإيماءات. لكن طلبت كارلا إليها من جديد

أن تحسن التصرف. ومن جديد شعرت ماري بـ، الذبذبة، التي أحاطت برهيقتها، التي تكشفت هالتها عن عدّة ثقوب مُشعة. أهي إشارة سيئة؟ لا. بدت الثقوب وكأنّها جراح قديمة تلتئم بسرعة. حاولت أن تطمئنّها، أن بإمكانها أن تُقيم محادثة في وسط انخفافها.

— أنتعقدين أنك مغرمة بالبرازيلي؟

لم تجبها كارلا. بدا أحد الثقوب المتلىء بالنور ينكمش قليلاً، وبدلت ماري الموضوع.

— من اخترع هذه المادّة؟ ولم لا توزّع مجاناً على كلّ من يسعون إلى الاتحاد بالغيب، ما دام من الضروري جداً أن نغيّر نظرتنا إلى العالم؟

شرحت كارلا أن مخدّر LSD اكتُشف مصادفةً في البلد الأقل احتمالاً، في سويسرا.

— سويسرا؟ ذاك البلد المعروف المقتصر على المصارف والساعات والأبقار والشوكولاتة؟

أضافت كارلا: — والمختبرات.

في الأساس، اكتُشف مخدّر LSD لعلاج مرضٍ محدّد لم تعد تذكر اسمه، إلى أن فرّر مركّبه، أو بالأحرى مخترعه كما يُقال، أن يُجرّب بعد سنوات لاحقة تذوّق القليل من هذا المنتج الذي كان يُدرّ أصلاً الملايين على شركات الأدوية في العالم أجمع. ابتلع كمّيّة ضئيلة منه فُقبل عودته إلى المنزل على دراجته الهوائية (كان ذلك في عزّ الحرب، وحتى في ذاك البلد المُحايد بلد الساعات والأبقار والشوكولاتة، كان الوقود يخضع للتقنين)، وأدرك أن كلّ شيء بدا مختلفاً تماماً.

لاحظت كارلا أن تغيراً قد طرأ على ماري. كان عليها أن تتابع قصتها.

لا بُدَّ أنك تتساءلين كيف وصلتني قصّة هذا السويسري كلّها. في الواقع صدر مؤخراً مقال موسّع حولها في مجلة كنت أقرأها في المكتبة. إذن، لاحظ أنّه عاجز عن ركوب درّاجته... رجا أحد مساعديه مرافقته إلى منزله، ثمّ فكّر أن من الأفضل ربّما التوجّه مباشرة إلى المستشفى، فلا بُدَّ أنّه يُصاب بنوبة قلبية. لكن فجأةً، وهذه أقواله إلى حدّ ما، لأنني لم أعد أذكرها حرفياً؛ رحّت أرى الوائناً لم أرها قط، وأشكّالاً لم ألاحظها قط، أبت أن تختفي حتّى عندما أغمضت عيني. كان ذلك أشبه بالنظر من خلال مشكال عملاق ينفّث وينفلق على شكل دوائر ولوالب، يتفجّر ينابيع ملوّنة تتدفّق، كأنهر من فرح.

أتصغين إليّ يا ماري؟

— إلى حدّ ما. لست واثقة أنّي أستوعب كلّ شيء، المعلومات كثيرة، سويسرا، الدراجات الهوائية، الحرب، مشكال... أيمقدورك أن تبسّطي أكثر؟

إشارة تحذير. طلبت فتجاناً آخر من الشاي.

— حاولي التركيز. انظري إليّ وأصغي إلى ما أقوله. ركّزي. سيتبدّد هذا الشعور المريع قريباً. عليّ أن أبوح لك بشيء. لم أعطك سوى نصف الجرعة التي كنت أتناولها عندما كنت أتعاطى مخدّر LSD.

بدت تلك الكلمات وكأنها أراحت ماري. ما إن أحضر النادل الشاي، حتّى أمرت كارلا رفيقتها بشربه. سدّدت الحساب، وخرجتا من ثمّ إلى الهواء المنعش.

— وماذا عن السويسري إذن؟

إشارة جيّدة عنّت أنّ ماري لم تفقد طرف الحديث. تساءلت كارلا

إذا كانت سستمكّن من أن تشتري لها مُهدنًا قويًا إذا تفاقم وضعها وحلّت أبواب الجحيم محلّ أبواب السماء.

– كان المخدر الذي تناولته يُباع علنًا وبلا وصفة، على مدى أكثر من خمس عشرة سنة، في صيدليات الولايات المتحدة الأميركية، وأنت تعرفين مدى تشددهم بشأن المخدرات. حتّى أنّه ظهر على غلاف مجلّة Time بفضل منافعه في علاج الأمراض النفسية وإدمان الكحول. ثمّ حُظر لأنّه كان يؤدّي إلى تأثيرات غير متوقّعة من وقت إلى وقت.

– من مثل ماذا؟...

– سوف نتحدّث في أمره لاحقًا. الآن، حاولي الابتعاد عن أبواب الجحيم أمامك، وافتحي باب السماء. استمتعي. لا تخافي، أنا معك، وأعرف ماذا أقول. قد تستمزين على هذه الحال لساعتين تقريبًا كحدّ أقصى.

قالت ماري: – سأغلق أبواب الجحيم، سأفتح أبواب السماء. لكنني أعرف أنّني حتّى ولو تحكّمت بخوفي، لن تتمكّني أنت من التحكّم بخوفك. أستطيع أن أرى هالتك. أستطيع أن أقرأ أفكارك.

– محقّة أنت. في هذه الحالة، لا بدّ أنّك قد قرأت أنّ لا خطر مميتاً من هذا، إلا إذا قرّرت تسلّق سطح مبنى، لترى، أخيرًا، إن كنتِ قادرة على الطيران.

– أفهم. واعتقد أنّ المفعول قد بدأ يخفّ.

ولعرفتها أنّها لن تموت، ولن تصحبها الفتاة إلى أعلى مبنى ما، شعرت ماري بأنّ نبضها يتباطأ، وقرّرت أن تستمتع بالساعتين الباقيتين.

اتحدت حواسّها، لمسًا وبصرًا وسمعًا وشمًا ومذاقًا، كما لو أنّها كانت قادرة على الشعور بها كلّها في آن. ومع أنّ الأنوار في الخارج قد أخذت

تنحسر، ظلت ترى هالات الآخرين، وعرفت من منهم يتألم، من وجد السعادة، من يُشرف على الموت.

كل شيء كان جديداً. ليس لأنها كانت في اسطنبول فحسب، بل لأنها كانت في نسيج ماري أخرى، اعتق وأشد من تلك التي عايشتها كل تلك السنوات.

تلبّدت السماء أكثر فأكثر، وأعلنت السحب السوداء عن عاصفة مُدبرة، وتفككت أشكالها وفقدت شيئاً فشيئاً معناها الذي بدا من قبل شديد الوضوح. لكنّها كانت واثقة بأن السحب تملك سيفرتها الخاصة في محادثة البشر، وأنها، إن هي راقبت السماء جيداً في الأيام المقبلة، فسوف يؤول بها ذلك إلى فهم رسالتها.

تساءلت إن كان عليها أن تشرح لوالدها سبب اختيارها الذهاب إلى نيبال، لكن سيكون من البلاهة التراجع عن الرحلة بعد أن بلغا هذه الأقصاء. سيكتشفان أموراً يصعب عليهما رؤيتها لاحقاً بسبب قيود العمر. لم كانت تجهل نفسها إلى هذا الحد؟ تذكرت بضع تجارب أزعتها طفلة، وخفت وطاتها الآن، ولم تعد تنظر إليها سوى كتجارب. لم أولتها كل ذلك الاهتمام لوقت طويل؟

في النهاية، لم تحتاج إلى إجابة، أحست بأن تلك الأمور تحل نفسها بنفسها. من حين إلى حين، في النظر إلى ما بدا أرواحاً تدور حولها، كان باب الجحيم يمر أمامها، لكنّها كانت عازمة على عدم فتحه مدى الدهر. في تلك اللحظة، غاصت في عالم يخلو من الأسئلة ومن الإجابات، من الشك ومن اليقين، عالم اتحدت معه، عالم لازماني حيث الحاضر اختزل في الماضي، والمستقبل في الحاضر لا أكثر. كانت روحها تارة روح كائن

عتيق وتارة روح طفلة تستمتع بكلّ جديد، تراقب أصابع يديها وهي تلاحظ أنّها منفصلة، وأنّ كل إصبع تتحرك على حدة. نظرت إلى الفتاة التي برفقتها، بدت سعيدة بعد أن هدأت أكثر، استعادت هالتها نورها، كانت مغرمة بحق. كان سؤالها لها منذ قليل سؤالاً آخرق: نعلم دومًا متى كنّا مغرمين.

بعد زهاء ساعتين من السير، وعندما بلغنا مدخل الفندق أخيرًا، أدركت أنّ الهولندية أثرت السير عبر المدينة إلى أن يذهب مفعول المخدّر قبل ملاقاته الآخرين. وعند سماعها أوّل رعدة، عرفت ماري أنّ الله يكلمها، يقول لها أن ترجع إلى العالم الآن، إذ لا يزال أمامها قدر كبير من العمل لإنجازه. عليها أن تُعين والدها، الذي خلّم بأن يصبح كاتبًا، لكنّه لم يخطّ يومًا ولو كلمة، باستثناء عرض أو دراسة أو مقال.

توجّب عليها إعانته كما أعانها، هنا أساسًا ما طلبه إليها. أمامه قُبعت سنوات طويلة. وذات يومٍ ستتزوّج، وهو أمر لم يكن قد خطر لها يومًا، وكانت تعتبره الخطوة الأخيرة في حياة بلا قيد أو حدّ.

ذات يومٍ إذن، ستتزوّج. وعندذاك، لا بدّ من أن يكون والدها راضيًا عن حياته، بفعل أمرٍ أحبّ فعله. حتّى ولو أحبّت والدتها حبًّا جمًّا، ولم تلمها على الطلاق، فقد رغبت صدقًا في أن يتعرّف والدها إلى من تشاركه في الخطى التي نخطوها جميعًا على هذه الأرض المقدّسة.

فهمت حاضراً لماذا كان المخدّر ممنوعاً؛ لأنّ العالم لن يعمل إلّا من دونه. لو كان مشروعاً، فسوف يتعطّل العالم. ويكفّ الناس عن التواصل إلّا مع ذواتهم، سيحاكون ملايين الرهبان الذين يتأملون في الوقت نفسه في كهوفهم الداخلية، غير أبيهين بأمجاد الآخرين أو فجائعهم. ستكفّ السيارات

عن السير، والطائرات عن الإقلاع، ولن يعود من بذار أو حصاد، وسيُمسي كل شيء تنويرًا ونشوة. وفي غضون وقت قصير، ستمحي الإنسانية عن وجه الأرض بفعل ما وَجِب أن يكون نسيماً مُطَهَّراً، لكنه تحوّل بدلاً من ذلك إلى عاصفة أبادت كل شيء.

كانت في العالم، الذي انتمت إليه، كان عليها إطاعة أمر الله الذي أصدره إليها بصوته الرعدي، أن تعمل، أن تعين والدها، أن تكافح ضدّ الإساءات التي شهدت عليها، أن تشارك الآخرين في معاركهم اليومية.

هذا ما كانت عليه مهمتها، وسوف تُنجزها بتمامها. لقد عاشت من فورها رحلة مع مخدّر LSD، هي الأولى والأخيرة، وكانت مسرورة أنّها انتهت.

ذلك المساء، اجتمع أفراد المجموعة بأكملها، وقرروا الاحتفال بأمسياتهم الأخيرة في اسطنبول في مطعم يقدم المشروبات الكحولية، حيث يمكنهم أن يتعشوا معاً، ويشملوا معاً، ويتبادلوا تجارب يومهم. ودعوا مايكل وراهول للانضمام إليهم. اعترضاً قائلين إن ذلك يخالف أنظمة الشركة، لكن سرعان ما أذعنا.

— حسناً، لكن لا تطلبوا إلي أن أمكث يوماً إضافياً. لا يسعني ذلك، وإلا فساخسر عملي.

لم تكن المجموعة تطلب البقاء. كان في تركيا الكثير ليروه بعد، خصوصاً الأناضول التي قال الجميع إن مناظرها الطبيعية خلابة. لكنهم في الواقع أخذوا يشاققون إلى التبدل المتواصل للمناظر.

كان باولو قد رجع من مكانه الغامض، ارتدى ثيابه، وعلم أنهم راحلون في الغد. التمس العذرة من الجميع، وشرح أنه يؤدّ تناول العشاء مع كارلا بمفردهما.

فهم الجميع وسرّوا ضمناً لهذه الصداقة..

برقت عيون امرأتين في المجموعة، عينا ماري وعينا كارلا. لم يسألها أحد عن السبب، ولم تقدّم أي منهما أي إيضاح.

كيف كان يومك؟

اختار باولو وكارلا هما أيضًا مطعمًا يقدم الكحول، وقد فرغا لتوهما من كأس النبيذ الأولى.

اقترح أن يطلبوا الطعام قبل أن يجيب عن سؤالها، ووافقت. الآن، بعد أن أصبحت امرأة حقيقية، فادرة على الحب بكل قوتها من دون مساعدة أي مخدر، لم يعد النبيذ في نظرها سوى رمز للاحتفاء.

عرفت ما كان ينتظرها، عرفت نوع الحديث الذي سيدور بينهما. فقد حدثت به عندما مارسا الحب الرائع أمس. أوشكت حينها على البكاء، لكنها تقبلت مصيرها، كما لو أن كل شيء كان مكتوبًا. لم ترغب يومًا بحباتها إلا في قلب يتقد حبًا، والرجل الذي اعطاها ذلك كان لحظتها في داخلها. وتلك الليلة، اعترفت له أخيرًا بأنها تحبه، لم تبرق عيناه كما توقعت.

هي لم تكن ساذجة، لكنها كانت على الدوام تحصل على كل ما تريده في الحياة. لم تكن تأنه في الصحراء، كانت تنساب كمياه البوسفور، نحو محيط التفت فيه الأنهر كلها. لن تنسى اسطنبول أبدًا، والبرازيلي الهزيل، ومحادثاته التي لم تستطع فهمها دومًا. لقد حقق لها معجزة، لكن لم يكن من داعٍ ليعرف. لا نفع من جعله يشعر بالذنب، فقد يُبدل رأيه.

طلباً زجاجة ثانية، وشرع من ثم في الكلام:

— كان الرجل الذي ليس له اسم في المركز الثقافي عندما وصلت. حييته، لكنه لم يرد التحية. ظل مُركّزاً بصره في شيء، كما لو أنه في انخفاف. ركعتُ على الأرض، حاولتُ إفراغ ذهني، والتأمل، لكي أتواصل مع الأرواح التي رقصت وأنشدت واحتفت بالحياة في هذا المكان. عرفتُ أنه سوف يخرج من حالته وانتظرتُ. الحق أنني لم «أنتظر» بالمعنى الحرفي للكلمة، استسلمت بالأحرى للحظة الحاضرة، من دون أن أنتظر شيئاً على الإطلاق.

دعت مكبرات الصوت المدينة إلى الصلاة، خرج الرجل من انخفافه لتأدية إحدى الركعات الخمس لليوم. ولم يتنبه لوجودي إلا حينها، وسألني لماذا رجعت.

شرحتُ له أنني صرفتُ ليلتي أفكر في لقائنا، وأني أودّ تكريس نفسي جسداً وروحاً للتصوّف. كنتُ أستميت لأخبره بأنني للمرة الأولى في حياتي مارست الحب فعلياً، لأنني عندما كنت البارحة معك، في داخلك، أحسستُ حقاً بأنني كنتُ أخرج من جسدي. لم يسبق لي أن عشت تجربة مماثلة قط. لكنني خلتُ أن الموضوع غير مناسب ولم أقل شيئاً.

— اقرأ الشعراء، يكفيك ذلك. جاء الردّ من الرجل الذي ليس له اسم. وأضاف، «هذا كل ما يلزمك».

في نظري، لم يكن ذلك كل ما يلزمي. لزمني الانضباط، الصرامة، مكان يُمكنني أن أخدم فيه الله لكي أتقرب من باقي العالم. قبل زيارتي الأولى للمركز، أذهلني الدراويش الذين كانوا يرقصون ويدخلون في نوع من الانخفاف. والآن، لزمني أن تراقصني روحي.

أعلي أن أنتظر ألف يوم ويوم لحدوث ذلك؟ فليكن. حتى ذلك الحين، ساكون قد عشت ربّما ضعف ما عاشه زملائي في المدرسة. يُمكنني أن أكرّس السنوات الثلاث المقبلة من حياتي لذلك. وأحاول في نهاية المطاف أن أبلغ حالة الانخراط أسوة بالدرأويش الدوّارين.

— يا صديقي، يعيش الصوفي في اللحظة الحاضرة على الدوام. الغد لا وجود له في معجمنا.

نعم، عرفت ذلك. سؤالي كان: هل أنا مجبر على اعتناق دين الإسلام لكي أتقدّم في تعلّمي؟

— لا. حسبك أن تقطع وعدًا واحدًا، أن تُسلّم نفسك لدرّب الله. أن ترى وجهه كلّما شربت الماء. أن تسمع صوته كلّما مررت بمتسوّل في الشارع. هذا ما تبشّر به الأديان كافّة، وهذا العهد الوحيد الذي عليك أن تفي به، الوحيد.

— لكنني لم أكتسب بعد الانضباط الكافي، بيد أنني بمساعدتك، يُمكنني أن أبلغ المكان الذي تلتقي فيه السماء بالأرض، أي في قلب الإنسان.

قال لي الرجل الذي ليس له اسم إنّه سيساعدني، شرط أن أتخلّى عن حياتي كلّها وأدعها خلفي، وأن أنفد كلّ ما يُعليه عليّ، عليّ أن أتعلّم التسوّل متى خلا المال من جيبي، أن أصوم متى حان وقته، أن أخدم البرص، أن أغسل جروح المرضى. أن أصرف نهارات لا أفعل فيها شيئًا بالمطلق سوى التركيز في نقطة ثابتة، وأنا اتلو بلا انقطاع الصلاة نفسها، الجملة نفسها، الكلمة نفسها.

— بع حكمتك، واشترِ حيّزًا في روحك لكي تملأه بالمطلق. فحكمة البشر، رجالًا ونساء، جنون في ناظري الله.

عندها، رُحِتْ أَشْكُكَ فِي قُدْرَتِي عَلَى ذَلِكَ، رَبِّمَا كَانَ يَمْتَحِنُنِي لِيرَى إِنْ كُنْتُ سَأُطِيعُهُ إِطَاعَةً مُطْلَقَةً. لَكُنَّيْ لَمْ أَلَسْ تَرْدَدًا فِي صَوْتِهِ، وَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ جَادٌ. وَعَرَفْتُ أَيْضًا أَنَّ جَسَدِي دَخَلَ تِلْكَ الْقَاعَةَ الْمَطْلِيَّةَ بِالْأَخْضَرِ الْمَتَدَاعِيَةِ، بِنَوَافِذِهَا الْمُتَكَسِّرَةِ، ذَاكَ الْيَوْمَ تَحْدِيدًا الَّذِي خَلَا مِنَ النُّورِ لِاقْتِرَابِ عَاصِفَةٍ. عَرَفْتُ أَنَّ جَسَدِي دَخَلَهَا، لَكِنْ رُوحِي بَقِيَ خَارِجًا، تَنْتَظِرُ نَتِيجَةَ كُلِّ هَذَا. انْتَظَرْتُ يَوْمَ أَدْخَلَ ذَاتَ يَوْمٍ بِمُصَادَفَةٍ إِلَى هُنَاكَ لَكِي أَجِدَ فِيهَا آخَرِينَ يَدُورُونَ وَاحِدُهُمْ حَوْلَ الْآخَرِ. وَسَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ رَقِصَةً بِأَلِيهِ مَتَقَنَّةُ التَّوْلِيفِ. لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مَا كُنْتُ أُبْحَثُ عَنْهُ.

عَرَفْتُ أَنَّنِي إِذَا لَمْ أَقْبَلِ الشُّرُوطَ الَّتِي كَانَ يَفْرَضُهَا عَلَيَّ، فَسَيَكُونُ فِي الْمَرَّةِ الْمُقْبِلَةِ، الْبَابُ مُوصَدًا فِي وَجْهِي، حَتَّى وَلَوْ تَرَكْنِي أَدْخُلُ وَأُخْرَجَ عَلَى سَجِيَّتِي كَمَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى.

كَانَ الرَّجُلُ يَقْرَأُ دَاخِلَ رُوحِي، فَفَقِهَ تَنَاقُضَاتِي وَشُكُوكِي، وَظَلَّ عَلَى ثَبَاتِهِ، الْكُلُّ أَوْ لَا شَيْءَ. قَالَ إِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَأْنِفَ تَأْمَلَهُ، وَرُجُوتَهُ أَنْ يُجِيبَنِي عَنْ أَسْئَلَةٍ ثَلَاثَةَ عَلَى الْأَقْلَى:

— أَتَقْبَلُنِي تَلْمِيزًا لَكَ؟

— لَا يَسْعَنِي سِوَى أَنْ أَقْبَلَ قَلْبَكَ تَلْمِيزًا لِي، فَإِنْ رَفَضْتَ، لَنْ يَعُودَ مِنْ جَدْوَى لِحَيَاتِي. أَنَا أَظْهَرُ حُبِّي لِلَّهِ بِطَرِيقَتَيْنِ: الْأُولَى، فِي إِجْلَالِهِ، لَيْلَ نَهَارٍ، فِي عَزَلَةٍ هَذِهِ الْقَاعَةِ، لَكِنْ هَذَا لَا يُفِيدُهُ بِشَيْءٍ، وَلَا يُفِيدُنِي حَتَّى. وَالثَّانِيَّةُ، فِي الْإِنْشَادِ وَالرَّقْصِ وَإِظْهَارِ وَجْهِهِ لِلْجَمِيعِ عَبْرَ فَرْحِي.

سَالَتْ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَّةِ: — أَتَقْبَلُنِي تَلْمِيزًا لَكَ؟

— كَمَا الطَّيْرُ يَعْجُزُ عَنِ التَّحْلِيْقِ بِجَنَاحٍ وَاحِدٍ، يَكُونُ الْمَعْلَمُ الصُّوفِيُّ نَكْرَةً مَا لَمْ يَنْقَلِ تَجْرِبَتَهُ إِلَى شَخْصٍ آخَرَ.

سألت للمرّة الثالثة والأخيرة: - اتقبلني تلميذاً لك؟

- إذا اجتزت هذا الباب في الغد كما فعلت في اليومين الأخيرين،
سأقبلك تلميذاً لي. لكنني على ثقة بأنك ستندم.

أترعت كارلا كأسيهما، ورفعت كأسها له.

- «انتهت رحلتي هنا، كزّر قوله ظاناً أنها لم تفهم فحوى ما قاله لها.
أضاف: - ليس لديّ ما أفعله في نيبال.

استعدّ لمواجهة الدموع والغضب والبأس والتلاعب العاطفي وكل
ردود الفعل المحتملة التي قد تأتي بها امرأة قالت له «أحبك» أمس.
لكنها اكتفت بالابتسام.

أجابت كارلا بعد أن كانا قد أفرغا كأسيهما، وأترعتهما كارلا ثانية:
- لم أخل يوماً أنني قادرة على أن أحبّ شخصاً بقدر حبيّ لك. كان قلبي
موضّداً، لا لأسباب نفسية، ولا افتقاراً إلى كيميائية وما إلى ذلك. إنّه
أمر لن أتمكن يوماً من تفسيره. لكنّه فجأة، انفتح، ولا يسعني القول متى
بالضبط. وسأحبك حتى آخر أيّامي. سأحبك، عندما أبلغ نيبال. سأحبك،
عندما أعود إلى أمستردام، وعندما أغرم أخيراً بشخص آخر، سأظلّ على
حبك، وإن اختلف عن حبيّ لك اليوم.

والله: لا أدري إن كان موجوداً. لكنني أمل أن يكون إلى جانبنا، ويُصغي
إلى كلامي. أطلب إلى الله ألا يسمح لي بعد الآن أن أكتفي برفقتي لنفسية،
بالخوف من حاجتي إلى شخص ما، أو من المعاناة. فما من معاناة أشدّ من
الشعور بأنّ حجرة رمادية مُظلمة لا يستطيع الوجود دخولها.

أطلب أن يقودني هذا الحب الذي يُحكى عنه كثيرًا، الذي يتشارك فيه كثيرون، ويتألم بسببه كثيرون، إلى ما كنت أجهله، والذي يتجلى أكثر الآن. وأطلب، كما قال أحد الشعراء يومًا، أن يحملني الله إلى بلاد لا تعرف لا الشمس ولا القمر ولا النجوم ولا الأرض ولا مذاق النبذ في الفم، بل تعرف الآخر فقط، الذي سألتقيه، لأنك مهنت الدرب.

وأطلب أن أسير من دون قدمي، أن أرى من دون عيني، أن أطير من دون جناحين.

اعتزى باولو السرور كما الدهشة. كانا كلاهما يتوجهان إلى بلاد مجهولة طافحة بالأهوال والعجائب. وهنا في اسطنبول، حيث تمكنا من زيارة كل الأماكن السياحية التي اقترحت عليهما، اختارا أن يرتحلا إلى روحيهما. ولا شيء في العالم ضاهى ذلك، لا شيء كان أكثر عزاء.

نهض، استدار حول الطاولة، وقبلها، مدركًا أنه يخالف الأعراف المحلية، وأنه قد يشعر المالكين بالإهانة، غير أنه قبلها مع ذلك، بحب بلا شهوانية، برغبة بلا ذنب، عارفًا أنها ستكون قبلتهما الأخيرة.

ومع أنه لم يرد أن يفسد سحر اللحظة، كان عليه أن يطرح السؤال الذي ألح عليه،

— أتوقعت ذلك؟ أكنت مستعدة له؟

اكتفت بالابتسام من دون أن تجيب. ولن يعرف الإجابة أبدًا، فهذا هو الحب الحقيقي؛ سؤال لا إجابة عنه.

أصرّ على مرافقتها حتى الباص. كان قد أبلغ السائق أنّه سيمكث هنا ليتعلّم ما احتاج إلى تعلّمه. لبرهة، رغب في قول الجملة الشهيرة من فيلم «كازابلانكا»: «سيظلّ لنا باريس». لكنّه عرف أنّها فكرة سخيفة، وكان عليه الإسراع في العودة إلى القاعة الخضراء وإلى المعلّم الذي ليس له اسم.

ادّعى الرّكاب عدم رؤية شيء، ولم يودّعه أحد: باستثناء مايكل، فلم يعرف أحد أنّها كانت محطّته الأخيرة في هذه الرحلة.

عانقته كارلا من دون أن تنبس ببنت شفة، لكنّها تمكّنت من الشعور بحبّه كما لو أنّه تجسّد، نورًا يتعاظم شدّة، كشمس صباح تُنير الجبال أولاً، فالمدن، ثمّ السهول، فالبحر.

أغلق الباب وانطلق الباص. استطاع أن يسمع أكثر من شخص يتعجّب: «يا أنت، تركت البرازيلي خلفنا!»، غير أنّ الباص كان قد مضى. ذات يوم، سيلتقي كارلا من جديد، وسيسألها عن باقي رحلتها.

خاتمة

في شباط من العام ٢٠٠٥، وإذ كان حينها كاتبًا ذائع الصيت في العالم أجمع، ذهب باولو إلى أمستردام لحوارٍ مهم شامل. في الصباح، أجرى أحد البرامج التلفزيونية الهولندية الرئيسية مقابلة معه في النزل القديم الذي بات فيه، والذي تحوّل إلى فندق فاخر، لغير المدخنين، ذي مطعم صغير ولكن فخم ومحترم.

كانت اخبار كارلا منقطعة تمامًا عنه. وأصبح دليل «أوروبا بخمسة دولارات في اليوم، دليل «أوروبا بثلاثين دولارًا في اليوم». أقفل «باراديسيو»، (فتح أبوابه بعد عدّة سنوات، كقاعة حفلات). كانت ساحة «دام، مقفّرة، لم تعدّ كونها ساحة قام في وسطها نصب غامض، لم يعرف الهدف من وجوده فيها يومًا، وفضّل ألا يعرف يومًا.

انتابته الرغبة أن يمشي الشوارع التي جابها ذات يوم، متوجّهاً إلى المطعم الذي يُقدّم الطعام مجانًا. لكن بما أنّه كان دومًا برفقة أحدهم، منظم الحوار، فقد أسرّ إلى نفسه أن من الأولى له العودة إلى الفندق لتحضير خطاب المساء.

لامسه امل ضئيل في ان تحضر كارلا لمقابلته عندما تعرف أنه في المدينة. تصوّر أنّها لم تمكث طويلاً في نيبال، تماماً كما تخلّى عن فكرة أن يصبح متصوّفاً، رغم أنه ظلّ صامداً زهاء سنة، وتعلّم أموراً سترافقه حتّى الرmq الأخير.

خلال المؤتمر، روى جزءاً من القصة المسرودة في هذا الكتاب. وفي لحظة من اللحظات، لم يتمكن من ردع نفسه وسال: «كارلا، أنتِ هنا؟».

لم ترفع أيّ امرأة يدها. يُحتمل أنّها جاءت، ويُحتمل أنّها لم تسمع بخبر زيارته المدينة، ويُحتمل أنّها كانت هنا، لكنّها آثرت ألاّ تغوص في الماضي من جديد.

هكذا كان أفضل.

جنيف، ٣ شباط ٢٠١٨

ملاحظات وشكر

أشخاص هذا الكتاب كافة حقيقَيون. وقد غيّرت أسماءهم، ما عدا اثنين، لاستحالة إيجادها (ذلك أنني لم أعرف الأشخاص سوى بأسمائهم الأولى).

رويتُ مشهدَ سجنِي في بونتا غروسا، (١٩٦٨) بإضافة تفاصيل من إقامتين أخريين في السجن تعرضتُ لهما في ظلّ الديكتاتورية العسكرية (في أيار ١٩٧٤، عندما كنتُ كاتب أغنيات).

أودُ أن أتقدّم بالشكر إلى ناشري ماتيناس سوزوكي جونيور، ووكيلتي وصديقتي مونيكّا أنتونس، وزوجتي، الفنّانة المرئية (التي رسمت خطّ السير الكامل للباص السحري). عندما أضع كتابًا، أنفلق على ذاتي ولا أتكلّم مع أحد، ولا أحبّ التحدّث عمّا أكتب. تدّعي كريستينا جهلها ذلك، وادّعي أنني أصدّق أنّها تجهله.

[@ktabpdf](https://t.me/ktabpdf) telegram

الحلم أمر لا يُمكن التنبؤ به،
وهو خطير على أولئك الذين
لا يتحلّون بالشجاعة ليحلموا



إذا أردت أن تتعمّق في معرفة نفسك، ابدأ باكتشاف العالم من حولك.

هكذا يعتمد باولو كويلو، المؤلّف الأكثر مبيعاً، على تجربته الحياتية الغنية، ليعيدنا إلى حقبة من الزمن، هدفه منها إحياء جيل ينشد السلام، ويمتلك الجرأة على تحدّي النظام الاجتماعي القائم. في هيتّي يتقصّد أن يروي قصّة باولو الشاب البرازيلي النحيل ذي الشعر الطويل المنساب، والذي يرغب أن يصير كاتباً، وينطلق في رحلة بحث عن معنى أعمق لحياته. أقلّه في البدء قطار الموت، الشهير في بوليفيا، إلى البيرو، ليكمل طريقه متطوّلاً إلى تشيلي، فالأرجنتين.

يصل المطاف بباولو إلى البعيد، حيث يحطّ رحاله في ساحة دام الشهيرة بأمستردام، المكتظة بشبّان يرتدون ملابس نابضة بالحياة، ويحرقون البخور، ويمارسون التأمل والعزف، وهم يناقشون موضوع التحرّر الجنسي، سعياً إلى توسيع آفاقهم، والبحث عن حقيقة دواخلهم.

هناك يلتقي كارلا الفاتنة الهولندية العشرينية، التي كانت بانتظار رفيق مثالي تمضي معه على الطريق الهيبة الأسطورية، المفضية إلى نيبال. تُقنع باولو بالانضمام إليها في رحلة على متن الباص السحري المسافر عبر أوروبا وآسيا الوسطى وصولاً إلى كاتماندو. يصحبهم في الرحلة مسافرون رائعون، لدى كل منهم قصة طريفة يرويها. مسافرون سرعان ما يخضعون على طول الطريق، لتحولات في شخصياتهم، حيث تتغيّر أولوياتهم وقيمهم وقناعاتهم.

خلال سفرهما معاً، يستكشف باولو وكارلا علاقتهما الخاصة، التي تسفر عن قصة حبّ، تعرّف لهما الحياة من جديد، وتوقظ فيهما مشاعر وأحاسيس تؤدّي بهما إلى اتخاذ خيارات وقرارات، هي التي ستحدّد مسار حياتهما المقبلة.

ISBN 978-9953-88-999-3



9 789953 889993

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

الجنّاح. شارع زاهية سلمان.
مبنى مجموعة حسين الحيايط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٩٦١١ ٨٣٠٦٠٨ فاكس: ٩٦١١ ٨٣٠٦٠٩

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

